

الأسيرة



الكتاب: الأسيرة  
المؤلف: محمد الشرقاوي  
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد  
تدقيق لغوي: هدير جودة  
رقم الإيداع: 2020/13069  
الترقيم الدولي: 3-233-778-977-978  
الطبعة الأولى: 2020

20 عمارات منتصر - الهرم - الجيزة  
ت-011-27772007 02-35860372  
Noon\_publishing@yahoo.com  
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناس



# الأُسيرة

## رواية

محمد الشرقاوي



## بطاقة فهرسة

الشرقاوي، محمد.

الأسيرة: رواية/ محمد الشرقاوي، الجيزة: ن للنشر والتوزيع، 2020.

225 ص\_ 20×14 سم.

تدمك 3- 978-8-977-778-233.

1\_ القصص العربية

أ\_ الأسيرة

رقم الإيداع: 2020/13069

التاريخ: 2020/7/29

# الفصل الأول

## البداية

الزمان: أواخر ذي القعدة لعام ٦٥٨هـ... المكان  
صحراء القاهرة من المدخل الشرقي لقلعة الجبل...  
الحدث: عودة الملك الظاهر بجيش المماليك بعد  
تطهير الشام من جيوش التتار عقب النصر بموقعة  
عين جالوت...

ارتفعت سحب الغبار من أسفل سنانك خيل فرسان  
المماليك لتحتضن قرعات طبول الانتصار بسماء القاهرة بعد  
النصر المبين... ما كان غريباً على ابنة المعز لدين الله الفاطمي أن  
ترتدي ثوب الانتصار... إلا أن تلك المرة اختلفت عن سابقتها  
كثيراً... فقد سحقت قبضة أبناء النيل أنياب ومخالب وحوش  
المغول وأنقذت العالم من ذلك السيل العرم لأنهار الدماء...  
وفتحت أبواب القاهرة ترتج في جنبات سورها القديم تكبيرات  
النصر... وفي مقدمة الجيش السلطان ركن الدين بيبرس بين  
كوكبة فرسانه وأمرائه الأبطال ودوت أهازيج النصر وعلت  
الحناجر هتافاً للملك الظاهر والجيش الذي لا يقهر.... فرحة  
عارمة وبشرى بعهد جديد ودولة قوية ورخاء استحقته البلاد  
بعد سنواتٍ من عدم الاستقرار والخوف من بطش التتار.

تقدم الفرسان المماليك محيطين بسلاطنتهم حتى قلعة  
الجبل مستقر عرش مصر وقصر حكمها... ترتسم على الوجوه  
آيات الانتصار وبهجة العودة إلى الديار ومن بين الفرسان كان

الأميرفارس الدين كرك خورشيد الذي نال من اسمه شراسة  
ألف ذئب في أرض المعركة وسطعت وسامة وجهه كالشمس في  
ضياؤها بين سحب السماء.

ما شهدت قلعة الجبل طوال عمرها المديد مثل ذلك اليوم  
الحافل بالنصر المبين وما شهدت أبوابها مثل ذلك الجيش  
المكمل بأكاليل الانتصار وكبرياء العزة والكرامة وقد أدرك السلطان  
الظاهر أن ساعة المكافأة لأبطاله ومغاوير جيشه قد حانت...  
وبعد أن استراحت الأبدان من حر نيران المعارك واغتسلت  
الوجوه من وعثاء سفرٍ طويل أعلن السلطان اجتماع قادة وأمراء  
المماليك بديوان عرشه فقد آن أوان ترسيخ قواعد دولته وتنظيم  
شؤون مملكته... كان الظاهر بيبرس محارباً يعلم أصول الحرب  
وقواعد اكتساب الرجال واستمال بدبلوماسيته الفذة ولواء رجال  
المماليك وقادتهم واستطاع أن يكتسب ثقتهم واحترامهم... وفي  
اليوم الخامس من عودته أعلن السلطان اجتماعه بصغار قاداته  
من أمراء العشرة وأمراء الخمسة وهم الصف الثاني والثالث  
من قادة الجيش ونواب قادة الفيالق ولواءات كتائب الجيش...  
كان فارس الدين حاضراً بإجماع كافة القادة الكبار لما أبلاه من  
شجاعةٍ بأرض المعركة فقد أنقذ بحد سيفه حياة السلطان  
إبان معركة بيسان وكان من أوائل المقتحمين لقلعة حلب  
حيث خضب سيفه بدماء العشرات من أبطال التتار... وأعلن  
المنادي السلطاني بقاعة العرش إسمه فانتصب بقامته الفارعة  
وجسده الممشوق أمام عرش السلطان الظاهر وأدى له التحية  
العسكرية... فقال السلطان بعد أن رد تحية الفارس :

-عرفني بنفسك أيها الفارس-

-أضاء الله عرش مولاي الظاهر بنور معرفته... مملوكمكم  
المخلص لعهد سيفكم فارس الدين كرك خورشيد الخوارزمي

طوع أمركم يا جلالة السلطان المعظم... أمير خمسة من فرسان  
البحرية وخشداشية أميري المرحوم بأمر الله تعالى فارس الدين  
أقطاي الجمدار تغمده الله بواسع رحمته وأمد الله في عمر  
جلالكم

-رحمة الله على أستاذنا فارس الدين أقطاي... تذكرتك أيها  
الفارس فقد تلقيتك مملوك حلقة بخشداشية أستاذي رحمه  
الله... كنت لازلت صغيراً إلا أن رأيي بك لم يخب... رأينا شجاعتك  
وبأس حسامك في أرض المعركة ولا ننسى لك استبسالك في  
الدفاع عنا أمام سهام وسيوف التتار في معركة بيسان

-أعزكم الله يا مولاي وما فعلت إلا ما يجب على الجندي  
تجاه قائده وأستاذه وأضرع إلى الله أن يجعل سيفي وقوتي في  
خدمة ديني ورفعة بلادي وتثبيت ملككم وسلطانكم العادل بإذن  
الله

-أمرنا نحن الملك الظاهر سلطان مصر والشام ترقية الفارس  
فارس الدين كرك خورشيد الخوارزمي من أمير خمسة إلى أمير  
مئين بفرسان الجيش السلطاني وأمرنا بتعيينه والياً على إقطاعية  
الأهوار بجنوب المنيا ووهبناك جارية تتارية من سبايا معركة  
بيسان أيها الفارس ملكاً ليمينك... أحسنت صنعاً أيها المحارب  
الشاب وصار لزاماً على السلطان أن يكرمك ويرد لك حسن  
صنيعك.... إعدل فيما تملك ولا تنسى حق الله في مالك وخراج  
أرضك... واصنع من فرسانك ومن هم تحت إمرتك أبطالاً  
وجنوداً يعز الله بهم الإسلام والمسلمين ويذهبون أعداء دينك  
وبلادك.

- أعز الله الملك الظاهر وأعلى من شأنه وامتدت حياته.

\*\*\*

الزمان صيف عام ٢٠١٣م... المكان محافظة الرقة  
في سوريا... الحدث اجتياح قوات تنظيم الدولة  
الإسلامية بالعراق والشام للمحافظة بعد انهزام قوات  
الجيش السوري الحر وإعلان سيطرة التنظيم على  
المحافظة...

تعالَت سحب الغبار من أسفل إطارات سيارات الدفع الرباعي  
المحملة بالمدافع والأسلحة والمقاتلين الملتئمين المتشحّين  
بالسود ترفرف فوقها الرايات السوداء... ومع اقتراب السيارات  
اجتاح الرعب والخوف قلوب سكان الرقة الذين ما زالت تدوي  
بآذانهم أصوات طلقات الرصاص المتبادلة بين أبناء البلد الواحد  
من قوات الجيش النظامي وميليشيات قوات المعارضة وجبهة  
النصرة المنقلبة على رئيس البلاد وسلطان الدولة... لقد تحولت  
المدينة الهادئة التي كانت يوماً عاصمة الخلافة العباسية إلى  
مسلخ كبير تراق فيه الدماء أنهاراً بعد الأحداث الدامية التي  
قامت بالبلاد إبان أيام المؤامرة التي ما كانت إلا خريفاً قاسياً أطاح  
باستقرار سوريا... والآن أتى الهول الأسود والإرهاب الدموي إلى  
أرض المدينة التاريخية التي تنزف دماءها كل صباح.

وفي غضون أيام لم يسمع في أجواء الرقة سوى الصراخ كخلفية  
وحشية لأعمال القتل والتخريب إلى جانب أصوات الانفجارات  
وطلقات الرصاص... وعلى أسوار مقر الفرقة ١٧ ارتفعت الراية  
السوداء معلنة قيام ولاية الرقة تحت سيطرة تنظيم داعش...  
وبداخل قاعة الثكنة العسكرية الرئيسية كان الاجتماع الأول لوالي  
الرقة برجاله وقادة ميليشياته وكتائبه... كان صلاح الدين التركي  
بأعوامه الثلاثين كتلة من القسوة والحنكة العسكرية والدموية...  
كان بالنسبة إلى قاداته وجنوده هو المخلص ورافع راية الإسلام  
في الرقة الجريحة... وكأي قائدٍ منتصر كان لا بد له من استعراض  
قوته وسيطرته فبعد الاجتياح بأيامٍ قليلة يدخل إلى قاعة

المعسكر الرئيسية بزيه العسكري المموه وبندقيته الآلية معلقةً على ظهره وسط رجلين من أخلص رجاله وعلى الفور انتفض المقاتلين من على مقاعدهم مكبرين مهللين لحضور قائدهم المرعب ومن بينهم عبد الرحمن... كان ذلك اسمه القديم قبل أن يهتدي إلى طريق الصواب والخير في زعمه... لا زال يذكر تلك اللحظات المباركة حين هجر أهله الكفار وباع الخليفة أبو بكر البغدادي في الموصل بالعراق وسخر نفسه وجسده للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق وأقسم بأغلظ الأيمان أن يفنى في سبيل تحقيق حلم دولة الخلافة الإسلامية في العراق والشام ليعيد أمجاد الدولة الإسلامية ويفتح المدن لنور الله ويقاثل الكافرين والمارقين.... كانت فرصته الحقيقية الأولى في معركة التصدي للرتل المدرع الذي تحرك من اللواء ٩٣ إلى مقر الفرقة ١٧ في محاولةً لتحريرها من قبضة التنظيم... استمات عبدالرحمن في القتال حتى استحق أن يكون من الجنود المميزين مما لفت انتباه قادة التنظيم له... لا عجب في أن يحضر الاجتماع مع القائد العسكري الذي اعتبره عبد الرحمن مثله الأعلى في الالتزام والقوة... كان دائماً ما يتمنى أن يكون من المقربين لصلاح الدين التركي... أي شرف وفخر يشعر به للقياء في اجتماع كهذا... وقف صلاح الدين التركي منتصباً شامخاً برأسه أمام قاداته ومقاتليه وبصوتٍ بيري النبرات قال:

-الله أكبر الله أكبر يا أسود الجهاد... ها قد فتحنا الرقة لنور الإسلام وخلصناها من رجس الكافرين أعوان الطاغوت الأسود... أي أسدٍ هذا الذي يدعيه ذلك الكافر الزنديق؟... سنسحق قواته ونكسر أنيابه ومخالبه بإذن الله ورسوله وخليفته.

ووسط تلك الكلمات التي ألهمت حماسة المقاتلين ارتفع صوت التكبير من الحناجر وزاد صخب وزئير الرجال حتى رفع الأمير يده مهدداً لصخب رجاله.. واستمر في خطبته الحماسية



حتى اشتعلت الصدور بنيران الكراهية لكل معارضي الدولة الإسلامية وزاد الهتاف والصراخ وأعلن الأمير أن أموال الأهالي من الكفار والملاحدة من سكان الرقة هي حلالاً خالصاً للمجاهدين من رجاله وأن نسائهم غنيمة حرب لمن أسرها وأصدر أوامره للمقاتلين بالانطلاق في ديار الكفار أهالي الرقة ليروا مدى قوة جنود الله الذين أتوا لنشر الحق والدين فيما بينهم وليكن الاحتفاء والتكريم والمجد لمن يذق الكافرين كأس العذاب حتى يتوبوا إلى الله ويباعوا خليفته المعصوم أبو بكر البغدادي.

انتهى الاجتماع الحماسي... وانطلق قادة الجماعات المسلحة كلاً لأداء مهمته بحسب تعليمات أمير جماعتهم... وحين مغادرة عبد الرحمن للقاعة شعر بيدٍ قويةٍ تمسك بكنته بصرامة... فاستدار عبد الرحمن ليجد أحد حراس القائد صلاح الدين يدعو للبقاء بأوامر القائد... كاد يغشى على عبد الرحمن من شدة الحماسة والرغبة... أيعقل أن يتحدث وجهاً لوجه مع والي أمير المؤمنين شخصياً؟!.... اقتاده الحارس المتجهم عبر غرفةً داخليةً ملحقةً بقاعة الاجتماعات وما أن دخلها حتى فوجئ بالحارس الذي كان بصحبته وزميله يقيدان حركته ويجبراه على الانحناء بجذعه للأمام فانصاع لهم على الفور ودون أدنى مقاومة فتركهما يقتادانه كالأسير إلى حضرة قائده... وما أن صار أمامه حتى أصدر صلاح الدين التركي الأمر للحارسين أن يسمحا لعبد الرحمن بالانتصاب واقفاً... وبعينان قاسيتان تفحصه من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه... وبصوته البشري الخشن قال:

-السلام عليك أيها المجاهد-

ومد صلاح الدين التركي يده إلى عبد الرحمن الذي انقض على يد أميره وقبلها بخشوع ورهبة

-وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أميرنا المفدى

-وصلتني أخبارك أيها المجاهد... علمت أنك كنت من أشجع الرجال في مواجهة الرتل المدرع

-أنا جنديّ مجاهد بجيش أمير المؤمنين أبي بكر البغدادي أعز الله ملكه... دمائي فداء رايتنا المباركة وما قمت بأكثر من واجبي يا مولاي الأمير

-بارك الله فيك أيها المجاهد... وما قولك إن كلفتك بمهمة جلية سيكون من شأنها تقوية رجالنا وتثبيت سلطان وهيبة مولانا الخليفة؟

-جسدي وروحي فداءً لمولانا الخليفة رضي الله عنه وأرضاه  
-الله أكبر... أراني أمام أميرٍ مجاهد في سبيل نصره دولة الإسلام ورفعتها

-هذا شرفٌ كبيرٌ أرجو الله أن أكون جديرًا به

-تعلم أيها المجاهد مدى احتياجنا للسلاح لمواجهة الكفار أعداء الله وأنظمة الطواغيت التي أذهبت الدين فأذهب الله ملكهم

-أعلم يا أميرنا

-لقد وفق الله خليفتنا الرشيد إلى عقد اتفاقٍ مع بعض أصدقائنا لتوريد شحنات الأسلحة والذخيرة المطلوبة لتجهيز جنود الإسلام لمواجهة جيوش أعدائنا الملاحين

-الله أكبر والعزة لدين الله ومولانا الخليفة

-ولكن لاشيء دون ثمن يا أخي في الله... فلأصدقائنا بعض المطالبات ولا أحسب أحداً قادراً على جلب ذلك الثمن غيرك

يا أبا عبيدة

ارتج قلب عبد الرحمن بين ضلوعه... لقد كناه أميره بكنية لا يحصل عليها إلا أعلى الرجال في التنظيم همّة وبأساً... أيكون له من كنيته المباركة ما لصاحبها من فضل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؟... لم يخطر بباله مطلقاً أن يرقى إلى تلك المرتبة في التنظيم فلا زال صغير السن والمكانة ولم يحظى بتعليم مرموق ولم يكن له يوماً مهنة في حياته الأولى قبيل سفره للعراق في أواخر عام ٢٠١١م لينضم إلى المقاومة بعد أن يؤس من حال بلاده في تلك الآونة وبعد أن هداه الله إلى جماعته الأولى... وما أن أفاق من ذهوله حتى تساءل مؤكداً لنفسه ما سمعه:

-أبا عبيدة؟!!!

-أدعو الله أن تحظى من كنيته الجديدة ما لها من شرفٍ ومكانة

-آمين يا رب العالمين... أرجو الله تعالى أن أكون عند حسن ظنكم المبارك يا أميري

-والآن يا أبا عبيدة أصغي إلي جيداً... تعلم أن بولايتنا الرقة يوجد متحفٌ قديم لعرض الأصنام النجسة وبعض كتب الفسق والإلحاد وآثارٌ قديمة لدولة الخلافة العباسية... وقد قام الكفار الأنجاس بوضع تلك الآثار مختلطةً بالمتحف وقد تمكنت قوات الطاغوت الأسد من وضع قوةٍ مسلحةٍ صغيرة لتأمين ذلك المتحف

-ولكن يا مولاي ما علاقة حلفائنا بتلك الآثار البالية؟... وما قيمة تلك القاذورات في نظر أصدقاء خليفتنا العظيم؟

قال الأمير وقد تحولت نبرة صوته إلى نبرةٍ خشنةٍ وصارمة:

-ثكلتك أمك يا فتى... أتجرؤ على السؤال عن مراد خليفة الله على الأرض؟

قال عبد الرحمن بخوف والعرق يتفصد من جبهته وأطرافه ترتعد فرقاً:

-عفو مولاي وغفرانه... ما كانت إلا لحظةً تملكني شيطان الفضول فيها... أستغفر الله العظيم من كل ذنب... إغف عني سيدي فما الإنسان إلا خطأ ظلومٌ جهول

هدأت ملامح صلاح الدين التركي قليلاً... وقال بصوته الجاف بنبرة باردة:

-إياك والسؤال عن أوامر خليفتنا المعصوم... لقد بعثه الله فينا ولا يحق لنا مخالفة أمره أو إتيان نواهيه... والآن أريدك أن تتجه إلى معسكرات التدريب لانتقاء رجال جماعتك وفي موعدٍ أقصاه غداً بعد صلاة العشاء تأتيني بخطة اقتحام مبنى المتحف وعندها أخبرك بطلبات خليفتنا التي طلبها أصدقاء دولتنا العلية نظير شحنات الأسلحة والذخائر.... والآن أغرب عن وجهي واتجه إلى المسجد وصل لله مئة ركعة استغفار على ذنبك والا أمرت الجلادين أن يطبقوا عليك حد إهانة خليفة الله أمد الله بقاءه.

وكما دخل عبد الرحمن قام الحارس بتكبيله وإجباره على الإنحناء أمام الأمير واقتادوه لخارج غرفة الاجتماع وقد استحال لونه إلى الشحوب خوفاً من غضب قائده.



## الفصل الثاني

# حكاية الأسيرة

آن الأوان أن تعرفوني... أنا راوية تلك الأحداث الجارية في عهد السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري.... أو لعلني في تلك الأيام كنت أسميه كلب المماليك... مالي أرى نظرة الكراهية في عيونكم؟.... ألا يحق لمن أسرت كغنيمة حرب لتكون جاريةً لجندي مملوك وقد كانت في أهلها أميرةً أن تسب أسرها ومحطم كبرياء أهلها؟.... قد ترونني امرأة متوحشة النظرات قذرة الأظافر كريهة الرائحة.... لا أتعجب ذلك فتلك هي نظرة العرب والمسلمين للتتار... لست غاضبةً منكم ولن أرد إهانته لي... فلا يحق لي الاعتراض على مشاعر من كنت لهم عدواً مغتصباً لأرضه وسافكاً لدماء أهله... ولكن لندع ذلك جانباً الآن... فلكم تتغير نظرتنا للأشياء مع مرور الأيام.... وفي مدرسة الحياة الدروس بالإكراه ولا مجال لعدم الفهم أو إعادة الدرس... هكذا تعلمت وروايتي برهان حكمتي كما سترون.

أنا عالية المقام نارين خاتون ابنة قائد فرسان الجاليش الأحمر بجيش الخاقان الأعظم... القائد ميركا خان العظيم... كان والدي من كبار رجال جيش هولاكو خان المعظم وقد التحق بالجيش في عهد أوجوتاي خان بن جنكيزخان خاقان العالم... ارتقى سلم الجندي بآس سيفه حتى تولى ذلك المنصب الرفيع... الآن تدركون مقام راويتكم التتارية... نشأت في بيت تحكمه التقاليد العسكرية وصرامة الجيش... قد يظن بعضكم أن من كان

كوالدي ما كان له أن يكون إلا وحشاً كاسراً يحتسي دماء ضحاياها صباحاً على سبيل شراب الصباح.... مرةً أخرى تخطئون... لقد كان أبي نبعاً فياضاً من الحنان والرقّة مع ابنته... لم يدرجهداً في توفير متطلبات فتاته الوحيدة والتي شاء القدر أن تموت أمها يوم ولادتها.... يكفيه أن جعل من ابنته حلم كل شباب قرا قورم عاصمة دولتنا العظيمة... منذ نعومة أظفاري أنشأني والدي على حب العلم والقراءة والاطلاع... وبرعايته وحبّه أتقنت اللغة العربية والفارسية والتركية بالإضافة للغتنا الأم... أتممت دراسة قانون إلياسا في الثامنة عشر من عمري ودرست فلسفة جوتاما وزرادشت وكونفوشيوس وتفقهت في دين الشامان.... لم أكن أعد لظهو حساء الأرنب البري لزوجي الراعي البسيط ولكن تم إعدادي لأكون سيدة قصرالإمبراطورية المغولية قاطبةً... ألا زلتم تظنون ميركا خان وحشٌ دموي لا يجيد إلا شرب الدماء وأكل لحوم أعدائه؟ .

وفي عهد الإمبراطور المعظم هولاکو خان سيد المحاربين ومحطم الأمم كان والدي ضمن قوات جيش الفتح للشام ومصر بقيادة القائد العظيم كتبغا وامتد الوقت وزاد الشوق لأبي... كانت أخبار أبطالنا تتوارد إلينا على أجنحة الحمام الزاجل تزف إلينا انتصارات جيش التتار الذي لا يقهر ولا ينكسر كانت ليالي قرا قورم كنهارها باحتفالات الانتصارات المتوالية.... وليت للإنسان أن يمتلك شفافية أرواح الأجداد وحكمة الحياة وراء جبل الفردوس حيث يذهب الراحلون عن عالمنا... أشرقت شمس ذلك اليوم وقد عزمت الرحيل للحاق بوالدي العظيم لأزف لابن القائد كتبغا والذي كان تحت قيادة أبي بكتيبة فرسان الجاليش الأحمر.... لازلت أذكر تلك الرسالة التي وصلتني مع تلك الحمامة الرمادية ذات الطوق البنفسجي اللامع التي كانت رسول الأخبار من أبي.... كنت ككل فتاة يخطبها شابٌ محاربٌ

قوي عالي المقام وابن قائد عظيم... مزيجٌ غريب من المشاعر  
اعتمل في قلبي ما بين فرحة خجلة وخوفٍ من مستقبلٍ لا أعرف  
قسماته وشوقٍ لأحضان والدي الدافئة التي عوضتني الحرمان من  
حنان الأم.... وصلت لبيسان مع قافلة السفر والشوق يدفعني  
للارتقاء بين ذراعي أبي القويتين.... فقط لتصدمني مفاجأة الرسالة  
التي تركها مع ذلك الجندي صغير السن عن تحركه مع فيالق  
جيشنا في اتجاه غزة لمنازلة ذلك العنيد سيف الدين قطز الذي  
أبى التسليم والجنوح للسلم ولم يمر على اعتلائه لعرش مصر  
إلا أشهراً معدودة... بل إن المخبول تجرأ وقتل رسل الجيش  
القاهر بل وقام بتعليق رؤوس رسلنا الشهداء على باب زويلة  
بسور القاهرة.... ازدادت كراهيتي للمماليك وسلطانهم.... أما  
كفاه قتله لرسل الخان المعظم هولاكو بل وأيضاً حرمني من لقيا  
والدي الحبيب وخطيبي المنتظر.... لم يغزو القلق قلبي بتاتاً....  
فمن يستطيع قهر جيوش هولاكو خان حفيد تيموجين ملك  
الملوك وخان الزمان.... إلا أن الدهر أبى إلا أن يعلمني أول دروس  
الأحزان والقهر حين عادت فلول جيشنا مذعورةً من صاعقة  
عين جالوت التي قضت على معظم قوته... بل عاد بأكبر فاجعةٍ  
حطمت شغاف قلبي باستشهاد والدي وخطيبي.

مرت أيامٌ قليلة قضيتها ما بين البكاء على مصيبتني و  
إسعاف الجرحى من جنود جيشنا المنكوب حتى فوجئت بنفير  
التعبئة لمواجهة جيش المماليك بقيادة القاتل المجرم سيف  
الدين قطز والذي أتى مطارداً لفلول جيشنا المنهزمة.... كانت  
فرصتي للانتقام من قتلة أبي.... بالطبع كنت أجيد فنون السيف  
والفروسية.... من العار ألا تكون ابنة فارس فرسان المغول  
كذلك... ذهبت بنفسني إلى القائد واستحلفت بأرواح الأجداد  
وبروح جنكيز خان المعظم أن يوافق على انضمامي للقوات  
المحاربة... كان اليأس يسيطر على روحه... تلك العينان التي



اعتدت رؤيتها تطلق البرق من داخلها انطفأت ولم تعد كما كانت... وتحت إلحاحي وافق أن أرتدي زي الرجال وأحمل السيف لقتال قتلة والدي... وعند بيسان التقى الجمعان... ودارت رحى المعركة حامية الوطيس وتساقط الأبطال والفرسان من الجانبين وقد لاحت بوادى النصر المنتظر... وفي لحظات الحسم ووسط صهيل الخيول وصليل الصوارم ارتفعت صيحة فارسٍ عرفت أنه ذلك القاتل سيف الدين قطز... تلك الصيحة التي علمت مؤخراً أنها كانت بمثابة روح البعث في جنبات جيشه.... تلك الصيحة التي زرعت الخوف في قلوب أبطال التتار لسماهم لها في ماضيهم القريب بعين جالوت ولأنهم عرفوا ما بها من سحرٍ على جيوش قطز.... تلك الصيحة التي لن أنساها ما حييت.... (والإسلاماء... والإسلاماء... والإسلاماء).... وكأن اللعين استدعى شياطين الأرض والجبال لتقاتل في صفه... ما كانت إلا لحظات واستعرت نيران المعركة لتحرق جنود التتار وتشوي جلودهم وتذيب عظامهم... كانت سيوف جيش قطز تحز الرقاب وتشق الصدور وماشعرت بنفسى إلا ملقاةً على الأرض وقد انكسر نصل سيفي ونزعت خوذتي المقرنة من فوق رأسي لتفضح شعري الأسود المسترسل وفوقي سيفٌ عربي مشرع ليحز رقبتى... أغمضت عيني في انتظار الضربة التي ستلحقني بالأجداد خلف جبل الفردوس... لم تنزل الضربة... ففتحت عيني لأنظر لذلك الفارس الفارع الطول ممشوق القوام صاحب تلك العينان الناريّتان فقط لأفاجأ بسيفه يهبط إلى جواره وقد أدرك أن خصمه فتاة ترتدي ملابس الفرسان... لا أذكر بعدها إلا قوله بلغة قومي (عصمني الله أن أقتل امرأةً بسيفي) وبعدها أظلمت الدنيا وما أن فتحت عيناى حتى وجدت نفسى في خيمةٍ وسط نساء أخريات من بني جلدتي وقد أدركت دون سؤال أن مصيري تحدد كأسيرة... وهكذا كتب القدر أن تتحول نارين خاتون ابنة ميركا خان العظيم من عالية المقام إلى غنيمة حرب.

\*\*\*

الآن أعرفكم بنفسي... طال الوقت أن تعلموا من راوية تلك الأحداث التي تجري بالرقّة بسوريا الجريحة في صيف عام ٢٠١٣م... لست مقاتلة في جيش الرئيس بشار الأسد... لست من نساء محاربين قوات المعارضة... لست إلا موظفة بقسم ترميم الوثائق بمتحف التاريخ بمحافظة الرقة... فتاة سورية بسيطة كأني فتاة شامية... لم أكن من النشطاء ولم يكن لعالم السياسة مكاناً في حياتي البسيطة... أنا ديمة المحمودي... خريجة كلية الآداب بجامعة دمشق... لم يكن أبي إلا موظفاً في مجلس الحكم المحلي بمدينة الرقة وما كانت أمي إلا ربة منزل طيبة القلب... كانت الحياة بالنسبة لي كالنهر الهادئ... فتاة من أسرة بسيطة... أنهت دراستها الجامعية وبمعاونة والدها عملت بقسم الوثائق بمتحف الرقة والأيام تتوالى متشابهة حتى يأتي ذلك الشاب الذي تحلم به فيوفر لها منزلاً صغيراً ويطلب يدها لتكون شريكته في حياته والتي لن تختلف كثيراً عن حياتها مع أسرتها.... بالطبع كان ذلك قبل وقوع النكسة.... فليسبني من يريد ولتنهال على رأسي لعنات شباب سوريا كلها... نعم ليست ثورة... نكسة الخامس عشر من مارس للعام ٢٠١١م... ومن ذلك التاريخ بدأت حياتي الهادئة الوادعة في الانهيار... أصبح صوت الرصاص هو خلفية يومنا الموسيقية بدلاً من شدة طيور الجبال... صار للدم رائحة تميز شوارع سوريا... أصبح القتل لعبة أطفال والتفجير لغة حوار وصار الجار عدواً والصديق خائناً والأخ قاتلاً.... بأيدينا نحن أبناء حضارة تدمر ودمشق العباسية وأبناء الغساسنة غرزنّا خنجر الكراهية والعنصرية والفرقة في صدر سوريا فارتمت على أرض الشام تنزف دماؤها وتنظر إلينا وبعينها دمة القهر واللوم لأبنائها.

كانت سيارات تنظيم داعش تجوب طرقات المدينة ليلاً نهاراً... المعارك على أشدها والدماء تغرق طرقات الرقة وحاراتها... جبهة النصرة تحارب قوات المعارضة والتي تجزأ عنق

قوات الجيش النظامي المتناحر مع ميليشيات داعش القادمة من العراق ولا ندري نحن البسطاء ماذا جئنا من كل ذلك ولا نعلم لطريق الدماء المراقبة نهائيةً سوى حفرةً من نارٍ ستبتلعنا وتحرق الجميع في سبيل كرسي السلطة اللعين... لا داعي بالطبع أن أخبركم أنني كنت قد انقطعت عن العمل لما يقرب من العام... أي مجنون سيفكر بالانتحار بالسير في شوارع الرقة؟... ليذهب العمل إلى الجحيم ففي كل الأحوال لن يشتري راتبي ثمن يوم آخر أحياء قبل أن أتلقي نصيبي من دفعات الرصاص الطائشة التي تحصد يومياً أرواح العشرات... إلا أن اليوم كان مختلفاً... ففي السابعة صباحاً استيقظنا جميعاً على طرقات باب منزلنا ليهرع أبي وهو يتمتم بآيات فاتحة الكتاب مستعيذاً بالله مما يحمله لنا الطارق المبكر... كان طارق الباب عميداً من قوات الجيش النظامي وبصحبه عددٌ من الجنود... بالطبع كان للذعر الكلمة العليا في أهل بيتنا جميعاً إلى أن طمئننا العميد باسل مروان قائد الفرقة ١٧ مشاة كما عرف نفسه لأبي وهو يحتسي الشاي بالقرنفل الذي أعدته يدا أمي المرتعشتين ودخلت به إليه وإلى أبي في باحة منزلنا لأسمع سيادة العميد يوجه حديثه إلى شخصي:

- ديمة خانو؟

- بأمرك سيدي؟!!

- لا تواخذيني بنتي كنت بحكي مع البابا مشان محتاجينك في شي موضوع إلو علاقة بوظيفتك بالمتحف

- مو على أساس المتحف معطل وما عم يستقبل زوار؟

- إيه ولو!... بعرف إن المتحف معطل بنتي... هللا الموضوع ما إلو علاقه باستقبال زوار بالمتحف... إلو علاقة بدراسك بالجامعة... حسب معلوماتي دارسة تاريخ ما هيك؟

- إيه نعم سيدي... معي ليسانس آداب بالتاريخ العبراني

- وهون مربوط الفرس بنتي في معلومات عم بتأكد إن الدواعش راح يسرقون وثائق من المتحف بس ما بنعرف إيش بيريدوا... مشان هيك جاني تكليف من القيادة العامة بدمشق لحتى نمنع هايدول الملاعين ونجيب شي خير يدلنا على الوثائق المهمة وليس بيريدوها ومين إلو مصلحة بهاي الوثائق.... لا تاكلي هم بنتي في زلمة راح ياخذك من البيت بالسيارة للمتحف وبيكون معو أفراد بالسلاح وراح يرجعوكي للبيت

- والله سيدي ما بعرف شو رأي البابا

- سيبي رأي البابا علي بنتي راح أفنعه... المهم انت موافقه؟

- تكرم عينك سيدي... على راسي

- يسلمو

كان هذا هو الحوار الذي بدأت به مأساتي والتي لم أكن أعلم أن بدايتها في صباح اليوم التالي والذي تفنن في تحذيري من مغبة تنفيذ طلب العميد باسل.... أي مجنونٍ يستيقظ بكابوس مفزع لا أتذكر منه إلا أنني كنت أصرخ بحنجرةٍ نزعت منها الأحبال الصوتية وأنا أراني أنهش حيةً بأنياب كلبٍ مسعور فقط لأفاجأ بانقطاع المياه عن حارتنا فلا أتمكن من غسل آثار النوم عن وجهي وذلك لأفاجأ بصوت طلقات الرصاص بالقرب من منزلنا لأسمع صوت صراخ جارتنا أم جميل ويوافق على النزول إلى المتحف المهدد من مقاتلي تنظيم بعنف وهمجية ووحشية تنظيم داعش الإرهابي؟... حقاً لأدري كيف فعلت ذلك.... أين كان عقلي؟... ولكن للقدر حتميته التي لا يمكن تجنبها مهما فعلنا.

في تمام الساعة الثامنة والنصف صباحاً توقفت سيارة الجيش ذات الدفع الرباعي أمام باب منزلنا فاستقلتها إلى جوار الضابط الشاب الذي كان يقودها وبالخلف كان يوجد ثلاثة جنود أشداء مسلحين بالبنادق الآلية وانطلقت السيارة بشوارع الرقة المدمرة حتى بلغنا متحف التاريخ والحضارة بمحافظة الرقة والذي تحول إلى ثكنة عسكرية بكل ما في الكلمة من معانٍ.....

ترجلت من السيارة ليستقبلني العميد باسل مرحباً واصطحبني إلى داخل المتحف ودلفنا إلى قاعة الوثائق وبدأت العمل... كان المطلوب أن أقوم بتصنيف تلك الوثائق في مجموعاتٍ تحت عنوان يلخص محتوى كل مجموعة... لاحظت وجود مجموعةٍ أخرى من الخبراء يتناقشون بصوتٍ منخفضٍ حول مجموعةٍ من الصور على جهاز كمبيوتر مع أحدهم وأحدهم يقوم بالكتابة في مفكرة صغيرة شيئاً ما وكأنه يقوم بعملية إحصاءٍ معقدة... ورغم قتله الكثير من القذافي إلا أن الفضول تملكني بشدة لأعرف ما يفعل هؤلاء السادة وما كان ألامي إلا العميد باسل فسألته:

- لا تواخذني سيدي بس مين هايدول؟ وإيش عم يساواو هون بالمتحف؟

- لا تشغلي بالك بنتي... حاولي تسرعي بشغلك حتى نرجعك البيت قبل العتمه

- بس سيدي ما قلتلي انك بحاجة لخبرتي ودراستي؟ وهادول...

قاطعني سيادة العميد بنبرة حاسمة:

- هايدول ما إلي علاقة بشغلهم وما فيني أخبرك إيش عم يساواو هون

وهكذا ابتلعت تساؤلاتي وأكملت عملي بصمت... ومرت الساعات بطيئةً وتكومت الوثائق في مجموعاتٍ ما بين وثائق من العهد العباسي والعهد الأموي وعهد الدول القديمة ووثائق دينية وسياسية... كان العمل شاقاً إلا أنني لا أنكر استمتاعي بوقتي... حتى عثرت على مجموعة مخطوطات باللغة العربية بالخط الكوفي كتبت في العهد المملوكي بيد أسيرةٍ تنارية... لا أدري ما سبب قيامي بوضع تلك اللفائف في مكانٍ ما أمامي وكأنني أردت أن أقرأها في وقتٍ لاحق... حتى أنني عزمْتُ أن أستأذن سيادة العميد في استعارتها لقراءتها بالمنزل... كان الجو هادئاً... وبعد خمس ساعاتٍ من العمل المتواصل... ومع دقائق الساعة الثانية والنصف ظهرراً... دوي الانفجار.

حسناً سأحاول الآن أن أصف ذلك الحدث الذي أعلن عن بداية عهد الأحزان بالنسبة لي.... كل ما أتذكره أنني شعرت بقوةٍ عاتيةٍ تنتزعني من مكاني لتلقي بي أرضاً... ثم ظلام... ثم أفقت على صوت صرخات في القاعة المجاورة... قفزت على قدمي وجريت إلى طرف القاعة التي كنت أعمل بها حيث كان المكتب الذي كنت أقوم بعمله على كرسيه ودون أن أدري السبب اختطفت لفافة البرديات التي كتبت بخط الأسيرة التنارية واختبأت أسفل المكتب وأنا أرتعش خوفاً ومرت اللحظات السوداء وصوت طلقات الرصاص تدوي في أذني وأنا أغمض عيني وأرتجف... وفجأة هدا المكان من الصراخ والطلقات... ما عدت أسمع إلا خطوات سريعة مقتحمة وصوتٌ آمرٌ لآخرين يطالب بإنهاء العمل وجمع المطلوب... أخرجت رأسي بحذر فوجدت الطريق إلى باب قاعة الوثائق خالياً... وبحذر فأرimer إلى جوار قِطِ نائم زحفت حتى باب الخروج من القاعة ونظرت من فرجة الباب فلم أجد أحد في الطريق إلى سلم النزول إلى الطابق الأرضي... فتقدمت بحذر وما أن وصلت إلى السلم حتى شاهدت جثة

سيادة العميد باسل مروان وقد غطت الدماء وجهه وجسده....  
تسمرت مكاني للحظات لأشعر أن العالم كله يدور حولي وبدأ  
الظلام يزحف في مجال إبصاري حتى أعلن سلطانه... فقط  
لأفتح عيني لأجد نفسي ممددة في زناية مظلمة بباب حديدي...  
وحين تمكنت من الوقوف والنظر من بين القضبان رأيت تلك  
العينان تنظران لي من ذلك الوجه ذو اللحية المشعثة ليقول لي:  
عودي إلى سجنك يا امرأة وإلا أرسلتك لعذاب الجحيم... لعنة  
الله على الكافرين أمثالك أيتها العاهرة.

وهكذا انتهت حياة الفتاة الشامية البسيطة ديمة  
المحمودي... لتبدأ حياة غنيمة المعركة وجارية لمقاتلٍ داعشي  
يفعل بها ما يشاء.

انفتح باب المكتب... فرفع عينيه المجهدتين وقد التمعت  
اللهفة والسؤال فيهما لينظر إلى الشاب الذي وقف بفتحة الباب  
وقد اعتلت الحماسة قسما وجهه حين قال:

- تمام يا فندم الرسالة وصلت بالكامل وجاري حل الشفرة؟

## الفصل الثالث

# رحلة الأسيرة

انطلقت العربية يحرسها الفرسان المئتين على خيولهم وتتبعها عربية أمتعة السيد وعربة أخرى أقل فخامة وإن كانت أضخم حجماً تحمل أمتعة باقي الفرسان... كان السيد يتقدم الموكب وعلى يمينه ويساره حارسه الأعلى رتبة وقد ارتدوا زيهم العسكري المميز لمماليك البحرية... كنت أجلس بالعربة الأولى وقد تعلق عيني بالنافذة الصغيرة المدعمة بالقضبان الحديدية... سماء زرقاء صافية وشمس تشع الدفء والضياء على صفحة نهر النيل الذي رقد بين أحضان الخضرة على الطريق المؤدي إلى ما علمت أنها تدعى المنيا... علمت من مرافقتي التي كانت تجلس أمامي بالعربة أن رحلتنا ستستغرق يوماً وليلة حتى نصل إلى قصر السيد بسنجد الأهوار بجنوب المنيا وشمس اليوم الثاني تقترب من نهاية رحلتها بالسماء غرباً.

كان الجو صحوً دافئاً على خلاف الجليد والظلام الذي يغلف قلبي وقد تجمدت الدموع بعيني... هاهي ذي عالية المقام وصاحبة الرفعة نارين خاتون تساق إلى سجنها كغنيمة حرب مهانة وقد ولت الأيام التي كانت تدق الطبول حين عبور عالية المقام على أرض قراقورم... كان شريط ذكريات الأيام الماضية يمر أمام عيني الغائمتين بالدموع الباردة كقلبي الجليدي.... تذكرت تلك الأيام في قاعة الحرملك بقلعة الجبل وتلك السيدة أشجان خاتون... لا زلت أذكر نظراتها التي ويا للعجب كانت تنطق بالرقعة



والحنان لولا مخالفة أسلوبها لنظراتها... كانت صارمة التعامل ولا تتحدث إلا بصيغة الأمر.... أتذكر يوم أن اصططفنا في صفٍ طويل مكبلين بأغلالنا الحديدية ولا زال غبار المعركة يلطخ ملابسنا ووجوهنا.... كنا ثلاثمائة أسيرة تباينت وجوهنا وملابسنا وأشكالنا وأعمارنا... وقفت بينهم ولا زالت الصدمة تعتلي ملامح وجهي وقسماتي... وجاءت تلك السيدة أشجان... كانت امرأة أربعينية ممشوقة القوام وملامحها تشي بالنبل... طافت بنا وتفحصتنا واحدةً واحدةً وتحدثت إلينا بلغاتٍ شتى.... العربية والفارسية والتركية والصينية والمغولية لغة أهلي وقومي... ظلت تناظر وتعاين كل أسيرةٍ منا وكأنها تعاين مجموعةً من النعاج بسوق المواشي... كانت تقترب مني ولم أكن أعي شيئاً مما يجري حولي حتى فوجئت بصوتها الناعم الهادئ يسألني بلغي:

- لماذا ترتدين ملابس الفرسان يا فتاة؟

أجبتها بلسانها وقد ارتسم التحدي على قسماتي:

- لي اسم... وردائي ليس من شأنك

اصطبغ وجهها بمسحة الدهشة الممزوجة بالغضب من جرأتي ونظرت إلى عيني مباشرةً وأكملت بذات النبذة الهادئة:

- ما لي من شأن غيرك ومن معك يا صاحبة الاسم... ولا ألوم عليك وقاحتك فلطالما علمنا شراسة بني جلدتك ووحشيتهم ولا أتوقع أن تكوني غيرهم

- لولا الأغلال التي تكبلني لأذقتك وحشية التتار إذا ما أهان نساءهم جنس حقير كجنسك أيتها الجارية الوضيعة... لولا غضب آلهة الحظ على وحوش جيشنا لكان مكانك أسفل قدمي لتغسلهم

اشتعل الغضب في عين أشجان خاتون واحمر وجهها معلناً  
عن نذير انفجار ذلك الغضب في وجهي ولكنني لم أهتز منتظرةً  
الصفعة التي ستحطم فيكي.... لكن شيئاً من هذا لم يحدث...  
فدون أي كلمة قامت بإدارة وجهها لجهة اليمين وأغمضت  
عينها وبدأت شفتها تتمم بكلمات غامضة لم أسمعها....  
أتراها ستلغني كما تفعل ساحرة القبائل بقصر الخان بقراقورم...  
لكن هذا أيضاً لم يحدث.... فتحت عينيها ببطء ونظرت إلى  
عيني وقد اختفى الشيطان من مقلتيها وعاد الهدوء إلى ملامح  
وجهها المليح وقالت بهدوء:

- ما اسمك أيتها الأسيرة؟

أصارحكم القول أنني وللحظة شعرت بالخوف يزحف  
على فقرات ظهري... أي قوة نفسية تملكها تلك المرأة؟... لقد  
سيطرت على غضبها كما يسيطر الفارس المحترف على لجام  
حصان وحشي في سهول التاندر.... ولكنني سيطرت على ملامح  
وجهي حتى لا يظهر خوفي بعيني وقلت:

- أنا عالية المقام نارين خاتون ابنة قائد الجاليش الأحمر  
بجيش هولاكو خان العظيم... القائد ميركا خان

وحتى تكتمل دهشتي وتصعقني بثباتها ورباطة جأشها  
ابتسمت اللعينة تلك الابتسامة الهائلة الواثقة وقالت:

- الآن علمت السبب.... أقسم بمن بعث القرآن على قلب  
محمد صلى الله عليه وسلم أنك ستأتيني معذرةً عن وقاحتك  
وسوء أدبك معي... وبكامل إرادتك الحرة... يا عالية المقام

لا أذكر أنني شعرت بتلك الرجفة تسري في أوصالي قبل  
تلك اللحظة... ما سرك أيتها الساحرة؟... ما تلك الثقة التي

تحدثين بها؟... يبدو أنني سألقى من ألوان العذاب ما يجعلني أختار بإرادتي أن أطلب عفوها... ولكن أي ألم يضارع ألم انكسار دولتنا وجيشنا؟... أي ألم يجاري ألم فقد الأب ومن كان سيكون زوجي وسيدي؟... ما عاد للحياة معنى... ولولا تقاليد التتار ودين آبائي الذي يحرم قتل النفس إلا بتضييع الشرف لكان السيف مغموداً بصدري حتى مقبضه والقاتل يدي... لم يعد شيئاً يؤلم بعد كل تلك النكبات التي عصفت بعالمي فاقتلعتني من أرضي واقتلعت جذوري.... لتزأ العاصفة وليعوي المي جي في سقيع جبال منغوليا.

أعود من ذكرياتي على صوت صهيل الخيل وتوقف العربية... كان قد مر على تحركنا ما يقترب من ست ساعات متواصلة.... توقفت العربات الثلاثة والفرسان الممتين في سهل منبسط تكسوه الأعشاب الخضراء وبجوارنا مجرى النيل.... أفقت على صوت مرافقتي:

- الآن ترتاحين من مشقة الطريق يا سيدتي

علمت أن اسمها شفاء... لو كان بقلبي مكان لأي عواطفٍ أخرى غير الحزن والكراهية لأسريني لقلت أنني أحببت تلك الفتاة الصغيرة... كانت فتاة بملامح قبجاقية في السادسة عشرة من عمرها... كنت قد علمت أنها كانت من جواري قبة الخيمة للقائد كتبغا أثناء معارك الفتح للشرق وأنها كانت ساقية كتبغا.... كانت قد حكّت لي أنها من قرية صغيرة على أطراف أذربيجان وقد اجتاحت جيوشنا أرضها وهي لازالت في الثالثة من عمرها وقد اقتناها أحد قادة الجيش ورباها لتكون مرافقة طفلة الرضيعة... وعندما أتمت عامها الرابع عشر وهبها سيدها للقائد كتبغا... كانت جميلة الوجه ملفوفة الجسد حتى أن تضاريس جسدها تسبق عمرها بكثير... ربما شعرت بالألفة تجاهها لأنها لم تنس

بعد أننا كنا أسيادها الأوائل... كانت لا تناديني إلا بسيدتي .

سمعنا طرْقاً على باب العربة... فقامت شفاء بفتح الباب  
ليظهر فارساً وقد خفض عينيه أرضاً دون أن ينظر لنا قائلاً:

- بأمر سيدي الأمير فارس الدين كرك خورشيد نصبت خيمة  
السيدة ورفيقتها... وقد جهز المرقدار الغداء للسيدتين

ترجلنا أنا وشفاء من العربة ونزلنا بحراسة الجندي الذي  
سار أمامنا حتى مدخل الخيمة حمراء اللون التي نصبت إلى جوار  
الخيمة الزرقاء الكبيرة التي علمنا أنها خيمة السيد... وما أن دخلنا  
حتى صدمت أنوفنا رائحة اللحم والأرز الزكية... فجلسنا على  
الأرض وبدأت شفاء تقدم لي الطعام... فطار خيالي مع الذكريات  
إلى أيام أسري الأولى.

بعد أن عاينتنا أشجان خاتون وبعد صدامنا اقتادنا الخصيان  
والجواري الأقدم إلى الحمامات لنشاهد الأبخرة تتصاعد كأنها  
وادي جهنم.... لم يكن ذلك غريباً علي كالكثيرات من الأسيرات  
اللاتي خشين أن يكون المسلمين يعدون لسلقنا ليتناولوا  
لحومنا... قامت الجواري القديمات بغسل أجسادنا وتنظيف ما  
علق بجلودنا من قذارة الطريق والسفر الطويل من الشام إلى  
القاهرة... وبعد ذلك قدمت لنا الأثواب العربية الفضفاضة التي  
كانت تختلف عن ملابسنا الدافئة المصنوعة من فراء اليك ودببة  
الباندا وجلود نمور الثلوج... كان ملمس القماش الناعم غريباً على  
جلدي ولكن ما كان لي حق الاعتراض وإلا بقيت عارية... وبعد  
الحمام الساخن والرداء الناعم عرضنا على طبيبة الحرملك التي  
فحصتنا وتأكدت من سلامتنا وخلونا من الأمراض ثم اتجهنا إلى  
الحرملك لنجد الطعام الساخن والفاكهة والمياه في انتظارنا...  
كان الغضب والحزن يسدون معدتي ولم يكن للطعام سبيلاً  
لأحشائي... كانت تلك اللعينة أشجان خاتون تقف في وسط

الحرملك توزع الطعام على الأسيرات حتى جاء دوري فنظرت إلي  
وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامتها الواثقة الهادئة.... اللعنة...  
لا زال ظهري يرتعد ويزحف الجليد على فقراته كلما تلاقت  
عيناي بعيني تلك الأفعى... جلست إلى جوارى وصبت في صحن  
المرق واللحم ووضعت لي صحيفة الأرز ونظرت إلى عيني وقالت  
بصوتها الناعم:

- ألن تأكلي يا عالية المقام؟

- لا أكل لحم البشر مثلكم أيها المتوحشين

- عجباً... ظننت أن من يبقرون بطون النساء الحوامل  
ويحرقون الأطفال ويهدمون بيوتاً أذن الله أن ترفع ويذكر فيها  
اسمه لا يتورعون عن أكل لحوم البشر

- وهل كنا نفعل ما تفعلون؟... عجبت لقوم يلصقون ما بهم  
بغيرهم... لولا مشيئة القدر وكرة الأيام على جحافلنا المباركة كنا  
أبدناكم يا أعداء الحياة

- وهل علمت من رسل جيشكم أننا من كنا نحرق القرى  
الآمنة ونقتل العزل من أبريائها؟

- لولا آثامكم وقذارة حياتكم الملعونة ما سلط إله الآفاق  
عليكم جنود الخافان تبيدكم يا حثالة الخلق

- احفظي أدبك أيتها الأسيرة ولا تسيئي استغلال كظمي  
لغيظي وغضبي على لسانك الذي يلدغ بالكلام كالعقارب

- لن يطول الزمان علي في أسركم يا صنيعة الممالك

- صدقيني يا وقحة اللسان.... سيأتي عليك يوماً تضرعين لله

أن يمد في عمرك في كنف سلطاننا الظاهر ورجاله الأبطال

- الموت لدي أهون من الاستسلام لأسركم وهوانكم

- ألهذا لا تأكلين؟... أتشتاقين للموت أن يطرق بابك أيتها  
الأسيرة؟

- بل سأخذ ثأري بحد سيف آبائي وأجدادي وسأموت على  
أرض قراقورم وسيطير رماد جسدي إلى خلف جبل الفردوس

- إذاً ستحتاجين قوتك وعافيتك حتى تقوى ذراعك على  
حمل السيف يا... عالية المقام

ثم قامت الأفعى من جوارى تاركةً إياي في خضم غضبي  
وثورتي... اللعينة أقنعتني أن أكل طعامي مرغمةً ساخطة.

- ألا تأكلين يا سيدتي؟

كانت هذه من شفاء التي كانت تنتظر أن أبدأ في الأكل حتى  
تأكل... نظرت إليها وفي قلبي رغبةً عارمةً في أن أضممها إلى صدري  
وأبكي... ولكن حزني وألمي كبلي عن أن أقوم بذلك... تناولت  
طعامي وأنا أنظر إلى شفاء وهي تلوك طعامها على مهل فطارت  
بي الذكريات إلى أيام القلعة.

كنا في ذلك الوقت نبيت في صحن الحرملك على فرش  
أرضيةٍ متجاورين... كنت أنام وسط دموعي وتأوهات قلبي على  
حالي المذري الذي قضت الأيام علي أن أكون عليه... حتى أصبح  
ذلك اليوم الذي دخل فيه أغا الحرملك بصحبة تلك الأفعى  
أشجان خاتون وبيده رقعةً جلديةً ووقف إلى جوار الأفعى بوسط  
الهرملك فتوجهت الأعين إليه وانتبهت الأذان على سقفة يد  
الأفعى تطلب من الجميع الإصغاء:

- بأمر جلالة السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس سلطان مصر والشام وبعد أخذ رأي ومشورة سيدة حرمك قلعة الجبل الشريفة أشجان خاتون فقد أمر جلالته بأن توزع السبايا من أسيرات حرب أعداء الله التتار على قادة جنده وأصحاب السمو والرفعة أمراء المئين وأمراء العشرة وكبار رجال الدولة من خاصكيته المعظمة وخشداشية مماليكه بحسب كشف الأسماء الذي ستعلمه صاحبة الرفعة السلطانية أشجان خاتون.

كنت في ذلك الوقت قد قابلت شفاء فكانت من اسمها شفاءً لهماي وونساً لوحدي... ارتبط قلبي بها لاحترامها وتبجيلها لي... لم تنس المسكينة أيامها بكنف رجال التتار ولم تنس بأسهم وقوتهم... أحبت كلامها ووجهها الحلو ونظرتها المملوءة احتراماً وتقدير... كانت بالطبع قد سمعت عن أبي وعن بطولات فرسان الجاليش الأحمر التي كانت تحت إمرته... كانت قد رآته في معركة عين جالوت... وهي من أخبرني عن كيفية موته بطعنة من سيف ذلك الحقير سيف الدين قطز والذي قتل على يد سلطانهم القدر صاحب اليد الملوثة بدماء الغدر بصديقه... بكينا معاً... وتحدثنا معاً وتعاهدنا على أن نكون معاً مهما كانت الظروف... كانت مصرّة على منادائي بسيدتي وكنت لا أجد ذلك غريباً فكنت وسأظل سيدة حتى تقضي الأيام والقدر في أمري.

وقفت اللعينة أشجان خاتون ويدها الرق الجلدي تنادي بأسماء الأسيرات الواحدة تلو الأخرى لتطلعنا على مصيرنا الذي قرره السلطان... حتى جاء دوري ونادت:

- الأسيرة نارين التتارية

تقدمت إليها والشرر يتقد في عيني لأفح من بين أسناني في وجهها:

-إسمي نارين خاتون ابنة ميركا

نظرت إلي تلك النظرة الحانية التي لا أعرف كيف تنطلق من  
تلك الأفعى الرقطاء... وكأن للأفاعي أن تكون حنونة القلب رقيقة  
المشاعر وقالت بصوتها الهادئ:

- سأفتقد وقاحتك يا ابنتي

- لست ابنتك

- طلبت من مولانا السلطان أعزه الله ألا يفرق بينك وبين  
رفيقتك الصغيرة

عقدت الدهشة لساني واتسعت حدقة عيني عجباً... أحقاً  
ما تقول؟!... أي امرأة تلك؟؟!!!!... كيف تسيطر على غضبها  
على أسيرة ذليلة تحت إمرتها ورحمتها... أقسم بأرواح أجدادي  
أني لو مكانها لكان للسيف الكلمة العليا في رقبة أسيرة سليطة  
اللسان مثلي... من أين لها بتلك الرقة والهدوء؟...

- ستكونين ملك يمين والي سنجق الأهوار بجنوب المنيا  
الأمير فارس الدين كرك خورشيد وقد وافق مولانا السلطان  
أن تكون شفاء وصيفتك ورفيقتك بسنجق الأهوار... أعدي  
ملابسك ومري وصيفتك بالاستعداد للتحرك فجر الغد إلى بيت  
سيدك الجديد يا فتاة التتار

ودون سابق انذار وفي مفاجأة عقدت لساني وجمدني  
كتمثال بوذا في معبده وجدت نفسي في أحضان أشجان خاتون...  
كانت تحتضني كأم تودع ابنتها... لم أستطع أن أغلق فمي من  
الدهشة ولم تجد الكلمات إلى لساني الذي جف كحلقي سبيلاً...  
أي امرأة تلك التي تجاوزت عن كل إساءاتي ووقاوتي... مال قلبي  
يدق بين ضلوعي ومال يداي تريدان أن تلتفا حول من كنت



بأَمسي القريب أدعوها بالأفعى؟.

ودون كلمة أو فعلٍ مني أبعدتني أشجان خاتون عن صدرها  
بطول ذراعها لتصعقني دمعاً تسيل من عيناها السوداء لتجري  
على خدها... كاد رأسي أن ينفجر فوق كتفي من الصدمة... ودون  
أي إرادةٍ مني وجدتني أرتمي في أحضانها وأدفن رأسي بصدرها  
وتعلو آهاتي وتنفجر الدموع من عيني... انهار السد... تحطمت  
جدران الكراهية في نفسي في لحظاتٍ ما عاد يعنيني أن أحصيها...  
اختنقت أنفاس الحقد بصدري وسط عبراتي بداخل أحضان  
المرأة التي ما سمعت مني غير الإهانة وما رأت في عيني إلا لهيب  
الكراهية والحقد والبغضاء... ودون كلمةٍ أخرى مسحت بكفها  
الرقيق دموعي عن خدي الذي التهب من عبراتي الساخنة...  
وفررت إلى داخل خواني لأجمع الملابس التي أعطتها لي تلك  
المرأة التي أهدتني الحب وبادلت رقتها بالكراهية.

- ألا زالت دموعك تجري يا سيديتي؟

كانت تلك من شفاء وصيفتي ورفيقة دربي... لأخرج خارج  
دوامة ذكرياتي القريبة وألحق بتلك الدمعة التي سالت على وجهي

- لا يا شفاء... لا بد أن ذرة رمالٍ أصابت عيني

- حفظ الإله عيون سيديتي

- قولي لي يا شفاء... ماذا تتوقعين لنا في غدنا؟

- العلم لصاحب الغيب يا سيديتي... بالنسبة لي لن تكون  
الحياة مختلفةً كثيراً عن حياتي السابقة... اعتدت تبدل السادة  
والعمل مذ كنت بكنف سيدي الأول... لقد أصبحت قسوة  
العيش أسلوب حياةٍ لا أكثر وليس للجارية إلا السمع والطاعة  
وغداً يوماً آخر

- أكانت حياتك مع التتار قاسيةً يا شفاء؟

- لا أعلم يا سيدتي... حقاً لا أعلم... لم أجرب إلا معاملة الجواري في كنف السادة التتار حتى أنني لأعلم إن كانت حياتي معهم قاسيةً أم عادية... ولكن لأصدقك القول فقد أحببت أيامي بقلعة الجبل... لم أذق طعاماً وفيراً بحياتي إلا بأيامي بعد أن سقطت من سبائا معركة عين جالوت... ولم يلمس جسدي قماشاً ناعماً إلا تلك الأيام... حتى عيني لم تذق طعم النوم العميق إلا بخوان الحرملك بقلعة الجبل... فما كانت ساعات النوم ببيت سيدي كتبغا إلا لحظات قبل أن ألبي مطالب جسد السيد وخاصة رجاله... لم أكن أصرخ ولكن الألم كان يمزقني أثناء تلك الدقائق حتى تنطفئ نيران شهوة من رغبي ثم لا أشعر بشيء إلا مع أول خيطٍ من شعاع شمس الصباح... حقاً لم تذق جفوني النوم الهادئ إلا بعد معركة عين جالوت

صدمني كلام شفاء... وكأن صاعقةً من السماء ضربت أوصال جسدي... واقشعر جلدي حين تخيلت تلك الطفلة تنهشها أنياب رجالنا من خاصية القائد كتبغا.... لا أصدق... أيفعل التتار ذلك بطفلةٍ تحت رحمتهم وبكنفهم؟

- ماذا تقولين يا شفاء؟

- عفوك سيدتي... ما أردت إلا أن أخبرك الحقيقة دون كذب... عفوك سيدتي... ما قصدت الإهانة

- لا يا شفاء... لا ألومك على ما قلتي... إصدقيني القول ولا تكذبي... أكنتي؟... أكان القائد كتبغا ورجال قصره؟... أقصد.... هل قاموا ب...؟

- وهل للجارية الاعتراض عن تلبية أمر سيدها؟

قالتها وقد خفضت رأسها وبدأت دموعها تسيل في صمت  
وقد أدارت عينها بعيداً لركن خيمتنا... هل جاء العهد بجسد عالية  
المقام نارين خاتون أن ينهشه ذئبٌ من ذئاب المماليك؟؟؟... أي  
عار هذا الذي ينتظرني بسجني في قصر ذلك السيد الذي وهبني  
السلطان إليه تكريماً له على قتل أهلي وعشيرتي؟... الموت  
أهون أن تتحول عالية المقام إلى خادمة فراشٍ لبليل مخدع ذلك  
الكلب المملوك... أقسم على ألا يحدث لي ذلك ما بقي في صدري  
من نبض.

ووسط موجات الخوف التي كانت تتقاذف قلبي علا صوت  
ذلك الفارس من خلف ستر خيمتنا ينادي بأمر سيده بمتابعة  
المسير في رحلتنا إلى مصيري المجهول.

\*\*\*

كان ضوء النهار يقل باقتراب المغيب... كنت أعلم ذلك من  
خلال قضبان نافذة زناتي الضيقة... ثلاثة أيام مرت علي بذلك  
القبو ولا أعلم كيف مرت الساعات... ثلاثة أيام لا أنادى فيها  
إلا بالعاهرة أو الكافرة... ما عاد بجسدي مكاناً لم ينهشه السوط  
كلما خرج صوتي صارخاً مستنجداً مما أنا فيه... ما عاد بي قوةً  
للصراخ فقد فقدت حنجرتي القدرة على إخراج الأصوات من  
كثرة الصراخ أثناء الجلد كلما صرخت من النافذة أو من شراعة  
الباب المعدني.... لم أصدق في بادئ الأمر أن ينتهي بي الحال في  
زنزانية أسيرة لمقاتلي داعش.... كنت نائمة في وضع الجنين إلى  
جوار الجدار حين سمعت صوت الباب يفتح فانتفضت جالسة  
ضامة ركبتي إلى صدري... ليدخل ذلك الحارس الذي يشبه  
المذؤوبين كما تصورهم أفلام هوليوود القديمة بتلك اللحية  
المشعثة وتلك العينان الوحشيتان أسفل حاجبين كثيفين في  
موعه لتقديم الطعام الذي كنت آكله خوفاً من لسعات السوط

السوداني الذي اعتاد جسدي على ضرباته... نفس الوجبة تقدم لي مرتان في اليوم... رغيّف الخبز الجاف وذلك الزيت الذي لا أظنه إلا أن يكون زيت ماكينات... رفضت الطعام في يومي الأول وأكلته مجبرةً بضربات السوط على ظهري في اليوم الثاني... وضع الطعام أمامي ووقف كالهول أمام عيني وقال بصوته الأجش:

- طعامك يا حطب جهنم حتى نرسلك لتأكلي من شجرة الزقوم بالجحيم يا عاهرة

كانت أمعائي تتمزق من جراء أكل الخبز المغموس في الزيت... أراهن أنه زيت تشحيم الماكينات... دعكم من رائحة زنزانتى التي كانت تمثل حجرة نومي وخلائي في ذات الوقت... من يراني الآن لا يمكن أن يتصور تلك الفتاة ببئطالها الأسود وقميصها الأبيض إسباني الطراز وحذاءها الأسود ذي الكعب العالي التي كانت تجلس بغرفة الوثائق بمتحف الرقة... تمزق بنطالي وحال لونه وتحول قميصي الأبيض إلى خرقةٍ باليه... تورمت عيني وتمزق ظهري وتفجرت الدماء من جروحه الطولية بسبب ضربات السوط وتحول شعري الكستنائي إلى عجينةٍ من الطين والماء الآسن و....

مرت عدة ساعاتٍ من لحظة تقديم الطعام لي... كنت قد اتخذت وضع الجنين وألصقت ظهري إلى الحائط وبدأ جسدي المنهك يرتعش طلباً للدفع حين فتح الباب على غير العادة ليدخل سجاني المذؤوب ودون كلمةٍ واحدة وجدته يجبرني كالشيء من شعري وملابسي... لم أقاوم... ما عاد بي من قوة للمقاومة وجدته يجذبني لخارج الغرفة ليضع على عيني عصابةً واستمر في جري ودفعي عبر طريق لا أذكر منه شيئاً بسبب العمى الإجباري الذي أصبحت عليه وبعد مدة لم أستطع تحديدها توقفنا وقام بدفعي لأسفل أرضاً على ركبتى ليرفع العصابة عن عيني لأصاب بعمى

آخر بسبب سطوع الضوء المفاجئ وبعد أن بدأت عيناى اعتياد  
النور الكهربائى الذى كانت قد نسيته فى الأيام الماضية حتى  
شاهدت ذلك العملاق المفتول العضلات ذو اللحية الكثيفة  
التي ذكرتي بلحية شخصية أبو لهب بفيلم هجرة الرسول...  
وقد أحاط به اثنان من المقاتلين اختلفت ملامح وجوههم وإن  
تشابهوا فى كثافة اللحية والملابس العسكرية والشارات السوداء  
التي تلتف حول أذرعهم المفتولة... نظرت حولى لأتبين حارس  
زنزاني وإلى جواره كان يقف ذلك الشاب خمري البشرة أسود  
اللحية ذو العينان السوداوان... أعدت النظر إلى ذلك العملاق  
الجالس على الكرسي والذي كان فيما يبدو ذو مكانة رفيعة فى  
وسطهم والذي نظر إلي ثم قال بحنجرة ببر متوحش وبصوتٍ  
يقطر بالقسوة والصرامة:

- شو اسمك يا كافرة؟

قلت له بصوتي المبحوح من حنجرتي الملتهبة:

- إسمي ديمة... ديمة أحمد مازن المحمودي

- إيش كنتي بتساوي بالمتحف مع هايدول الكفار؟

- كان المرحوم باسل مروان...

- اخرسى يا كافرة... مانو مرحوم... هاد كافر بىكون هللا  
بجهنم

- كان بدو إيانى صنفلو الوثائق بالمتحف

- ولىش؟

- ما بعرف

ودون أن يتكلم نظر إلى حارسي وفي أقل من ثانية كان السوط يشق ظهري إلى نصفين لأصرخ بحنجرتي المجروحة وأرتمي على وجهي أرضاً وقد صعقني الألم فقط ليقوم بجذبي من شعري لأعتدل وأشعر بخيطٍ من الدماء يسيل على ظهري

- ما بحب عيد كلامي يا بنت الكلاب

- والله سيدي ما بعرف والله العظيم ما بعرف

- ما بتريدي تحكي؟

- أقسم بالله سيدي ما بعرف... بس هو قال إن هادي أوامر جايتلو من دمشق... لما سألتو ليش ما خبرني وقالي مافيه يصرح بأي معلومات

- يا أبو عبيدة

هنا تحدث ذلك المقاتل الذي كان إلى جوار المذؤوب المسؤول عن جلدي وسجني:

- لبيك سيدي

- أين لفافة الوثائق التي كانت تمسك بها تلك العاهرة حين تم أسرها؟

- هي معي سيدي

وتقدم الشاب الذي عرفت أنه أبا عبيدة أو هكذا كانوا ينادونه إلى ذلك الوحش والذي يلقبونه بالأمير وأعطاه لفافة مذكرات الأسيرة التتارية التي كنت قد احتفظت بها دون أن أعلم سبب ذلك.

أمسك الأمير بمجموعة الوثائق وفضها وبدأ يقرأها... وينظر إلى من وقتٍ لآخر إلى أن وجه الحديث إلى قائلاً:

- بالله جد؟... كافرة وعم تشوفي تجربة مرة كافرة متلك ما هيك؟

لم أجد رداً على كلامه فأثرت الصمت... أشار إلى سجاني الذي قام بجذبي من شعري إلى خارج الغرفة وألقاني في ركن غرفة مجاورة بعد أن كبل يدي وقدمي بقيود حديدية وعاد مرةً أخرى إلى داخل غرفة الأمير وبعد مرور فترة خرج المذؤوب ليجرني كالحقيبة من شعري إلى داخل الغرفة التي لم يتغير شيء بداخلها إلا أن العدد زاد فيها بهذا الرجل الأنيق ذي الملامح الأجنبية والذي لم يكن من ذوي اللحى والذي كان من الواضح أنه ذو شأنٍ ما حيث كان يجلس إلى جوار الأمير وبيده كوب من مشروب ما لم أتبين كنهه إلا أن ما كان يميزه هي تلك الطاقية القماشية السوداء التي تميز اليهود (الكيباه)... كان الحديث يدور بين الأمير وذلك اليهودي وأمامهما طاولة تراصت عليها لفافات وكتب المتحف التي كنت أفحصها من ثلاثة أيام... أهم حقاً ثلاثة أيام؟..... ودون أن ينظر لي قال لي الأمير:

- شوفي... ههلا بعرض عليك عرض... راح تكوني جارية لواحد من رجالي وبنعطيك الفرصة لحتى تتوبي وتكوني من نساء المسلمين وراح نعطيك شهادة غير كافرة بس بنريد منك شي صغير

لم أجد رداً حتى أجيبه... أي عرض هذا الذي يتصور أنه يغريني به؟... جارية لداعشي؟... ويشهد بأنني غير كافرة؟... ليس هذا فحسب بل سيعطيني الفرصة لإعلان توبتي واعتناق الإسلام الذي ولدت عليه؟... أي عرض هذا؟

- شو... بدك وقت لتفكرى؟

- شو بترید منی؟

- هللا صديقنا بدو يعرف رقم وثيقة من هايدول وراح يقدملنا خدمة كبيرة راح تساعدنا كتير لإعلان دولة الإسلام ومحاربة الكفار وترسيخ شريعة الله على أرض الشام المسلمة ياللى نجستوها بكفركم

- صديقكم؟ ... هاد اليهودي صديقكم؟

- ما خصك انت... ايش بتعرفي عن ديننا يا كافرة؟ هلا هاد  
من أهل الكتاب

- وأنا إسمي ديمة أحمد... ماني مسلمة؟

وكانت تلك غلطتي... ففي لحظةٍ وجدت نفسي ممددةً أرضاً  
وقميصي يمزق من فوق صدري وذلك المذئوب يجثم فوقي  
وتتمد يده لتعصر ثديي ويده الأخرى تعبث بين فخذي لنزع  
بنطالي.... صرخت بكل ما أوتيت من قوة:

- موافقة سيدي... موافقة سيدي... بعمل إيش ما بتريده...  
بوس إجربك سيدي... لااااااااااا

ويأشارة واحدة من يده حملت من على الأرض وتم إلقاء  
أسفل قدمه وجسدي يرتعش وأنا أحاول مداراة لحمي بما تبقى  
من قماش ملابسي

- لساتك ما بتریدی تساعدي جنود الله؟

- تحت أمرک سیدي... تحت أمرک بس بوس إجریک بلا ما  
تضیعوا شرفی



- شرفك؟... ما للكفار متلك شرف يا مره

- بساوي أي شي سيدي... بساوي أي شي

وهنا نظر الأمير إلى صديقه الذي كان مستمتعاً بكل ما يحدث وكأنه يتابع فيلماً شيقاً والذي نظر إلي وقال بالإنجليزية

- نبحث عن الوثيقة التي نتحدث عن جاليات اليهود بالقدس بعد حملة صلاح الدين الأيوبي واستيلائه على القدس

فهمت منه أنه يرغب في العثور على وثيقة تحدثت عن علاقة اليهود وملوك وأمراء الحملات الصليبية التي كانت تهدف إلى استرداد القدس بقيادة الملك ريتشارد قلب الأسد بعد معركة حطين... وثيقة قديمة مكتوبة باللغة العبرية الشرقية القديمة كانت تحدد دور ومكانة اليهود إذا ما تمكنت الحملة من استرداد القدس... كانت تلك الوثيقة تخضع لحماية كبيرة وكانت تعليمات المتحف الأمنية تقتضي بعدم نشر تلك الوثيقة أو إظهارها للعامة خوفاً من ضياعها... كانت تلك الوثيقة تعد من فضائح شعب الله المختار الذي كان على استعداد لأي شيء في مقابل المال والاستيلاء على أرض الميعاد التي يدعون... لا شك في أن صديقهم مستعداً لدفع كنوز الأرض في مقابل تلك الوثيقة الخطيرة... ولكن ما شأن داعش بإسرائيل؟... ألا تعد إسرائيل هي عدوة الإسلام رقم واحد على مدار التاريخ؟... كنت بطبيعة الحال أعرف تلك الوثيقة معرفةً كاملة... بل كنت من القلائل الذين اضطلعوا عليها وترجموها حتى وإن لم أحتفظ بنسخة الترجمة والتي قمت بتسليمها إلى السيد مدير المتحف والذي قام بحرقها بنفسه... وأي خدمة يقدمها ذلك اليهودي إلى تنظيم داعش؟.

كان عقلي يهدر بتساؤلاته حين دوى بأذني صوت الأمير:

- شو... مافهمتي عليه؟

- لا سيدي... إفهمت... إفهمت

- شو طيب... ما بتريدي تقولي؟

ابتلعت ريقى الذي جف واصطرعت الحيرة والتردد بعقلي... أعلم أن تلك الوثيقة في منتهى الخطورة وتعد أحد وثائق التاريخ السري لبني إسرائيل... ولكن نظرةً واحدةً لعين المذؤوب التي التمعت بالشهوة الحيوانية أثناء نظره إلى قميصي الممزق ولحمي الذي لم أستطع مداراته بما تبقى من قماش جعلتني أحسم أمري في أقل من لحظة:

- الوثيقة رقم ( ٣٣٣ / أ ٢٣ ) سيدي

لمعت عين اليهودي بشهوة وانقض على أكوام اللفائف التي أمامه حتى استخرج من بينها الوثيقة المنشودة وقد قبض عليها وكأنه حصل على كنز ثمين وفض اللفافة بشوق وازداد لمعان عينيه شراسةً وهو يقرأ ما خطته يد أحبار اليهود في ذلك العصر القديم وقام واقفاً لينهض الأمير احتراماً لوقوفه وقال بالإنجليزية

- ها قد قمت بما علي والآن جاء دوركم

- لا تقلق يا صديقي... كافة ما تحتاجونه سيكون لديكم بعد أسبوع من الآن... شرط أن يتم تنفيذ الاتفاق ويبدأ الرجال بالتحرك إلى سيناء

- اطمئن سيكون المقاتلين بغزة بعد أسبوعٍ من الآن... أبو عبيدة

وهنا تحدث الشاب الأسمر الذي سلم اللفافة التي تتحدث

عن الأسيرة التتارية إليه

- لبيك يا أميرنا

التفت إليه وقال بالعربية بعد أن وضع يده على كتفه:

- آن الأوان يا بطل حتى تعلن عن قيام دولتنا في سيناء...  
أمامك أسبوعاً من هذا التوقيت لتختار رجالك وبعدها تغادر  
إلى غزة وسيقوم صديقنا بنحاس بمعاونتك للوصول إلى أنفاق  
العبور

ثم التفت الأمير ونظر إلي نظرة ببرٍ راضٍ عن فريسته وأردف  
قائلاً:

- بعد ما قدمته من خدمات لدولتنا العلية وهبتك تلك  
الأسيرة لتكون ملك يمينك وأعلنها من نساء المسلمين  
وقام بالتقاط لفافة مذكرات الأسيرة التتارية وقام بإلقائها  
في وجهي

- هادي هديتك من أمير ولاية الرقة يا مرة... نياك بأبو  
عبيده... زلمة مسلم ومن كبار المجاهدين.

\*\*\*

التقط سماعة الهاتف بيده ليخرس دقائقه الملحة والتي  
عكرت هدوء مكتبه بداخل أروقة مبنى الموساد

- نعم..... حقاً؟..... هذا رائع..... ليتم تنفيذ باقي الخطة.

## الفصل الرابع

# اللقاء الأول

تألق فجر اليوم الثاني على خيام المبيت لركب الأمير فارس الدين كرك خورشيد وقد تجهز الفرسان لصلاة الفجر مع أميرهم... لم يكن للنوم مكاناً في معجم حياتي مذ بدأنا رحلتنا إلى قصر الأهوار... كنت بداخل خيمتي وكنت قد استلقيت إلى جوار شفاء التي كانت تسبح في بحر الأحلام... كان الخوف لا زال يعصف بقلبي حين علمت من شفاء مصير من حكم عليها الدهر بأن ترتدي لباس الرق وذل الأسر... إن كان فرسان جيشنا الذي كنا نطلق عليه جيش الآلهة قد فعلوا بتلك الفتاة ما فعلوا... فما بالكم بمن كنا نخيف الأطفال بحكاياتنا عن وحشيتهم وهمجيتهم بجوار النيران في ليالي الشتاء المظلم بقراقورم؟... كانت مشاعر الغضب والحزن والقهر والصدمة تتلاعب بعقلي وقلبي... حتى سمعت ذلك النداء الغريب الذي يقوم به المسلمون خمس مراتٍ باليوم والذي علمت من قراءاتي أنه نداء الصلاة حسب عقيدتهم... كان بقراقورم جالية مسلمة منذ أيام توحيد دولتنا على يد الخاقان الأعظم جنكيز خان... إلا أن عددهم لم يكن بالكثرة التي يسمع بها آذان صلاتهم في آفاق دولتنا كما أسمعته منذ أن وطأت قدماي القاهرة... انتهى الآذان... وبعد مدة سمعت ما يشبه نداء الآذان ولكن بطريقة مختصرة وبعدها سمعت صوت المئة وخمسون فارساً المصليين خلف السيد يهتفون بصوتٍ عميق كلمة (الله أكبر) فعلمت أنهم انتظموا في صلاتهم... كانت شياطين وادي الظلام تتلاعب بعقلي... الوقت متأخر ومعظم

القوات مشغولون بصلاتهم خلف أميرهم... أثق بشفاء وأعلم أنها ستكون خير معين لي فيما أفكر به... ما هي إلا ساعاتٍ وتشرق شمس مصر الدافئة وستضيء طريقي... وماذا عن الخمسين فارساً الذين ينتظرون زملائهم إلى أن يفرغوا من صلاتهم؟.... لا أظنهم سيكونون بكامل يقظتهم ولا زالت السماء معتمة... الإغراء قوي والمصير مظلم ولن يختلف كثيراً عما ينتظرني من دلٍ وهوان في قصر السيد الذي سيعاملني كما تعامل بائعات الهوى في حانات قراقورم... كان عقلي يعمل بسرعة والخوف يكاد يقتلني... الخوف من فكرة مجنونة تعتمل في نفسي والخوف من غدٍ مجهول في كنف ذلك المملوك الهمجي... كان لا بد أن أتخذ قراراً سريعاً.

حسنت أمري وقررت أن أجازف حتى النهاية ولتكن آلهة الحظ في صفي... وعلى الفور توجهت إلى شفاء التي كانت تغط في نومها إلى جوارى وبدأت في هزها وناديت باسمها:

- شفاء... شفاء استيقظي

تقلبت شفاء في نومها وغمغمت بصوتٍ غارقٍ في لجة النعاس

- سيدي كتبغا... أتوسل إليك

- شفاء يا صغيرتي أنا نارين

فتحت عينها وظلت لوهلةٍ تنظر إلي في ضوء القنديل الضعيف إلى أن أدركت من أنا

- سيدي نارين؟

- شفاء استيقظي الآن

- ما الأمر يا سيدتي؟

- سنهرب الآن

- نهرب؟!!!... نهرب إلى أين يا سيدتي؟

- الأمير ورجاله في صلاتهم ولن يشعروا بنا... سنغافل فرسان الحامية القليلين وسنهرب

- لكن سيدتي...

- لا أجبرك على مصاحبتني ولكني أكره أن أتركك وسط هؤلاء المتوحشين... أنت رفيقتي وأريدك إلى جواري

- فداكي روحي وجسدي يا سيدتي عالية المقام... ولكن الطريق خطير والمجازفة ثمنها الموت بسيوف الفرسان

- لا يهمني... لا أريد أن أكون جارية مملوكٍ قتل أهلي وعشيرتي

- سيدتي بحق أرواح الآباء تريثي في قرارك الأمر جد خطير

- لقد حسمت أمري

ترددت قليلاً وقد أمسكت بيدي وانطلقت من عينيها الزرقاء الصافية أشباح الخوف والرهبة إلا أنها قامت وأومأت لي برأسها وتوجهنا إلى باب الخيمة.

تسللنا أنا وشفاء إلى خارج الخيمة ونظرنا حولنا... كنا نرى جنديان يقفان على مسافة أمتار قليلة أمام باب الخيمة وقد استلا سيفيهما وقد أدارا ظهرهما إلى الخيمة وكانا يراقبان الطريق يميناً ويساراً... فزحفنا أنا وشفاء على أيدينا وأرجلنا بمحاذاة خيمتنا حتى نهاية طرفها ونظرت خلف الخيمة لأجد جندياً آخر

يقف على بعد أمتار وقد كان ظهره لنا ويقوم بمراقبة الخيمة من الخلف وما أن أدار وجهه إلى الجانب البعيد حتى أمسكت يد شفاء وبدأت أبتعد عن الخيمة في اتجاه الظلام المواجه للخيمة... ظللنا نسير ما يقترب من متران بعيداً عن خيمتنا لأسمع صوت أحد الفرسان يصيح من مسافة خطواتٍ منا:

- إلى أين يا سيدتي؟

فالتفتنا لنفاجأ بخمس فرسان يحيطون بي وبشفاء من كل الجهات و قد حمل ثلاثة منهم مصابيح الزيت بيد وبالأخرى كان يمسك بسيفه... وقد وقف اثنان منهما ويدهما الأقواس والخامس كان يقف وقد وضع يسراه أعلى مقبض سيفه بغمده والأخرى كان يضعها بخصره وقد استدار الفرسان الأربعة في لحظة واحدة وظهورهم لي ولشفاء بينما نظر الخامس أرضاً وإن كان ينظر إلى أقدامنا أنا وشفاء.

كانت شفاء ترتعش وقد دفنت رأسها بكتفي وقد احتمت بي من الخلف وكنت أنظر إلى الفارس والخوف يتملكني... لكن لا... ليست نارين خاتون ابنة ميركا خان البطل التي ترتعد أمام فارس من المماليك

- وما شأنك يا هذا؟

- بأمر مولاي فارس الدين كرك خورشيد أنا هنا لأكون ورجالي تحت إمرك يا سيدتي والوقت لازال مبكراً للخروج من الخيمة ولا زالت سباع الليل تهيم بالمكان... من الخطر التجول في تلك الساعة

- لا أخشى السباع يا هذا

- ولكنني أنفذ أوامر أستاذي الأمير ولن أسمح لك بالتجول

الآن... سامحيني

- ماذا تريد الآن؟

- أرجو أن تصحبيني سيدي برفقة الحراس إلى خيمتك حتى أستأذن لك أستاذي إن كنتي ترغبين في التنزه قبل استئناف المسير

كانت الدهشة تكسو تعبيرات وجهي... تنزه؟... أيلظني الأبله كنت أرغب في التنزه بالمكان؟... ولماذا يناديني بسيدي؟... أنا أعلم أن هذا الفارس تحديداً من خاصكية السيد وهي فئة الفرسان المقربين إليه فقد شاهدته يسير إلى جوار السيد ويتحدثان كصديقين قديمين... ليس جندياً عادياً... ما الذي يدعوه لأن يتحمل عجرتي ولماذا لا يرفع عينه لينظر إلي أثناء كلامه معي؟... تساؤلات كثيرة تضاف إلى قائمة أسئلتني التي لم أجد لها إجابات في رأسي... لم يكن أمامي خياراً آخر إلا أن أسير بصحبة الفرسان الخمسة الذين التفوا حولي وحول شفاء المسكينة التي لازالت ترتعد وقد التصقت بي وتشبثت بيدي سرنا حتى تجاوزنا خيمتنا الحمراء في اتجاه الخيمة الزرقاء الكبيرة وكان ضوء الشمس قد بدأ يصبغ الشفق بالحمرة إعلاناً لبديء يوم جديد فتوقفت مكاني وصحت بالفارس:

- إلى أين تأخذنا؟

- سأستأذن في جولةٍ بالمكان نزولاً على رغبتك سيدي

- لماذا تدعوني بسيدي وأنا مجرد أسيرة؟

- عفوك سيدي فأنت من حرملك أستاذي ولك الاحترام على هذا المكان الرفيع



عقدت الصدمة لساني فلم أحر جواباً ونظرت إلى شفاء التي  
انفجرت شفتاها دهشةً وقد اتسعت عيناها على ما سمعت  
فبادلني النظرات في صمت.

وصلنا إلى مدخل الخيمة الزرقاء فتوقف الفارس واستأذن  
الحارس الواقف على باب الخيمة الكبيرة للدخول إلى أستاذه  
فدخل الحارس للحظات ثم خرج وأفسح لنا الطريق للدخول.

أشار لنا الفارس الذي كان بصحبتنا فتقدمت وبيدي شفاء  
التي كانت تنتفض من الخوف ودلفنا إلى الخيمة وتبعنا الفارس  
وما أن دخلت ونظرت إلى داخل الخيمة حتى شاهدته جالساً  
على كرسيه الخشبي وأمامه ذلك الكتاب الضخم ومصباحٌ مضاء  
فرفع عينه إلى عيني لتعتريني صدمة الحقيقة.

كان هو... نعم كان هو... كانت أول مرة أرى السيد عن  
قرب... أول مرة أتبين ملامح وجهه وقسماته... ذلك الوجه  
الخمري والعينان الحادثان المشعتان بلمعانٍ قوي... تلك  
اللحية المستديرة المنمقة التي تغزوها الشعرات البيضاء....  
ذلك الوجه الوسيم والحاجبان الكثيفان... إنه هو... هو الفارس  
الذي كاد سيفه أن يقطع رأسي بمعركة بيسان لولا أن فضحني  
شعري ووجهي حين سقطت خوذتي عن رأسي لحظة أن سقطت  
أثناء مبارزته وقد انكسر سيفي... لا زلت أذكر كلماته التي قالها  
بلغتي (عصمني الله أن أقتل امرأةً بسيفي)... كان آخر وجهٍ رأيته  
في حريتي وأنا لازلت سيدةً ابنة سيد وبعد أن أغمضت عيني على  
ذلك الوجه حتى فتحتهما على حياة الرق والعبودية... انتزعني  
من صدمتي صوت الفارس وهو يؤدي تحيته العسكرية بقوة  
وحسم أمام أميره قائلاً:

- مولاي الأمير... حضرت برفقة السيدتين نفاذاً لأوامركم  
للاستئذان في جولةٍ للسيدتين بمكان المخيم.... فقد قررت

## السيدة التجول بالمكان

- لا عليك يا حسام الدين ولا مانع لدينا ولكن دعني مع السيدة ورافق وصيفتها لخيمتهما وسأقوم بمرافقتكما بنفسي... أشكرك يا عزيزي

- بأمر أستاذي

وأدى الفارس التحية من جديد واصطحب شفاء التي كفت عن الارتعاش عندما رأت ابتسامة الأمير الهادئة وسمعت صوته الهادئ المطمئن ولكنها قبل أن تخرج من باب الخيمة التفتت ونظرت إلي وقد تبدى القلق في عينيها فقاطع نظرتها صوت الأمير

- لا عليك يا أمة الله... فسيدتك ستعود إليك لاصطحباك في جولتنا وهي لدي بخير فلا خوفٌ عليها

نظرت شفاء تجاه الأمير ثم انحنت في خوف وخرجت خلف من علمت أن اسمه حسام الدين وتركتني أمام تلك العينان القويتان تنظران لي نظرةً لم أستطع ترجمةً ما تحمله إلي... كل شيء فيه غريب... كان ثغره لازال يحمل ابتسامته الخفيفة وكان لازال جالساً على كرسيه... وكانت عيناه تنظر إلى عيناى دون جسدي... طالت النظرات بيننا حتى قطع الأمير الصمت قائلاً:

- هل مسك أحداً بسوء حتى تهربي؟

- أوكنت تعرف أنني سأهرب؟

نظر إلي نظرةً طالت ثم قام من على كرسيه وتقدم إلي ووقف بقامته المديدة وجسده الممشوق أماى وقال:

- من الصعب على روح النسر أن توضع بقفص... كنت أتوقع أن تقومي بمحاولة للهرب

لم أجد رداً على كلماته... وقد صدمني تعبيره عني بروح النسر... تذكرت يوم أن أتممت عامي العاشر وقد اصطحبني والدي معه إلى قصر الخاقان أوجوتاي خان بن جنكيز خان حتى تباركني ساحرة القبائل يوم أن لقبني بروح النسر... أكان يعرف ذلك عني؟... أكان يعلم من أكون؟... قطع أفكاري صوته الهادئ العميق:

- لماذا حاولتي الهرب؟

- لماذا لم تقتلني في المعركة؟

- عصم الله سيفي من عار سفك دماء النساء

- كنت أقتلك إن تمكنت منك

- وما الغريب في ذلك؟... الحرب قاتلاً أو مقتولاً

- ولكنك لم تقتلني

- وما كنت لأبارزك لو أنني كنت أعلم أن منازلتي امرأة...  
هكذا أمرنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم

- وهل أمركم دينكم أن تقتلوا رسل الملوك المظفرين كما فعل سلطانكم قطز؟

- وهل كان هولاءكو ليبقي على حياتهم إن انعكست الآية؟

- هذا لا ينبغي أن يدا قطز ملوثةً بدماء رسلنا

- السياسة والحرب من فنون الملك التي تفرض على

السلطان تصرفاته... كانت مصر تمر بظروفٍ صعبة وكان لابد من رفع روح جنودنا وشعبنا القتالية واستثارة حميتهم... وقد أحاط التتار أنفسهم بأكاذيب القوة الزائفة فصدق البسطاء أنهم من جنس الجان الذين لا يمكن للسيف أن يمسهم بسوء فكان لزاماً على المغفور له بأمر الله الملك المظفر من أن يبرهن للناس أنهم بشرٌ مثلنا... كما أن رسلهم أهانوا حضرة السلطان سيف الدين قطز في بيته ووسط رجاله بما أبدوه من صلفٍ وغرور... وفي الحرب يكون القتل هو طريق الحياة

نظرت إلى عيناه طويلاً... لأول مرةً في حياتي أرى من يتحدث بتلك الطريقة الهادئة الواثقة ودون أن تتبدل خلجات وجهه... كانت بعينه قوةً غريبة جعلتني لا أستطيع إبعاد عيني عنها ولم يخرجني من داخل عيناه إلا صوته:

- خبريني بنفسك أيتها السيدة

- سيدة؟... تدعو أسيرتك بسيدة؟

- من تقاليد ديننا احترام النساء وتقديرهم

- أنا عالية المقام نارين خاتون ابنة ميركا خان قائد فرسان الجاليش الأحمر بجيش الخاقان هولاكو خان العظيم

- لم يخب ظني حين توقعت أنك من بيتٍ يجيد فنون السيف والنزال

- وقد خاب تعليم أبي الراحل فلم أتمكن من شق عنقك بسيفي يا قاتل أهلي

نظر إلي دون أن يبدو على وجهه ثمة تعبير من أي نوع وقال بذات نبرة صوته الهادئ:

- إن لم أقتل قتلت... هذه هي قواعد الحرب اللعينة... لعن الله الحروب وسفك الدماء... ولكن يعلم الله أن سيفي لم يخرج من غمده إلا دفاعاً عن ديني ووطني

- وهل كان اغتيال سلطانكم قطز على أيدي رجاله دفاعاً عن دينٍ أو أرض؟... أم تظنني لا أعلم أنكم من قمتم بقتله؟

ولأول مرة منذ أن بدأ حوارني معه اختلجت نظرات عيناه... واستدار وسار حتى كوة الخيمة وقال بنبرة حزينة:

- يعلم الله أنني لم أشارك في اغتيال السلطان الشهيد سيف الدين قطز... ويعلم الله أنني ما تصورت أن يسقط أستاذي في تلك الوقعة التي دبرها المغرضون وأصحاب الطموح من أمراء المماليك... كل ابن آدم خطأ وخير الخطائين التوابين.... واعلمي أن من نصب السلطان الظاهر كان الملك المظفر بنفسه في لحظات احتضاره الأخيرة

أنهى الأمير كلماته ولمحته يداري بظهر يده دمعاً فرت من عينه لتسيل على خده وتسيل معها حيرتي من رأسي أنهاراً... إنه يبكي!!!... لم يخجل من دمع عينه كما يفترض بذلك المحارب الصنديد... يبكي أمام أسيرته!!!... يبكي أمام من هي تحت رحمته ومملك يمينه!!!... ورأيته يستدير لينظر لي تلك النظرة التي لا يمكن أن تقرأ بها أي تعبير ليركز عينه بعيني ولا شيء سواها وكأن بصره لا يقع إلا على عيني ولا يقع على شيئاً من جسدي... وسمعت صوته يقول بنبرته الهائلة العميقة:

- والآن أجيبني... لماذا تحاولين الهرب؟

- ياله من سؤال!... أوتظنني سأرضى أن يكون جسدي لباساً لعدوي وقاتل أهلي وعشيرتي؟... أوتظن عالية المقام

نارين خاتون التي كانت تهتز لذكرها وذكر والدها البطل القلوب والأبدان سترضخ لذل الرق وهوان الأسر؟... لقد قتلها منذ قليل أيها المحارب... ما كان لروح النسر أن ترضى بأغلال الأسر.

- أوتعتقدين حيواني الشهوة والأخلاق لهذا الحد؟

صبعقني السؤال ونبرته الهادئة التي لم تتغير رغم كلماتي التي كان من شأنها أن تثير حفيظة أقوى رجال التتار ثباتاً ورباطة جأش... تابع الأمير كلماته قائلاً:

- أخطأت الفهم يا سيدة التتار... الناس أمام الله الواحد القهار كأسنان المشط ولم يخلق الله البشر أسياداً وعبيد... وإن اعتقدتي أنك بكنفي ستكوين مهانةً ذليلة فقد جانب اعتقادك الصواب... إن أردت أن أطلق سراحك فلك ما تريدين... ولكن ألك أن تخبريني إلى أين؟... هل ستعودين إلى بلادك سيراً على الأقدام؟

لم أستطع الإجابة على كلمات الأمير وقد توقف عقلي عن التفكير وشل لساني عن الإجابة... أي رجل هذا؟... أي إنسان الذي يضحي بهبة السلطان له؟... حتى وإن صور لي كبريائي أنني لا أخضع لسلطانه فالواقع أنني تحت رحمته... لكن هيهات أن يخدعني بكلماته وادعاء الأخلاق... قلت له متنمرة:

- أظنني سأصدق كلماتك المعسولة؟

- سألتك إن كنتي تستطيعين تدبير أمر عودتك إلى بلادك؟... لا أظنني عرضت عليك البقاء يا خاتون

لم أستطع الإجابة وظللت أنظر إليه منتظراً ما قد يقترحه علي حتى أردف قائلاً:

- أهلاً بك يا سيدة التتار ضيفةً على الفارس/ فارس الدين كرك خورشيد... وأقسم بشرف سيفي ألا يمस्क سوء... وأعدك أن أنظر في أمرك حين نصل بسلامة الله إلى سنجق الأهوار... حاش لله أن ألوث شرف كلمتي بأن أنقض عهدي معك يا سيدتي.... إن أردتي التنزه قبل أن نبدأ في استكمال المسير إلى المنيا فالفارس حسام الدين سيكون في خدمتك إن مانعتي أن أصحبك في نزهتك... سنستأنف المسير بعد صلاة الضحى بإذن الله تعالى

وقفت وقد جمدتني الدهشة مكاني كتمثالٍ من الحجر حتى علت الابتسامة الواثقة الهادئة وجه الأمير فارس الدين وقد تمكنت من غلق فمي المفتوح دهشةً من موقفه العجيب واستدرت لباب الخيمة وتقدمت منه ثم التفت إليه لأجده قد عاد للجلوس على كرسيه وقد انهمك في قراءة كتابه فوقفت للحظة ثم استدرت إليه ودون أن أشعر بنفسي وجدتني أسأله وقد ضيقت عيني:

- من أنت؟

- عبدٌ من عباد الله... ابتلاه الله بالأمانة فحملها مكرهاً... وأضرع إلى ربي أن يعينني عليها.

- الأمانة؟؟؟

- نعم يا سيدة التتار... الأمانة

تفحصت وجهه بعيني قليلاً محاولةً استيعاب كلماته فزادتني المحاولة رهقا فقلت بصوتٍ خفيض:

- أشعر ببعض التعب... لا أظنني سأتنزه... سأستريح بخيمتي

- كما تريدین یا خاتون

خرجت من الخيمة لأجد حسام الدين في انتظاري واصطحبني  
لخيمتي لأدخلها ورأسي يكاد ينفجر من الحيرة والدهشة

متربعاً في ظلمات صومعته السرية انهمك في تراتيله  
وطقوسه الغامضة حين سمع الطرقات المميزة لخدمته.... أذن  
له بالدخول ليسأله بصوته العميق:

- ماذا وراءك؟

- الوالي الجديد في الطريق... سيصل اليوم قرب المغيب

- وما معلوماتك عنه؟

- أظنه سيكون مصدر إزعاجٍ لنا يا سيدي

أطرق برأسه مفكراً ثم أوماً برأسه لخدمته ليتركه غارقاً في  
أفكاره

انقضت ساعات الليل الباقية لي بزنانتي بعد اللقاء الرهيب  
مع ذلك الغول الكاسر الذي يطلقون عليه لقب الأمير... لم أصدق  
أن تشرق علي شمس الصباح بعد ما حدث بالليلة الماضية... كل  
ما أتذكره بعد تلك الساعات السوداء يد حارسي الشبيه بمذؤوبي  
السينيما وهي تجرني مما تبقى من ملابسني وشعر رأسي حتى ألقاني  
بزنانتي التي صارت بنظري بقعة من بقاع الجنة بعدما لاقيته في  
حضرة الأمير... وما أن شعرت بجسدي يسقط على أرض زنانتي  
الرطبة حتى اتخذت وضع الجنين بجوار الحائط لأسقط في  
إغماءٍ طالت حتى أيقظني صوت قفل الزنانة يفتح من الخارج  
لأنتفض جالسةً وقد انكمشت في الركن وكل ذرةً بكياياني تنتفض  
من الرعب... نظرت إلى باب الزنانة لأجد ذلك العملاق الذي



سد فتحة الباب وقد أظلم جانب جسده المواجه لي بسبب اتجاه الضوء القادم من خلفه وبصوته الخشن قال:

- يللا اتحركي

- لوين؟

- هتيجي معايا... الأمير أذنلي آخذك عندي

- ومين انت؟

- أنا سيدك أبو عبيدة

تذكرت الاسم وتذكرت صاحب الصوت... هذا هو من أصبحت ملك يمينه بأمر الأمير كمكافأة لي على تعاوني معهم حتى يستطيع صديقهم اليهودي الحصول على الوثيقة... ولكن إلى أين سيأخذني؟

- بترجاك تخبرني لوين هنروح... مافيني أتحرك

- ما تخافيش... انت في حمايتي وملك يميني... يللا قومي  
اتحركي

تحاملت على نفسي ووقفت على قدمي وبدأت أتحرك تجاه الباب وما أن خرجت حتى أحرق الضوء الكهربائي عيني فداريتها بيدي إلى أن اعتدت على سطوع الأضواء ونظرت إليه... نعم هو ذلك المقاتل الشاب الذي كان يقف إلى جوار سجاني الشبيه بالمدؤوبين بتلك الليلة الرهيبة... نظر إلي من رأسي وحتى قدمي ثم قام بإلقاء ملاءة بيضاء تجاهي قائلاً:

- استري نفسك وغطي شعرك وتعال ورايا

قمت بلف الملاءة البيضاء على جسدي كيفما اتفق ثم قمت بتغطية رأسي وشعري وسرت خلفه متحاملةً على آلام ظهري الممزق بالسوط وقدماي المتورمتان من الضرب والانكماش داخل زناتي سرنا في ممرٍ طويل حتى وجدنا في نهايته باب قام بفتحه لأجد نفسي خارج مبنى السجن العسكري بمقر الفرقة ١٧ فالتفت إلي وتقدم ناحيتي وقام بتغطية وجهي عدا عيناي بشالٍ أبيض كان يرتديه حول رقبته ثم قام بتقييد يدي بحبل ليفي خشن وأمسك بطرفه ثم قام بجري خلفه كما تجر الأبقار وسأري في ساحات وأراض الفرقة ١٧ حتى ذلك المبنى الكبير والذي قرأت عليه لافتة استراحات الضباط... فقام بالدخول إلى المبنى وهو يجبرني خلفه بذلك الحبل الخشن وقام بالصعود إلى الطابق الثاني وسأري حتى باب إحدى الاستراحات فقام بإخراج سلسلة المفاتيح وقام بفتح الباب ودفعني إلى داخل الاستراحة ودلف خلفي وأغلق الباب من الداخل بالمفتاح ووضع المفتاح بجيب بنطاله.... كنت لازلت واقفةً مكاني أحاول استيعاب وضعي الجديد وقد تركني وتوجه إلى الأريكة التي كانت متواجدة بصالة الاستراحة وجلس عليها ووضع قدميه أمامه على الطاولة المواجهة للأريكة... نظرت حولي لأتفقد تلك الاستراحة التي كانت عبارةً عن شقة مكونةً من حجرةٍ واسعة بداخلها أريكةً وكرسيين والطاولة الصغيرة التي مد قدميه عليها وإلى يمين باب الدخول ممر به ثلاثة أبواب وإلى اليسار مطبخ صغير... تسمرت في مكاني وقد نظرت إليه أتفحصه... شاباً قوي البنية مفتول العضلات في نفس عمري تقريباً... خمري البشرة أسود الشعر وقد كانت شفتاه تختفيان أسفل لحيته السوداء الكثيفة يعلوها أنفه الأقرنى وعينان شديداً سودا تشعان بالقسوة والشراسة وحاجبين كثيفين... كان ينظر لي من أعلى لأسفل وقد تجمدت بمكاني... حتى قال بصوته الخشن:

- هتفضلي واقفه عندك كده زي الصنم؟

- انت مانك سوري؟

- لا يا قطة... أنا من مصر

- وإيش بتساوي فيني الحين؟

- والله انت بتاعتي أعمل فيكي اللي أنا عايزه... عموماً مش هستأذنك يعني لما أحب أعمل... إيه هتفضلي واقفالي كده يا روح أمك؟... تعالي قلعيني الجزمة

صدمتني لهجته وطريقته الفجة... ماذا فعلت حتى أستحق تلك المعاملة وما هو مصيري؟... تقدمت ناحيته وبدأت في فك رباط بيادته العسكرية الضخمة حتى قمت بنزعها من قدمه بصعوبة ثم وقفت مكاني أنتظر ما هو أسوأ... حتى قال بعد أن وضع يديه خلف رأسه مسترخياً:

- على يمينك في الوش هتلاقي الحمام... خشي استحمي مش طايق ريحتك اللي تقرف... وفي الأوضة اللي على اليمين هتلاقي عندك هدوم نضيفه... هدوم محترمه مش لبس الرقصات اللي كنتي لابساه... يلا غوري من وشي

استدريت لأتجه إلى الحمام فاصطدم شيئاً ضخماً وصلباً بمؤخرة رأسي لأصرخ ألماً وأسقط أرضاً منكفأة على وجهي لأسمع صوته يصيح بي

- إياكي تديني ضهرك تاني يا بنت الوسخه

نهضت وقد استدريت إليه وكل عضلة بجسدي تنبض بالألم لأدرك أنه قدفني بفردة حذائه حين أعطيته ظهري.... كنت

أرتجف خوفاً وقهراً وقد شعرت بألف شمسٍ صغيرة تنبض أمام عيناى من جراء الضربة التي تلقيتها على مؤخرة رأسي وقمت بالتراجع بظهري حتى التصق ظهري بباب الشقة ثم هرعت إلى الغرفة اليمنى لأدخلها وأغلق الباب خلفي لأنهار أرضاً وظهرى للباب لتتفجر دموعي من عيناى وكل جسدي يرتعش وقد أغلقت فمي بيدي حتى لا أصرخ من الألم والذل والقهر... ماذا حدث؟... لماذا أنا؟... لماذا لم يقتلوني حين وجدوني فاقدةً للوعي على درج المتحف بجوار جثة العميد باسل؟... أي ذنب اقترفت حتى ألقى ذلك الهوان؟... كادت أنفاسي تنقطع من البكاء واختنق حلقي من عبراتي الساخنة... تحاملت على نفسي حتى نهضت على قدماي وبدأت في استكشاف تلك الحجرة التي كنت بداخلها... كانت غرفةً صغيرة بداخلها سريرٌ معدني، فردي فوقه مرتبةً اسفنجية ممزقة وإلى جواره خزانة ملابس معدنية... تحاملت على نفسي حتى تمكنت من الوقوف وتقدمت إلى الخزانة وقمت بفتحها لأجد بداخلها أربعة عباءات سوداء معلقة وعلى الرف الجاني مجموعة من أقمشة الأحذية السوداء الخاصة بالمنتقبات وكذا زوجان من القفازات القماشية السوداء وعلى الرف السفلي وجدت العديد من قطع الملابس الداخلية النسائية ومجموعة كبيرة من ملابس النوم العارية والقصيرة... وقفت للحظات أحاول استيعاب ذلك التناقض الغريب بين أردية النوم والملابس الداخلية الساخنة وعباءات وتلفيحات المنتقبات... أي ذوق هذا؟ قمت بفحص الملابس فوجدتها جديدة تماماً ولم يمسسها أحد من قبل... نظرت حولي فوجدت النافذة الخاصة بالغرفة وعليها تلك الستائر الثقيلة الحمراء... تقدمت من الستائر وقمت بفتحها لأجد أن النافذة مدعمة بقضبان حديدية غليظة كما تم تثبيت ضلفتها بالمسامير مما جعل فتحها مستحيلاً... عدت إلى خزانة الملابس مرةً أخرى وقمت بانتقاء ملابساً داخليةً لي وأخذت إحدى العباءات وتلفيحات الشعر وخمار وتوجهت إلى

باب الغرفة ففتحته بحذر وخرجت إلى الحمام... ودخلت إلى الحمام الصغير الذي وجدته جافاً ونظيفاً لحسن الحظ وعلى الفور أغلقت الباب خلفي بالقفل وبدأت أخلع ملابسني التي أصبحت أثملاً بالية... وقفت أمام المرأة عارية كما ولدتني أمي ليصعقني منظر جسدي الذي كان يوماً ما مثلاً للأنوثة والفتنة... جروحٌ تغطي ظهري وقد تجلطت الدماء على حوافها... عينان متورمتان... كدماتٌ تغطي فخذي وساقاي... أي بشاعةٍ ووحشيةٍ كنت ألقاها على يد سجاني المتوحش؟.... قمت بفتح المياه فوق جسدي لتصرخ جروحي بالألم أسفل زخات الماء الساخن الذي ما أن لامس جسدي حتى تساقطت قطراته سوداء إلى حوض الاستحمام... وبعد حمامٍ ساخن طال انتظاره وبعد أن تأكدت من نظافة بدني وشعري وذهاب رائحة زنزاني الفجة عن بدني المتهالك قمت بارتداء تلك الملابس الجديدة كاملة حتى النقاب وخرجت من الحمام وسط سحب البخار إلى الغرفة وتوجهت إلى الغرفة لألتقط لفافة مذكرات الأسيرة التتارية لأضعها بداخل الخزانة وجلست على الفراش أرتجف وأفكر في مستقبلي المظلم إلى أن سمعت ذلك الصوت الخشن من جديد يصرخ منادياً:

- انت يا مرة كل ده بتستحي؟

انتفضت مفزوعةً من مكاني وقد تذكرت ذلك الغول المتوحش المتواجد معي بذات المكان وخرجت أرتجف وقد وقفت أمامه لا يظهر من جسدي إلا عينايا لأجده لازال جالساً بمكانه وبذات الجلسة التي لم يغيرها فنظر لي بذات النظرة النارية وقال:

- إيه اللي انت لابساه ده؟

- مالقيت غير هايدول الأوعي

- انت هتستهيلي؟ ... ما لبستيش قميص نوم ليه؟  
احمر وجهي أسفل النقاب ولم أجد ما أرد به على تساؤله...  
فأردف قائلاً

- إيه؟ ... هتعملي فيها شريفه يا مره؟

- شو بدك اياي سوي؟

- شو بدي ياكي تسوي؟ ... تتزيني لراجلك يا جارية

- ليش؟

- هو إيه اللي ليش؟

- مفكرتك بتريديني ألبس هايدول الأوعي... ما بقدر ألبس  
هايديك...

قاطعني بنبرة غامضة قائلاً:

- آاااه... بصي يا مره... انت بتاعتي... فاهمه يعني إيه بتاعتي؟

قالها ووقف أمامي ثم أخذ يتقدم ناحيتي وقد اشتعلت عيناه  
بنظرة حيوانية... تراجع للوراء حتى التصقت بالجدار وقد أخذ  
جسدي يرتجف... ودون سابق انذار انقض علي كالحيوان الهائج  
وجذب حجائي ونقاي فمزقهم من على وجهي ورأسي وقبض  
على شعر رأسي وجذبني كالشيء إلى داخل الحجرة اليسرى...  
صرخت.... صرخت بكل قوتي... صرخت حتى تقطعت أحبالني  
الصوتية بحنجرتي... صرخت حتى اهتزت النجوم بالسماء....  
صرخت حتى ما عاد بي قوة لإخراج صوتاً من حلقني... أغلق  
باب الحجرة... دفعني بقوة على الفراش الكبير... تقدم ناحيتي  
وهو يخلع ملابسه قطعة وراء الأخرى..... تعالت صرخاتي

وتوسلاتي.... تقدم كالوحش المسعور إلى الفراش..... لكمي بكل قوته في وجهي ليهدي من محاولاتي للتملص من يديه اللتان زحفتا إلى المحطور من جسدي.... جرد سيف رجولته من غمده وذبح عذريتي بكل وحشية.... قاومت بكل قوتي... قبلت قدميه ليرحميني... تحطمت عظامي وأنا أبعد يديه عن فخذي وموطن عفتي.... تمزقت عبائتي وتحطمت كرامتي وفي دماء عذريتي الذبيحة انطلقت نشوته الحيوانية القذرة... وقضي الأمر... وتركني محطمة الجسد والشرف والكرامة عارية على الفراش الملوث بدمائي وبماء ذكورته... ووقف ذلك الغول أمامي بجسده العاري ونظر إلي نظرة ملؤها الاحتقار وتوجه صوب الحمام تاركاً ما تبقى من جسدي المنتهك ينبض من الألم وقد قتلتني الصدمة... انتهى المستقبل واحترقت حياتي... بعد لحظات وجدت قاتلي والماء يقطر من شعر رأسه ولحيته يقف وهو يرتدي ملابس بصمت حتى انتهى ولازلت لا أقوى حتى عن تحريك جسدي ودون أن ينظر إلى ذبيحته قال بصوته الخشن:- إعملي حسابك أرجع من بره ألاقي الأكل جاهز... مش هنطول هنا... كلها كام يوم وهنساfer على غزه... خلاص... انت حياتك بقت معايا... وما تفكيرش في حاجه بعد كده غير ازاى تسعديني... فاهمه؟

وتركني السفاح في مسرح جريمة قتل شرقي وروحي... لم يتبقى لي إلا جثة تتحرك وتتنفس بلا روح... خرج من الغرفة وسمعت صوت مفتاح الباب يغلق خلفه... تركني الكلب المسعور بعد أن نهش لحمي وانزع زهرة شرقي وأنوثتي... تحاملت حتى جلست على الفراش... اشتهمت رائحة لعبه النجس تفوح من صدري ورقبتي... نظرت حولي نظرة من يبحث عن كلمة النهاية... مددت يدي إلى ما بين فخذي لأتحسس دماء شرقي المسفوك... رفعت كفي الملطخة بالدماء ونجاسة شهوته أمام عيناى لتخرج منى صرخة الألم تمزق جدران الصمت.

## الفصل الخامس

### صراعٌ نفسي

عدت إلى خيمتي وقد عصفت برأسي أمواج الحيرة والتشتت لأجد شفاء تجلس في انتظاري وقد نهشها القلق والخوف... وما أن دخلت حتى قفزت إلي واحتضنتني وهي ترتعش وقالت وسط دموعها:

- سيدتي... شكراً لأرواح الأجداد الطاهرة التي حفظتك يا سيدتي

ربت على كتفها وقد تأثرت بعاطفتها تجاهي وكبحت دموعي... لقد أحببت تلك الفتاة التي اعتبرتني سيدتها ورفيقة دربها... توجهنا إلى ركن خيمتنا واتكئنا على الطنافس المخصصة لنا ورأيتها تكفكف دموعها وتسألني:

- هل عاقبك السيد؟... هل آذاكي؟... أأنت بخير؟

- أنا بخير يا شفاء... لا تقلقي علي... لم أرى من الأمير ما يسيئ

- يبدو طيب القلب

- لا أدري... لعله يتظاهر بذلك ليخدعنا

- أويحتاج من مثله لخديعة جواريه ومن تحت رحمته؟



قلت متنمرّة بنبرة شرسة:

- لست بجارية يا فتاة

- عفواً سيدتي... ما قصدت الإهانة... تعلمين كم أحترمك  
وأحبك

تنهدت وقد عاودت الحيرة تضرب أركان رأسي:

- أعلم يا شفاء... أعلم

- اسمحي لي يا سيدتي فالفضول يكاد يقتلني... أراك شاردة  
الفكر زائغة العين... كأن هناك ما يعتمل في نفسك وتريدين البوح  
به إلى صديق... أعلم أنني لست بمقامك الرفيع ومكانتك العالية  
ولكنني على عهدي أن أكون لك بئر مكنوناتك وحافضة أسرارك...  
أخبريني يا سيدتي بما يعتمل برأسك وما يفجر الحيرة بقلبك...  
فأنا رفيقتك ووصيفتك وآخر من بقي لك من بلادك وعالمك

نظرت إلى عينيها الزرقاوين الصافيتين طويلاً... حقاً ما كانت  
تقول فهذا ما أحسه تجاهها وأثق بها ثقةً كاملة... يال تلك الفتاة  
الصغيرة التي تحمل عمر الزهور وقلب سيده قاست من عذابات  
الدنيا ما ضاعف من عمرها أضعافاً... لعل الحديث معها يزيل  
بعض ما بنفسي المضطربة من خوفٍ وارتياحٍ في أمر ذلك الأمير  
الغامض الذي تخفي نظرات عينيه الكثير... قلت لها:

- ما انطباعك عن الأمير فارس الدين يا شفاء؟

- ما اعتدت على تقييم سادتي يا سيدتي... منذ أن وعى عقلي  
لخطوب الدنيا وما فيها وأنا جارية لا أملك من أمر نفسي شيء...  
ولكن إن كنتي تريدين أن أخبرك عن شعوري فأنا أقسم بأرواح  
الأجداد على طيبة قلب الأمير ورقته... عشت ثلاثة عشر عاماً

من عمري بين السادة كجاريةً ليس لها من الأمر إلا إرضاء من ملكوها لم أرى في حياتي من يبتسم تلك الابتسامة الوادعة أو من يعامل من هم تحت إمرته بذلك الاحترام... وهذا رأي الفارس حسام الدين أيضاً... لكن موقفاً واحداً لا يكفي وقد اعتدت على أن البدايات دائماً ما تخدع بالمظاهر

نظرت لها بدهشة وسألتها:

- الفارس حسام الدين؟... وهل تحدثتي إليه؟

احمرت وجنتا شفاء فزاد جمالها... هربت بنظرها إلى الجانب الآخر وقالت بصوتٍ خفيض:

- لم يكن حديثاً يا سيدتي... كان الخوف يقتلني مذ تركتك وحدك بصحبة الأمير... خشيت أن تلقي بحضرته ما لا يرضيكي وقد جعلني الخوف أسير في اتجاه خيمتنا وقد قدمت قدماً وأخرت أخرى.... وحين التفت ناحية خيمة الأمير سألتني الفارس حسام الدين عما إن كنت أحتاج إلى شيء... فأخبرته عن خوفي على مصير سيدتي... فطمأنني وأكد لي أن أخلاق الأمير مضرب المثل في التعامل مع حاشيته وخاصكيته... كما أخبرني عن مكانتك العالية الرفيعة بنفس الأمير فارس الدين... ثم... ثم قال لي تفضلي يا... يا سيدتي وشرفي قبة خيمة الحرملك

ازدادت وجنتا شفاء احمراراً وقد نظرت للأرض خجلاً.... نظرت إليها وقد ارتسم شبح الابتسام على شفطاي... هل دق قلب تلك الهرة الصغيرة للفارس القوي حين أطراها وأرضاً أنوثتها الشابة؟.... تعجبت لتلك الصغيرة التي لازال بقلبها مكاناً ليدخل فيه شبح الحب بعدما لاقت على يدي القائد كتبغا وأمراء قصره وخاصته... سألتها:

- مابك يا شفاء؟

انتبهت شفاء من أحلام يقظتها وانتفضت وهي تنظر إلي  
قائلة:

- عفوك مولاتي... بخير حالٍ ما دمت بخير

- تقولين أن حسام الدين أخبرك بمكانتي العالية لدى الأمير  
فارس الدين؟

- نعم يا سيدتي... هذا ما قاله؟

قلت وكأنني أتحدث إلى نفسي:

- أي مكانةٍ تلك لأسيرةٍ ملكها بحد سيفه؟

- لا تتعجلي الحكم يا مولاتي... قد قابلت من تظهره الدنيا  
بصورة العدو ويكون بقلبه الخير لنا وقابلت من توقعت أن يكون  
في نظره لي الحياة وما خذلني في حياتي مثله

- تتحدثين كعجوزٍ عركت الحياة وعركتها

- لا تتعجيبي سيدتي فكم من الرجال قابلت بقصر سيدي كتبغا  
وقصر سيدي الأول وكم من معسول الكلام صب في أذني كالماء  
العذب الذي يروي الروح كما ترتوي الزهرة فتتفتح في أحضان  
المروج الخضراء بالربيع... وما كان هذا الماء إلا سماً زعافاً قتل  
براءتي في مهدها وجعلني أصم أذناي عن كلمات كل من اصطدت  
بصره يجري على مفاتن جسدي... ما أسهل الكلمات على ألسن  
الرجال إن اشتهاوا جسد امرأةٍ وما أسرع تبخر تلك الكلمات إن  
نالوا مرادهم... وكم من رجل انعقد لسانه عن غزل من هواها  
قلبه وظهر العشق بنظراته وأفعاله وما نطق بما يعصف بقلبه

بحب أميرته.... ما أريد قوله يا سيدتي ألا تنخدعي بمظاهر الحياة  
وظروفها فكم تغير الحياة من معتقداتنا ونظرتنا للأشياء

انفتح فمي دهشةً لما قالته تلك الطفلة التي ما علمت من  
خبرات الحياة إلا ذل الأسر وهوان الرق.... لم تتمكن الكتب من  
صياغة خبرتها وما علمتني الكتب ما تعلمته تلك الصغيرة من  
تجربتها المؤلمة فقلت لها متسائلة:

- ما الذي دعاكي لقول ذلك يا شفاء؟

- لا أعرف يا مولاتي... أصدقك القول أنني تحدثت إليك  
كأنما أتحدث إلى نفسي... عفوك مولاتي إن أسأت الكلام أمامك  
وعذراً فقد طلبت منك أن تتكلمي فتكلمت بدلاً عنك... دعك  
مما ثرثر به لساني وأخبريني عما بقلبك من هموم

- أشعر بالحيرة تمزقني يا شفاء... أي رجل هذا الذي كنت  
أتحدث إليه؟!... لقد كان يعلم بهروبنا وكأنه قد سمع ما دار  
بعقلي... والغريب أن هذا لم يثر حفيظته ولم يحرك أعاصير  
غضبه التي كنت أنتظر أن تقتلع روعي من جسدي... عاملته  
كما يعامل التتار بني جنسه فعاملني كما يعامل الفرسان النبلاء  
الأميرات... لم يثر ولم يغضب... لم تتغير نبرته ولم يغلظ لي  
القول... رفضت الانصياع إليه... فوعدني بالنظر في أمري حتى  
يطلقني لبلادي

انفضت شفاء حين قلت لها ذلك... تبدت الدهشة صارخةً  
على ملامح وجهها وقسماته... قالت لي بحيرة:

- تقولين اطلاق سراحك لبلادك سيدتي؟

- نعم يا شفاء

- أتعنين أن الأمير فارس الدين وافق على إطلاق سراحك؟

- هذا ما قاله... سألي عما إذا كنت سأستطيع تدبر أمر عودتي إلى قراقورم... وعندما لم أجبه طلب إلي أن أكون ضيفته بسنجد الأهوار على أن ينظر في أمري حين نصل إلى منتهى رحلتنا

- وهل تأكدتي من صدق كلامه؟

- لقد أقسم لي بشرفه على ذلك

- أتظنينه سيفعل؟

- لا أثق بكلمة أعدائي وإن كان يبدو صادقاً فيما يقول

- وكيف له ذلك؟... لقد وهبك السلطان الظاهر ملكاً ليمينه ووهبني له وصيفةً لك... فهل يتنازل عن هبة السلطان له بتلك البساطة؟

- هذا ما يحيرني يا شفاء... والآن تقولين أنه حدث حسام الدين عن مكائتي لديه... أي مكانةٍ لمن كانت مثلي عند آسرها؟  
- الأمر محيرٌ حقاً يا مولاتي... ومتى نواصل رحلتنا إلى سنجد الأهوار؟

- قال لي أنه سيأمر بالرحيل بعد أن يؤدوا صلاتهم بالضحى

نظرت لي طويلاً وقد سكت الكلام فيما بيننا... انتقلت حيرتي إليها... وظلت النظرات الحائرة بيننا برهة إلى أن قالت  
- تقولين أنه كان يعلم بمحاولتنا للهرب فكيف له ذلك وقد كان القرار بينك وبين نفسك؟

شعرت بسخونةً غير مبررة ٍ بوجهي و أذني وقد أطرقت  
ببصري وقلت:

- قال أن روح النسر لا تطيق الحبس بقفص

- سيدتي...

- نعم يا شفاء؟

- أأنظنين بمقدورك الرحيل؟

نظرت إليها وقد ضاقت عيناها وأنا أحاول فهم ما ترمي إليه  
بسؤالها وقلت:

- ماذا تقصدين؟

- لا أقصد إلا ما قلت يا مولاتي... أأنظنين بمقدورك الرحيل  
إلى قراقورم؟

- ومالي لا أرحل لبلادي وحرיתי وقد أطلقني أسري وقاتل  
أهلي وعشيرتي؟

- الحرب قاتلٌ ومقتولٌ يا مولاتي... وإن كانت الغلبة للسادة  
التتار لكان أهلك هم قاتلوا أهله إن لم يكونوا قاتلوه

- لازلت لا أفهم ما ترمين إليه

- إن كان الأمير فارس الدين كرك خورشيد أحد قادة جيش  
التتار فما كان قولك فيه؟

نظرت إليها طويلاً محاولَةً أن أستوعب سؤالها وأتخيل  
كون عدوي من أهلي... تخيلته وهو يأبى أن يلوث شرف سيفه  
بدماء امرأة... تخيلت هدوءه في مواجهة من لاحول لها ولا قوةً

أمامه وقد أهانته وعرضت بأخلاق عشيرته وأهله... تخيلته وقد وقفت ملك يمينه أمامه تعلمه بأنها تبخل بنفسها لإسعاده ولم يبخل عليها بحريتها حين شعر نفورها من أغلال الرق... أحقاً كان فرسان جيش هولوكو خان العظيم بتلك الأخلاق؟... طار عقلي مع ذكرى تلك الأسيرة الصينية التي كانت من نصيب أبي في إحدى المعارك حين تعثرت وهي تأتيه بمشروبه فسقط الكوب من يدها... لازلت أذكر صرخاتها حين فتك السوط بلحمها عقاباً لها على ما فعلت وقد كنت أرتعد بجناحي بقصر أبي كلما سمعت صرختها مع كل جلدة... أذكر أنني خشيت أن أنظر لعينيها لأرى الألم والقهر... كان لدينا بقصرنا الكثير من الجواري... أنذكر تلك الحفلات التي كان يقيمها أبي بقصرنا بقراقورم لكبار فرسان الجاليش الأحمر وأذكر جيداً تلك اللحظات التي كانت تتلاعب فيها كؤوس خمر الراكشي بالرؤوس واختفاء الفرسان في جنبات المخادع مع الجواري... ولا زلت أذكر أصوات الأئين والنحيب من جناح الجواري صباح كل ليلة... أين الحقيقة؟... يكاد عقلي ينفجر... قلت لشفاء:

- لا أظني أصدقه... لا بد أنه يخدعني

- دعينا لا نتعجل الأمر يا مولاتي... هيا يا سيدي لتتالي قسطاً من الراحة فما عاد على موعد تحركنا إلا ساعات قليلة.

قالتها شفاء وقامت وجهزت لي فراشي ومدت لي يدها لتعيني على النهوض وتوجهت إلى فراشي وحاولت إغماض عيني... ولكن عقلي لازال يردد بعواصف الفكر والخوف من مستقبل غامض لا أعرف نهاية طريقه.

ظلمت أثقلب بفراشي لا أجد للنوم سبيلاً ولا زالت صورة الأمير اللعينة تطاردني... كان هناك بخيمته واقفاً أمامي بقامته الفارعه الطويلة... أسمع نبرات صوته الهادئة العميقة تناديني

بسيدة التتار... لازلت أرى ذلك اللعان بعينه العميقتين...  
لازلت أرى لحظة انحدار دمعة الحزن على فراق الملك المظفر  
قطز... أيها اللعين اترك عقلي المكدود وشأنه... هل كتب على  
الجسد أن يكون أسير ذلك الأمير وعلى الفكر والعقل أن يكونا  
أسيرا صورته التي تأبى مغادرتهما؟... مرت الدقائق بطيئة حتى  
سمعنا صوت المنادي يعلن الاستعداد لاستئناف المسير إلى  
قصر الأهوار... وفي وقتٍ قصير كنت أركب العربة أمام شفاء  
وقبل أن أبعاد سمعت صوته خلفي يقول:

- صباح الخير يا سيدة التتار... أرجو أن تكون رحلتنا مريحةً  
لك... وأتمنى السلامة لك ولوصيفتك

التفت خلفي لأجده على صهوة جواده العربي الأبيض وقد  
ارتدى زيه العسكري وقد تبعه حسام الدين على جوادٍ أحمر  
اللون... نظرت له طويلاً كان ينظر إلى عيناى مباشرةً كعادته  
ليغرقني في الحيرة والتهيه في تلك العينان العميقتان ويثير بداخلي  
ألف سؤال... قلت له:

- ليس أكثر من صباحٍ جديدٍ في الأسر والهوان أيها المحارب  
لم تختلج قسمات وجهه بأي تعبير... نظر لي طويلاً وقال:

- قلتيها يا أميرة التتار... صحيحٌ لست إلا محارب... ومن  
العار أن يحيى بكنفي من يشعر بالهوان... أدعو الله أن يعينني  
على تغيير مذاق الهوان لديكي يا سيدتي

قالها ولكز جواده ليسير به إلى مقدمة الركب وقد تبعه  
حسام الدين الذي ما نظر إلي أبداً... تركني مكاني وقد تملكني  
الغضب دون أن أعرف له سبب... نظرت إلى شفاء لأجدها  
متسمرَةً مكانها وعيناها معلقتان بظهر حسام الدين الذي تبع



أستاذة وقد اصطبغت وجنتها بحمرة الورد... ناديت عليها  
لأنزعها من أحلام يقظتها وركبنا العربة التي اهتزت بنا وهي  
تسرع مع ركب الأمير... ومع اهتزاز العربة سبح خيالي في ذلك  
الماضي البعيد بقصر أبي بقراقورم يوم أن عوقبت تلك الأسيرة  
الصينية حين أسقطت شراب أبي... تذكرت لحظة أن دخل  
أبي إلى مخدعي ليجدني جالسةً أرعد خوفاً من صوت جلدات  
السوط التي مزقت جسدها على ما ارتكبت من ذنب... أذكر  
ذلك الرعب التي تملكني حين نظرت إلى عيناه... أذكر كلماته التي  
أراد بها أن يطمئنني... نحارب حتى لا يحدث لنسائنا ما نفعله  
بنساء أعدائنا... وهاك عدوي يضرع إلى إلهه ألا أذوق الهوان إلى  
جواره... أين الحقيقة؟... أين الحقيقة؟

\*\*\*

مرت الساعات بطيئة مؤلمة وأنا أنتحب على شرفي القتل...  
لم أتحرك من مكاني وقد جفت عيناى من الدموع ولم يتبق  
بداخلي سوى الصدمة والخواء... كنت قد صرخت حتى ما عاد  
بي قوة على استكمال الصراخ... نهضت أترنح حتى وقفت أمام  
تلك المرأة أنظر إلى جسدي الملوث بعار الاغتصاب... مرت  
حياتي أمام عيناى كشريط باهت الألوان... انتهى كل شيء... مات  
الماضي وقتل المستقبل ولم يعد سوى حاضراً كسكين مغروس  
بصدري ينزف ناراً تحرق كل شيئاً حي بداخلي... لم يعد للحياة  
قيمة أو معنى... سرت أترنح حتى الحمام أغلقت الباب وانهرت  
أرضاً... مرت دقائق لم أدري بها أكنت واعية أم فقدت وعيى  
من جراء الاعتداء الوحشى على جسدى... فتحت الماء الساخن  
وشرعت أغسل عارى ونجاسة ذلك الذئب القذر... خرجت  
من الحمام إلى الغرفة الصغيرة وارتديت ملابساً أخرى... بساقين  
كعيidan المعكرونة المسلوقة سرت حتى المطبخ الصغير...  
وقفت أستكشف ما حولي... حتى سقطت عيناى على سكين

تقطيع ضخم... أمسكت بالسكين بيدٍ خارجةٍ عن تحكم جسدي... قمت بتعرية رسغ يدي... نظرت للسكين نظرة الأمل في الخلاص... لن أشعر بالألم بعد كل ما مر بي وما هي إلا لحظات وأكون بيدي الرحمن الرحيم... لن يحاسبني على بخع نفسي فهو يعلم أن الموت في حالي لا يعد انتحاراً بل هروباً من ظلم الحياة ووحشية أعداء الحياة إلى رحمته وعدله... الأمر ليس صعباً... هانت الحياة أمام ما حدث لي... وضعت حافة السكين على شرايين يدي اليسرى... ارتجفت يدي اليمنى وهي تخمش جلد رسغي الأيسر بتردد... أغمضت عيني وأخذت شهيقاً عميقاً وأخذت القرار... وقبل أن أسحب السكين سحبة القطع المميت شعرت بالصدمة بمؤخرة رأسي ومادت بي الأرض وأظلمت الموجودات وأنا ممددة على جانبي والرؤية تخبو لأشاهد ذلك الحذاء الضخم الذي اصطدم بمؤخرة رأسي من ساعات.....

فتحت عيناى لأجد نفسي ممددة على الفراش الذي أخذ عليه شرفي نظرت حولي ورأسي يكاد ينفجر... هل أنا ميتة الآن؟.... نظرت إلى رسغي الأيسر لأجد تلك اللاصقات الطبية تضمد جروح السكين... نظرت إلى جواربي لأجد ذلك الوحش جالسا على كرسي خشبي وقد وضع ساقاً على ساق وهو ينظر لي بعينان تتقدان شرراً وقال لي بصوته الخشن:

- يعني عيشتي كافرة وكمان عايزه تموتي كافرة؟

لم أرد عليه... لم أشعر إلا بدموعي الحارة تسيل على خدي وجسدي يرتجف من الغضب والخوف والقهر... فأردف قائلاً:

- قال والأمير أعلنك غير كافرة واعتبرك من نساء المسلمين... إحمدي ربنا إني لحقتك

ما عاد بقوس الصبر من منزع... لقد فقدت كل شيء ولم يعد

للخوف مكاناً بقلبي... لم أجد بنفسي سوى الغضب والكراهية  
والحقد... ودون تفكير نظرت إليه وبكل اشمئزازٍ وغل قلت من  
بين أسناني:

- هللاً أنا كافرة بنت زلمة كافر... شو بدك مني؟... مو على  
أساس خدت الي بدك اياه؟... ليش ماسيبتني موت؟

- ده بدل ما تشكريني إني منعك تموتي كافرة يا بنت الزواني؟  
- وهاد الي تساويه فيني مانو كفر؟

نهض الذئب من على كرسيه وتقدم مني ببطئ... ودون سابق  
انذار قبض على شعري وجرني من على السرير حتى سقطت  
أرضاً وجذبني حتى نهضت عنوةً ووضع وجهي أمام وجهه وصرخ  
في وجهي:

- إياكي تنسي إنك جاريتي وملك يميني يا وسخه  
لم أصرخ... لم أتألم... كان الحقد والكراهية يشعان من عيني  
كألسنة اللهب وأنا أرد عليه بفحيحٍ غاضب  
- ماني جارية وما بكون يا حقير

وفي اللحظة التالية كانت أذني تصفر من صفعته التي هوت  
على خدي كالصاعقة لأسقط أرضاً أسفل قدميه وأبصق الدماء  
من فمي لتصطدم قدمه ببطني في ركلةٍ عاتيةٍ أطاحت بي للخلف  
لأرقد على ظهري ولا أقوى على تحريك شيئاً من جسدي... فقط  
لأشعر بحذائه يوضع على صدري وأراه واقفاً فوقني وهو يتكئ علي  
بحذائه ويقول بثورة عاتية:

- مافيش فايده... كافرة وحقيرة وعمرك ما هتنضفي... أنا

ممکن أخلص عليکي دلوقتي حالاً وارميکي للکلاب تنهش لحمک...  
لکن الأمير موصيني أحافظ عليکي... عصمني الله أن أخالف أمر  
والي خليفة الله... ما تفتکريش إني هصبر علی وساختک کثير يا  
بنت الکلب... بکرة لما ربنا ينصرنا ومنتصر في جهادنا هبيعک انت  
والي زيک يا کيس الزبالة في سوق الرقيق

قالها وترکني بمکاني ثم خرج من الغرفة وسمعت صوت  
المفتاح يغلق الغرفة علي من الخارج.... زحفت علی بطني حتی  
الفراش وتمددت عليه ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أغرق في النوم  
من الألم والتعب.

بعد ساعاتٍ لم أحصها فتحت عيني لينبض کل جزءً  
بجسدي من الألم... تحاملت علی نفسي وترنحت حتی النافذة  
لأنظر من خلف الزجاج فأرى الظلام يغلف الموجودات...  
توجهت إلى الباب فوجدته مغلقاً من الخارج... طرقت الباب  
بيدي فلم أسمع استجابة... فعدت لأجلس علی الفراش... بعد  
لحظات سمعت صوت المفتاح يفتح الباب علي لأجد ذلك  
الحقير أمامي... نظرت إليه لأجده ينظر لي نظرةً غريبة وقال:

- تعالي

- شوبدک مني؟

- ما بحبش أکرر کلامي مرتين... لما أقولک تعالي تيجي زي  
الکلبه

وقفت وتقدمت إليه وجسدي لازال ينبض من الألم...  
سرت خلفه حتی الصالة الخارجية فوجدت الطاولة عليها أطباق  
الطعام... لم أکن قد أکلت شيئاً من آخر وجبة خبزٍ بزيت تشحيم  
الماکينات التي تناولتها قبل لقاء الأمير... وجدت النذل يجلس

على الأريكة ويدعوني لتناول الطعام... كان الجوع يمزق أحشائي  
ويزيد من آلام جسمي... رأيت الوغد يشير إلى الطعام ويقول:

- تعالي اطفحي

تقدمت من الطعام وعندما حاولت الجلوس أوقفتني نظرة  
نارية من عينه وهو يقول:

- على الأرض يا جارية

جلست أرضاً فأمسك بطبق الطعام ووضعهُ أمامي وقال:

- سمي بالله قبل ما تاكلي

تمتتم ببسم الله الرحمن الرحيم وشرعت ألتهم الطعام  
بغل... كنت أكل غضباً... أكل بوحشية... أكل والذل يمزقني...  
انتصرت إرادة البقاء على كل القهر والألم.... وأثناء الأكل  
شاهدته يقوم بآخر شيءٍ توقعته... كان يقوم بحشو لفافة  
تبغ بالحشيش!!!!!! توقفت عن التهام الطعام ونظرت إليه  
مشدوهة بما يفعل فنظر لي وقال:

- إيه؟... هتصورييني؟

- إيش بتساوي؟

- بلف سيجارة... ليكي فيه؟

- مو على أساس هاد حرام؟

- ليه؟ هي خمرة؟

- لعن الله كل مسكرٍ ومفتر

ضحك بصوتٍ عالٍ وقال وسط ضحكاته:

- مافاضلش غير العاهرات كمان هتعلم جنود الله الدين...  
مالكيش دعوة يا روح أمك واطفحي وانت ساكنه

كنت قد أنهيت طعامي فقممت مترنحةً للحمام لأغسل  
يدياي... وسمعت صوته من الصالة ينادي:

- انجزى واعمليلي كوباية شاي بسرعة

خرجت من الحمام إلى المطبخ... بحثت عن الشاي والسكر  
والأدوات ووقفت أمام براد المياه في انتظار غليان الماء... كنت  
سابحةً مع أفكاري السوداء كبحرٍ مظلم... ها أنا ذا قد أصبحت  
جاريته وها أنا أتفاعل مع واقعي البائس... لا أصدق أنني من  
ساعاتٍ كنت على وشك الانتحار والآن أصنع الشاي لذلك  
الوحش الذي افترس عذريتي ودمر حياتي... وماذا الآن؟....  
بإمكاني أن أتم ما عزمت عليه وأنفذ مخطط هروبي من الدنيا إلى  
الآخرة... بإمكاني أن أحمل براد الماء المغلي لأقذفه في وجهه...  
بإمكاني أن أفعل أي شيء... ولكني منهكة... محطمة الجسد  
والشرف... وحتى وإن تمكنت من الخروج من ذلك السجن فهل  
سأستطيع الخروج من معسكر الفرقة ١٧؟... لقد شاهدت على  
شاشة التلفاز لحظات اقتحام المعسكر وكم القوات التي تؤمنه  
من عناصر التنظيم... وحتى وإن استطعت الهروب بمعجزة ما...  
فهل أعود إلى أهلي وقد فقدت شرفي؟... أي مصيرٍ مظلمٍ ينتظرني  
وأى حياةٍ تلك التي سأحياها؟... الغضب والحقد يحرقون قلبي  
ورغبتي في الانتقام تشعل نفسي بنيران الكراهية... كان الماء يغلي  
حين شعرت ببدين تلتفان حول وسطي وأنفاس حارة تلفح رقبتني  
لأنتنفّض وذلك الوحش خلفي يقبل رقبتني برقة!!!!... تسمرت  
مكاني وجسدي ينتفض من الفزع لأسمع صوته يتكلم بهمسٍ  
شهواني قدر:

- تعالي

لم يكن بي قوةً للمقاومة... انصعت ليديه التي جذبتني من ذراعي حتى الصالة الخارجية فجلس على الأريكة وأجلسني إلى جواره... نظرت إلى منفضة السجائر لأرى أعقاب ثلاثة سجائر من سجائره المخدرة... كنت أنتفض من الرعب ويداه تمسحان على شعري وظهري وهويهمس إلي :

- ما ترعليش مني

انفتح فمي في دهشةٍ واستنكار... ذلك الوحش الآدمي بداخله بقايا إنسان؟!... نظرت لعينيه والاشمئزاز والكراهية تنفجر من أعماقي في نظراتي فوجدت عينان مختلفتان عن تلك العينان التي اعتدت أن أراهما... لقد كان المخدر ببساطه هو القيد الذي يقيد وحشيته وحيوانيته... كانت الدهشة تقتلني وأنا أرى تلك الدمعة التي بدأت تنضح من عين ذلك الوحش!!... لم أرى بحياتي دموع التماسيح ولكن لا بد أنها لا تختلف كثيراً عن تلك الدموع... قلت من بين أسناني:

- بهاي البساطه بدك اياي سامحك؟

قال بلسانٍ أثقلته أبخرة الحشيش الأفغاني:

- تسامحيني على إيه؟... إنت حلالي... ملك يميني... أنا عايزك تدخل الجنة معايا

أي جنةٍ تلك التي يحلم بها ذلك المأفون؟... وكأن الأحمق يظن أن جنة الفردوس خلقت ليدخلها القتلة والصوص والمغتصبون... قلت له وقد تملكني الغضب:

- إذا دخلت الجنة وياك... راح إدعي الله لحتي يدخلني نار

جهنم

نظر لي طويلاً... لم أستطع فهم تلك النظرة... وقال لي:

- يااااه... قد كده بتكرهيني؟

- إيه... بكرهك... وبكره كل ياللي متلك... وبريد الله يخلصني منك

أبعد يديه عن جسدي ونظر للفراغ... وسألني:

- ليه يعني؟... كل ده ليه؟... كل ده عشان عايزين نعلي كلمة الحق ونرجع دولة الخلافة الإسلامية... وهو يعني حكمانا عملولنا إيه؟... ما أنا قدامك أهو... طول عمري بعمل اللي عليا... وماشي جمب الحيط... خدت دبلوم الصنایع وخلصت جيشي وحفیت عشان ألاقي شغلانه آكل منها عيش... أبويا مات وأنا في إعدادي... كان شغال محصل تذاكر في هيئة النقل العام... وادونا معاش محترم... ٣٥٠ جنيه... كان المفروض أعيش بيهم أنا وأمي وأختي... ما دخلتش ثانوية عامة... منين؟... يا دوب اللي كانت بتكسبه أُمي من الخدمة في البيوت على الكام ملطوش معاش أبويا معيشنا... فضلت أربع سنين بعد الجيش بدور على شغلانه... ولما أُمي عيت بالداء الوحش ماعرفناش نعالجها... أهي ارتاحت هي كمان... اشتغلت ببيع سريح... طول النهار ألف على رجلي على القهاوي بقزايز الريحه عشان أشحت دقيقه من الكفرة ولاد الكلب عشان بس يعبروني ويشتروا مني أي حاجه... وأخرتها اتمسكت تسول... ولما خرجت من الحجز وروحت البيت لقيت الكلبة الكافرة أختي نائمة مع ابن صاحب البيت... قتلتها وقتلته وهربت... فضلت هربان... لحد ما ربنا هداني وقابلت الشيخ عبد الحميد... هو اللي عرفني على الإخوة المجاهدين... دقت طعم اللحمه الي ما كنتش باكلها غير مرة كل



ست سبع شهور... وجري القرش في أيدي... ناس بتخاف ربنا...  
الحمد لله اللي هدايني... بزمته يا شيخه بعد كل ده وزعلانه إني  
مجاهد في سبيل الله؟... وكمان بتتبطري على النعمة انك جارية  
وملك يمين لواحد مجاهد مش عايز يشوف الشباب زيه؟...  
طاب والله حرام

كنت أسمع كلماته وأنا مشدوهة ولا أستطيع إغلاق فمي  
من الدهشة... عن أي حرام أو حلال يتحدث ذلك الرجل؟... ما  
علاقتي بكل ما قاله وأي نعمة تلك أن أكون أسيرة لقاتل هارب  
وارهابي سفاح؟... وأي جهاد هذا الذي يخالف كل تعليمات  
رسول الله صلى الله عليه وسلم؟... يحرقون الشجر ويقتلون  
النساء والأطفال والشيوخ وينهبون المنازل والخيرات ويهدمون  
المعابد التي نهى الرسول الكريم عن تخريبها... وهل اغتصاب  
النساء وضرهن بتلك الوحشية من الجهاد؟... ماذا يحاول أن  
يثبت لنفسه ذلك المغيب؟... قلت له:

- لهيك ضيعت شرفي؟

- ضيعت شرفك؟.... يا بنت الوسخه ده شرف ليكي إنك  
تنامي مع واحد من المبشرين بالجنة

قالها وضحك بقسوة... ضحك بقوة... ضحك حتى  
انقطع نفسه... قالها وسقط رأسه على صدره وعلا غطيته....  
نام الوحش... نام وتركني لقهري وألمي... تسلفت من جواره  
ووقفت أنظر إليه بغضب وكراهية.... إلتمعت بعيني ألف  
طريقة للانتقام... تسلفت إلى المطبخ من جديد... حملت  
السكين التي كنت سأقتل نفسي بها... التهب الحقد بقلبي...  
توجهت إلى الوحش الذي افترس حياتي... اقتربت ببطئ وقد  
رفعت السكين بيدي.... ماهي إلا طعنة واحدة وينتهي ذلك  
الهول... رفعت السكين... تسمرت مكاني... ارتعشت يدي....

زاد ارتعاشي وخوفي... و.... سقط السكين من يدي.... تراجعت  
حتى التصقت بالحائط وانزلت أرضاً لأنفجر في البكاء.... القتل  
صعب.... صعب.... لا أستطيع.... لم أتمكن من قتله... لعنت  
نفسي و ترددي وجبني... لماذا؟... لماذا لم أقتل جسده كما  
قتل روحي؟.... اللعنة على خوفي وجبني... اللعنة على اللحظة  
التي خرجت فيها من بيتي.... اللعنة على كل شيء.... ظلمت أبكي  
وأنتحب حتى انقطعت أنفاسي... بكيت حتى فقدت وعيي...

فتحت عيناى لأجد نفسي على الفراش من جديد... اعتدلت  
على فراشي... بحثت عن ذلك الوحش فلم أجده بالغرفة  
تحسست طريقي للنافذة لأجد نور الصباح يغمر المكان...  
خرجت من الغرفة لأجده جالساً على الأريكة وأمامه سلاح  
مفكوك الأجزاء يقوم بمسحه بالزيت... نظر إلي وقد عادت  
نظرته الوحشية إلى عينيه وسألني:

- ماقتلتينيش ليه؟

- ما قدرت... ماني سفاحه متلك

- عاود النظر إلى ما يقوم به وابتسم بسخرية وقال:

- إيه؟... صعبت عليكي؟

- مافيني كون متلك... صعب

- ما سألتيش نفسك أنا ليه مآمنلك قوي كده؟

لم أجد ما أجيب به عليه... نظرت إليه والسؤال يتبلور في  
عيني حتى قال:

- جايز ربنا يهديكي

- بالله جد... ما قال أميرك إني ماني كافره ومن نساء  
المسلمين ؟

- ماهو عشان كده يا روح أمك حاسس إنك ممكن تكوني في  
يوم من الأيام من النساء الي ربنا ذكرهم في القرآن... السائحات  
العابدات المحسنات

- الله الهادي

- وجايز حاجه تانيه

نظرت إليه ولم أستوعب ما يقصده من كلماته فوجدته  
يترك ما بيده ويتقدم إلي حتى اقترب مني وقام بجذبي إليه وقبل  
وجهي... انقبضت عضلات وجهي باشمئزاز وانتفض جسدي  
بين يديه وأنا أسمع صوته يقول:

- وجايز حبيتك يا وسخه

نظرت لعيناه التي انحدرت إلى صدري فانتفضت مبتعدة  
عنه ورأيته يبتسم بسخرية وهو يقول:

- هو انت فاكهه اني لو عايزك مش هاخذ الي أنا عايزه؟...  
ما قلتك انت بتاعتي

- بوس إجريك بلا ما تساوي هالاشي معي مرة تانيا

قلتها والخوف ينهشني وفرائصي ترتعد بقوة لأجده يتقدم  
مني مرة أخرى ويجذبني إليه بقسوة ويقول:

- لا خلاص ماتخافيش... وانت راضيه أحلى بكثير... بس  
خدي بالك مش هصبر عليكي كثير... يللا يا حلوة على أوضتك...  
مش كل مرة تسلم الجرة والنهاردة مش فاضيلك... عايز الحق

أروح أختار الرجالة اللي هتطلع معانا على غزة عشان هنتحرك  
النهاردة بالليل... وإعملي حسابك هاجي آخذك ونسافر على  
طول... أنا هقفل عليكى باب الطريقة من بره وهسيبك الحمام...  
مش ناقصه آجي ألاقىكي عاملاها على نفسك... أنا سايبلك أكل  
في الأوضة الصغيرة

قالها وضميني لصدره بقوة وقبل شفطاي بهمجية وسط  
اشمئزازي ورفضى ثم دفعني إلى الممر الأيمن وأغلق الباب من  
الخارج ثم سمعت صوت مفتاح الباب و بعد لحظات سمعت  
مفتاح باب الشقة وتركني للخوف من المجهول والاشمئزاز من  
لمس شفطيه على شفطاي ينهشان روجي الممزقة.



## الفصل السادس

### الحيرة

كانت شمس اليوم الثاني تقترب من نهاية رحلتها في السماء غرباً حين توقف الموكب أمام أبواب قصر سنجد الأهوار في جنوب المنيا.... كان قصراً شاهقاً كقلعة صغيرة على ضفاف النهر وقد أحاطت به الحقول الخضراء من الجوانب الثلاثة..... سمعت أصوات الطبول تدق لوالي السنجد الجديد فنظرت وشفاء من نافذة العربة لأرى أهالي المقاطعة وقد اصطفوا على جانبي مدخل القصر الشاهق مرحبين بواليهم ويتقدمهم شيوخ القبائل وكبار بطونها رأينا الأمير يترجل عن جواده الأبيض ويرافقه حسام الدين ويتقدم بهيبة ووقار ليصافح شيخاً كبيراً في السن وإن لم تنضب حيويته وقوة جسده وقد ارتدى الزي الشعبي الخاص بالقبائل العربية بصعيد مصر بعد أن حيا الشيخ الأمير وتبادلا التحيات رأينا الشيخ يأمر الجمع أن ينصرفوا وعاد الأمير لامتناء جواده وتقدم ركبنا حتى بوابات القصر المنيف..... وأخيراً انتهت رحلة الأسيرة التي كانت يوماً تشبه رحلتها من وإلى قصر أبيها القائد العظيم ولكن تلك المرة إلى قصر أسرها.... ترجلنا وشفاء من العربة وتبعنا الأغوات وصغار الجنود يحملون أمتعتنا إلى داخل القصر وعلى باب سلم الحرملك قابلت تلك السيدة.... عجوزٌ سمراء الوجه طيبة الملامح ترتدي زي نساء أهل الصعيد وعلى وجهها تلك الابتسامة العذبة المطمئنة التي ازدادت اتساعاً حين رأتني وتقدمت إلي وانحنى باحترام قائلة:

- شرفتي سنجق الأهوار يا صاحبة العصمة... أنا خادمك  
الأمينه زينب... مدبرة الحرمك والمشرفة على خدم السنجق...  
وصلتنا رسالة الأمير فارس الدين التي زفت إلينا بشرى حضورك  
العزیز يا صاحبة العصمة

ثم التفتت إلى شفاء التي علت وجهها سمات الدهشة من  
الاستقبال الذي خالف كل التوقعات وقالت:

- لا بد أنك الوصيفة الأولى لسيدة السنجق... هلمي يا ابنتي  
فقد جهزت لك جناحك وأرجو أن تعبريني طوع أمرك يا غالية  
المكانة... من كانت رفيقةً لسيدة السنجق لها ما لها من الشرف  
والاحترام

استدارت العجوز وتقدمت أمامنا وتركنا مسمرتين من  
الدهشة لانجد ما نقول... أي مقام رفيع تدعيه تلك المرأة الخرفة  
لغنيمة حرب موهوبتان لأحد فرسان جيش السلطان؟... نظرت  
إلى شفاء لأجد فمها مفتوحاً من الدهشة وعلامتي تعجب كبيرتان  
ترتسمان في زرقة عينيها فبادلتي النظر وسرنا كالمسحورتين  
خلف زينب وصعدنا درجات الحرمك حتى وصلنا لشرفة عالية  
تطل على صحن واسع اصطفت به عشر جوارى في مقتبل العمر  
بملاح مصرية ونوبية وما أن شاهدنا حتى ارتفعت أصوات  
الابتهاج التي تجيدها النساء العربيات والتي علمت فيما بعد أنها  
تدعي زغاريد الفرحة... احمرت وجنتاي من الاستقبال الذي فاق  
كل توقعاتي ونظرت إلى تلك المرأة زينب والتي قالت:

- هؤلاء هن جوارى حرمك القصر يا سيدتي... طوع أمرك  
يا صاحبة العصمة... أدعو الله أن يكون قد وفقني في تأديبهن  
وتربيتهن على حسن خدمتك... تفضلاً يا عزيزتنا المقام

تقدمتنا من جديد حتى بابٍ ضخم ازدان بالنقوش العربية

وكان يقف عليه أحد الأغوات والذي انحنى بتبجيل واحترام ما أن شاهديني وقام بفتح الباب لأجد ذلك الجناح الفخم الذي كان يفوق جناحي بقصر أبي آلاف المرات... يتوسطه فراشاً عربياً ذو أعمدة عالية وقد غطته الستائر الحريرية الشفافة بنفسجية اللون وبالجانب مرآة ضخمة وطاولَةٌ للزينة تفوق طاولة الزينة الخاصة بخوند خان التتار شخصياً.... وإلى الجانب الأيمن للجناح الفخم شاهدت طنافساً عربيةً وثيرة وقد وضعت أمامها صحفة عملاقة يعلوها كؤوس الماء البارد وأطباق الحلوى والفاكهة وطعاماً يكفي عشرة أشخاص على الأقل... وفي نهاية الجناح العملاق كان هناك باب الشرفة العملاقة.... تقدمت بصحبة شفاء مأخوذة النظرات مبهورة الأنفاس لأخرج إلى تلك الشرفة لأشاهد منظرًا لا بد و أن يكون لجنت النعيم الأعلى خلف جبل الفردوس... شاهدت ضفاف النيل تحتضن بعشق أرض الحقول الخضراء وقد اصطبغ الأفق بحمرة الغروب... وقفت لبرهة مبهورة الأنفاس لذلك المشهد لأنظر إلى تلك المرأة السمراء التي كانت تبتسم بركة وفي عيناها تلك النظرة الحانية التي ذكرتني بأشجان خاتون مع اختلاف الشخصيتين... سألتها:

- أهذا الجناح لي يا خاتون؟

- وأدعو الله يا سيدتي أن ينال رضاكي

- وأين جناح شفاء؟

ابتسمت زينب وتقدمت وقد طوقت كتف شفاء بذراعيها وقد نظرت إليها وهي تجيب:

- لا تقلقي يا سيدتي فللغالية شفاء جناحها الذي أرجو أن ينال رضاها



ثم تركت شفاء وقالت:

- تفضلي يا سيدتي

تقدمتنا من جديد إلى داخل الجناح حتى خرجنا من جناحي وقد شاهدنا إلى يمين باب الجناح الذي كنا فيه باباً آخر وإن كان أقل حجماً من باب جناحي وإن لم يقل فخامةً وجمالاً... توجهنا إلى ذلك الباب وفتحته زينب لنشاهد جناحاً أقل حجماً... كان يماثل حجم جناحي بقصر والدي تقريباً وقد رأينا به متاعاً يشابه متاع جناحي الفخم... تقدمت زينب إلى وسط الجناح والتفتت إلينا وعلى وجهها ابتسامتها الحانية ونظرت إلى شفاء وقالت:

- هذا جناح سيدتي الصغيرة شفاء

التفتت إلى شفاء الذي وجدتها صورةً ناطقةً للدهشة والانبهار... كان فمها مفتوحاً باندھاش وهي تتلفت حولها غير مصدقةً لكلام زينب... نظرت إلي وقالت بصوتٍ تهدج انبهاراً قائلةً:

- سيدتي... هل أحلم؟

تقدمت زينب إلى شفاء وربتت على كتفها بحنان وقالت:

- ليسعد الله الرحيم قلبك الصغير يا بنيتي... لقد أمرنا الأمير فارس الدين أن نبذل ما بوسعنا وأكثر لإسعاد قلبك وقلب سيدتي صاحبة العصمة نارين خاتون

نظرت شفاء إلى عيني زينب وقد التمعت الدموع بعينيها تأثراً وقالت بصوتٍ مرتعش:

- بماذا ناديتني يا خاتون

- إغفري لي تجاوزي يا عزيزة المقام... أعلم أنك الوصيفة الأولى لصاحبة العصمة... لكن لساني لا يطاوعني إلا بأن أدعوك بابنتي... كنت أتمنى أن يجعل لي الله نصيباً في نعمة الأمومة ولكن شاء الله أن أكون من الخدم السلطاني بقلعة الجبل حتى جاءني الأمر بأن أخدم بسنجد الأهوار... فإن كنت تجاوزت حدودي بأن ناديتك بابنتي ف...

لم تكمل زينب كلامها لأن شفاء كانت قد ارتمت في أحضانها دون أي كلمة منها وأخذت ترتعش بالبكاء وقد خرجت الكلمات منها مبهمّة وهي تدفن رأسها في صدر زينب... لم أتمالك دموعي... من هؤلاء الناس؟... كيف يكون الهمج المتوحشين بتلك الرقة؟... أي وحشية وهمجية تخرج كل تلك العاطفة الجياشة من قلوبهم التي طالما وصفها رسل جيشنا الفاتح بأنها أشد صلابة وقسوة من الحجر... رأيت دموع التأثير بعين زينب التي أخذت تربت على ظهر شفاء كأّم تغمر طفلتها بالحنان والحب حتى هدأت دموعها... لتمسح دمع عيناها بكفها الأسمر وتنظر لي ولشفاء وتقول:

- عفوك يا صاحبة العصمة... فوصيفتك احتلت قلبي كما أحببتك من أول لقاء لي بكما... أرجو أن تعذريني يا عزيزة المقام... والآن لقد جهزت لكما الحمام الساخن وستقوم الجواري بمعاونتكما فهيا يا صاحبتا المقام العالي... لتغتسلا من وعثاء السفر وتأكلا... لا بد أن الطريق كان طويلاً وشاقاً وغداً نبداً العمل بإذن الله

نظرت إليها متسائلة:

- عمل؟

- نعم يا صاحبة العصمة... لقد أمر الأمير فارس الدين

بتولية مسؤولية الحرملك لجنابك الرفيع... قال لي برسالته أن  
الحرملك وكل ما فيه سيكون تحت إدارتك ورعايتك... أنت  
سيدة السنجق يا سيدتي

نظرت إليها وبعيني ألف سؤال... اضطرعت بنفسني  
التساؤلات الحائرة... سيدة السنجق الأولى؟... كيف وقد وعدني  
بالنظر في أمر إطلاق سراجي؟... أم تراه كان يسخر مني؟... هل  
خدعني الأمير وتراجع عن كلمته؟.... هل يحاول إبهاري حتى  
يثني عن قراره في العودة إلى وطني؟.... بدأ الغضب يظهر  
بعيني اللتان ضاقتا في وجه زينب التي لازالت تنظر إلي بتلك  
النظرة المملوءة احتراماً وحباً لا أجد لهما أي مبرر في حالتي...  
ألست من أعدائهم؟... ألم يكن أهلي يمثلون لهم الهول والخوف  
كالموت؟.... عينا تلك المرأة وأسلوبها معي يشي بعاطفة صادقة  
من مشاعر الحب والاحترام... كيف ذلك؟.... كاد رأسي ينفجر  
بأسئلته التي كانت تدوي كقرعات الطبول حتى شعرت بالدوار....  
نظرت إلى باب جناح شفاء وقلت لزينب:

- والآن ماذا يفترض بنا أن نفعل يا زينب خاتون؟

- تفضلي للحمام يا صاحبة العصمة

ونظرت لشفاء وقالت:

- هيا يا ابنتي لتستحمي من غبار السفر

بعد حمامٍ دافئٍ أذهب عني بعض توترتي... صحبتنا زينب إلى  
جناحي فتناولنا الطعام الساخن.... واستأذنتني شفاء وتوجهت  
إلى جناحها الذي فاق كل أحلامها بصحبة زينب التي كانت بالفعل  
نبعاً من الحنان والرفقة وتركثاني وحدي بجناحي الفسيح... تركثاني  
لتساؤلاتي وحيرتي التي كانت تمزق رأسي... شعرت بأنفاسي

تضييق ففقت من مجلسي وتوجهت إلى الشرفة لأنظر إلى القمر الذي كان يضيء السماء وتلتمع أشعته الفضية على صفحة ماء النيل شردت مع المنظر الساحر وبدأ عقلي ينسج تساؤلاته على خلفية المشهد... بدأت أسترجع كلمات الأمير حين سألتني عن كيفية عودتي إلى وطني... كان رأسي يدور في كل ما حدث حتى سمعت الطرق على باب جناحي... تساءلت عن ذلك القادم حين شاهدت الباب يفتح ليدخل الأغا ويقول:

- مولاي الأمير فارس الدين كرك خورشيد يستأذن في الدخول يا سيدتي

صعقت حين علمت من القادم.... يستأذن في الدخول؟... يستأذن جاريته ومملك يمينه في الدخول؟... ما هذا الرجل؟.... أي آسر ذلك الذي يستأذن في الدخول على من امتلكها بحد سيفه؟.... كان الأغا لازال واقفاً ناظراً للأرض منتظراً لإذني فقلت له:

- دعه يدخل

انحنى الأغا باحترام وتراجع بظهره حتى الباب وقام بفتحه ليقول بصوتٍ مسموع:

- ليتفضل مولاي

ليدخل الأمير ويخرج الأغا ويغلق الباب وراءه... ظللت واقفةً بمكاني أنظر إلى الأمير الذي ركز نظراته بعيناى دون جسدي كعادته لأسمعه يقول بصوته الهادئ العميق:

- أينقص سيدة السنجق شيئاً؟... جئت لأطمئن عليكى

- ماذا تريد منى أيها المحارب؟

- لا أريد إلا أن أطمئن أنه لا يعوزك شيء في ضيافتي يا سيدة التتار

- أم تراك جئت لأخذ حقوقك؟

نظر إلي الأمير طويلاً... ثم تقدم دون أن يجيب علي إلى شرفة الجناح واتخذ مجلساً بركن به على أحد الطنافس وأشار إلي لأشاركه مجلسه... تقدمت إلى مكانه ووقفت بجواره لأراه ينظر إلى النجوم ولا ينظر إلي لأسمعه يقول:

- ما أردت إلا أن أطمئن قلبك وأريح بالك... هلا سمحتي لي بالكلام معك قبل أن أتركك لتخلدي إلى النوم؟

نظرت له نظرةً باردة وجلست بمقابلته ونظرت إليه لأجد عيناه الغامضتان تنظران إلى قلب عيناى لأسمع صوته يقول:

- ما تراجعت عن وعدي لك... ولكن يجب أن تعلمي أن الطريق إلى بلادك طويلٌ وخطر... فالحرب لم تضع أوزارها بعد وإن كانت كفة الميزان قد مالت لنا... كل ما أرجوه منك يا سيدة السنجق أن تمهلي نفسك حتى تدبري أمرك وتحسمي قرارك... أقسم لك أن أنفذ رغبتك أياً كانت... أما ما اعتقدتي أنني أرغبه وحضرت لأجله... فلا تشغلي نفسك به... لست حيواناً جائعاً للحمك يا أميرة السنجق... كلمة كرك خورشيد كالسيف... ولك مني الأمان على نفسك وجسدك

قلت له وقد جف حلقي دونما مبرر وقد ازدادت حيرتي:

- أنت غريب.... لم أقابل في حياتي من فجر بداخلي براكين التساؤلات والحيرة مثلك... لماذا؟..... لماذا تعاملني بتلك المعاملة التي لا أفهمها؟... أفهم أن تنالني متى أردت... أفهم أن يمزقني سوطك إن أسأت إليك... أفهم أن أكون شيئاً امتلكته

بسيّفك... ولكن لا أفهم تلك المعاملة... لماذا تصر أن تعذبني بالحيرة... ألا تفهم أيها المحارب أنك بنظري لست إلا عدواً من معسكر أعدائي وأعداء قومي؟... أتعلم مدى كراهيتي لك ولبلدك ودينك وقومك؟... أنت وجيشك من أهان جيش بلادي وكسر شوكته... أنت وسلطانك الراحل والحالي وجنودكم من تحديثتم سطوة خاقان بلادي وقتلتم رسله... أنتم من كانت كتب حكمائنا تصوركم كوحوش البرية التي لا تستحق إلا القتل والتعذيب والإذلال... ألا تفهم ذلك؟... لست سيدة قصرِك ولكني سبيتك في حربٍ كان من شأنها إن وابت الرياح سفن التتار أن تسحق بلادك وتقضي على دينك ودين آبائك... لماذا تعاملني كسيدة عالية المقام وواقعي ليس إلا واقع أسيرة ملك يمينك وتحت رحمتك؟... أستحلفك باللهك أن تجيبي فالحيرة تقتلني

كان الكلام يندفع من شفتاي ساخناً حارقاً كالسنة اللهب وكانت نبرة صوتي تزداد شراسةً وتنمراً وأنا أطلق العنان لتساؤلاتي التي كادت تفجر رأسي... توقعت أن يثور الأمير في وجهي... أن ينهال عليّ ضرباً... أن يمزقني لسانه بأقبح القول وأرذل الألفاظ... ولكن كعادته أبت نفسه إلا أن تملأني بالحيرة..... أن تغرقني في الغموض.... نظر لي بعينه التي كانت تسلبني إرادتي في أن أبعد عيناها عنهما وابتسم تلك الابتسامة الواثقة المطمئنة التي يجيدها و أجاب بهدوءٍ لا أعلم من أين له أن يمتلكه قائلاً:

- ما قصدت يا سيدة السنجق أن تعذبك الحيرة وأرجو أن تقبلي اعتذارِي... أعلم أنك متعبةٌ من الطريق الطويل والشاق وأعلم أنك تطوقين إلى النوم والراحة... ولكن... هل لي أن أطمع في أن أصطحبك إلى جناحٍ بقصري تجدين فيه إجابة تساؤلاتك العديدة؟

- أي جناحٍ هذا؟

نظر إلى عيناى طويلاً... ثم قام من مجلسه واقفاً ومد إلى يده... نظرت إلى يده وحسنت أمري فاتكأت على يده الممدودة لأقف... سرت بجسدي تلك القشعريرة التي لم أعلم سببها حين لامست كفي كف يده فسحبت يدي من كفه بعد أن وقفت ونظرت إليه والخوف يتملكني فوجدت ابتسامته الهادئة ال.... ال.... الجميلة... نعم كانت ابتسامة تشع جمالاً وتزيد من وسامة وجهه... تقدمني فسرت خلفه وخرجنا من جناحي ومشينا في دهليز طويل مضاءً بالمشاعل حتى خرجنا إلى الجهة الشرقية من الحرملك وتوجهنا إلى قاعة مرتفعة السقف ورأيت في طرف القاعة باباً عملاقاً يحرسه جنديان يحملان الرماح... وما أن شاهدا الأمير حتى أديا له التحية وقام أحدهما بفتح الباب... تبعنا الأمير إلى داخل القاعة... و... وتفجرت الدهشة والحيرة والانبهار بنفسى حتى كاد يتوقف قلبي انبهاراً من روعة ما رأيت... كانت قاعة عملاقة دائرية الشكل يتوسطها كرسي مذهب من الخشب وقد نقشت جوانبه بالنقوش الإسلامية وله مسند ظهر مرتفع ومتكأين للذراعين وأمامه طاولة من الخشب المزخرف وخلفه نافذة عملاقة تلتصق نجوم الليل خلفها وقد أضيئت القاعة بالمصابيح... وأما الجدران فكانت من الأرض إلى السقف مغطاة بالأرطف التي ازدحمت عليها الكتب والمخطوطات... الآلاف من الكتب والوثائق والمخطوطات تغطي جدران القاعة.... كتب ما حلمت يوماً أن أجدها بمكان واحد... مشيت كالمسحورة حتى منتصف القاعة وفمي لا يغلق من الدهشة وقد انحبست أنفاسى بصدرى.... ما هذا المكان؟... وقفت مكاني بعد أن خفت صدمة الانبهار بالقاعة وما تحتويه ونظرت إلى الأمير بعينان متسعتان دهشة وقد ارتسم بها ألف سؤال لأراه ينظر إلى عيناى وأسمع صوته العميق يقول:

- هنا تجدين الإجابة عن أي سؤال... مرحباً بك بمكتبة

سنجق الأهوار يا سيدة السنجق... ستكون قاعة المكتبة تحت  
تصرفك منذ الآن... وتستطيعين قراءة ما يحلو لك من كتبها  
ومخطوطاتها.... تعلمت من صغري أن أصدق الأصدقاء هم  
الكتب... هنا تجدين إجابة أسئلتك يا عالية المقام

قلت له بصوتٍ خرج منخفضاً رغماً عني:

- أأنت حقيقي؟

- عفواً؟... لم أسمع ما تقولين...

- أيمكنني أن أقرأ تلك الكتب؟

- بالتأكيد

- في أي وقت؟

- أي وقت تشائين... سأعطي تعليماتي للحراس ألا يمنعك  
أحد من دخول المكتبة يا سيدتي

لم أجد ما أقول... كنت في حالةٍ غريبة من الاضطراب في  
المشاعر... لا أدري إن كنت سأطير من السعادة أم سأنفجر  
من الغضب أم سأنهار في البكاء أم.... أم ماذا؟.... من أنت أيها  
الأمير؟... من أنت أيها المحارب الغامض؟... كنت لازلت أقف  
أمامه وأنظر لعينيهِ السوداء العميقة اللامعة لأسمع صوته يقول:

- والآن سيدتي... أسمحين لي بالخلود للنوم؟... فشيخ  
قبائل الهوارة سيأتي بالصباح الباكر للمبايعة ولتعريفنا على كبار  
شيوخ القبائل وكبار بطونها... ولا أحب أن تفوتني صلاة الفجر  
الأولى لي في الأهوار بمسجد المقاطعة الكبير

هزرت رأسي وأنا لازلت تائهة النظرات وكان حلقي لا يزال



متحجراً وكأنني في صحراء بلا ماء... فمد الأمير يده لي ولكنني  
ترددت ولم ألمسها... فابتسم بهدوء ثم استدار وتوجه للباب  
فتبعته حتى عدنا إلى جناحي فقام بفتح الباب ونظر إلى عيناى  
كعادته فشعرت بتلك الرجفة التي سرت على فقرات ظهري وقال  
وابتسامته الهادئة لازالت ترسم على شفثيه

- تصبحين على خير يا سيدة السنجق

لم ينتظر إجابتي وقام بهز رأسه محيياً وتركني وسط أمواج  
أفكارى الحائرة.

\*\*\*

مرت الدقائق بطيئةً ثقيلة منذ أن أغلق ذلك الذئب القدر  
الباب الخارجى لممر الغرف وتركني.... اتجهت إلى الغرفة اليمنى  
وجلست ضاممةً ركبتي إلى صدرى على الفراش الصغير وقد راحت  
دموعى تسيل بصمت... أشعر بخواءٍ داخلى وضياع كامل...  
كانت كل خليةً بجسدى تصرخ قهراً من مصيرى الذى تحدد ولم  
يعد لى مخرجاً من غيابات ظلمته والشوق لصوت أبى ولمسة  
يد أُمى الحانية يمزقنى ويحطم كيانى... ماذا يفعلان الآن؟... لا  
بد أنهما يعتقدان أن ابنتهما الوحيدة الآن فى عداد الأموات...  
وحتى وإن علما أنني أسيرة ذلك الوحش الأدمى الذى يحبنى كما  
يدعى... فماذا يفعلان؟... اللعنة على السياسة والثورة والأسد  
والجيش وسوريا كلها... شعرت بالكراهية تنساب إلى جنبات  
نفسى لتحرق كل شيء... وسط دموعى التى حفرت خدائى نظرت  
إلى خزانة الملابس التى كانت بها مخطوطة المذكرات الخاصة  
بالأسيرة التتارية... قمت من مكاني وقد فتحت الخزانة وأمسكت  
بالمخطوطة وبدأت أقرأ بعينى التى تورمت من البكاء والاعتداء...  
أبحرت وسط السطور وسافرت إلى مصر فى عهد المماليك إلى  
المنيا بصعيد مصر... نزلت بقصر أحد أمراء المماليك الذى

امتلك تلك الجارية التي أسرها في إحدى المعارك مع التتار... ظللت أقرأ مذكرات الجارية وأتعجب على حالي وحالها... شتان بيننا يا زميلة الأسر... كان الفرق شاسعاً... كالفرق بين السماء والأرض... بين رجلاً بالمعنى الحقيقي لكلمة رجل وكلب مسعور لا يشبع من نهش لحم من تحت رحمته... مر الوقت علي وأنا أقرأ لأزداد حسداً لتك الجارية التتارية... تتارية!!!... ليست مسلمة ابنة مسلم مثلي... لم تسمع من أسرها كلمة تهينها أو تنتقص منها بينما منحت شهادةً من زعيم الغيلان بأنني من المسلمين لتعاوني معهم لإرضاء ذلك اليهودي الذي وصفوه أنه من أهل الكتاب بينما كنت بنظرهم كافرة.... شعرت بحاجتي فقممت لقضائها ثم سمعت صوت آذان العصر... تذكرت أنني لم أصلي فرضاً واحداً من يوم أسري... شعرت أن كلمات الآذان تغسل روحي المتهكئة... وكأن يداً رحيمةً تربت على ظهري وتمسح جراح قلبي وجسدي... توضأت وارتديت حجاباً وقدرت اتجاه القبلة بالتقريب واستقبلتها وكبرت تكبيرة الإحرام وبدأت الصلاة... بدأت دموعي تسيل مع ذكري لكلمة الرحمن الرحيم بسورة الفاتحة... أنهيت فاتحة الكتاب وقرأت سورة الأعلى وقد اشتد بكائي حتى تحشرجت أنفاسي في صدري... أكملت صلاتي وفي سجودي الأخير انفجرت نفسي بين يدي الله... يا رحمن... يا رحيم... برحمتك أستغيث... أنقذني يا رب العالمين... أنقذني من بين براثن من يشوهون دين الفطرة بالدماء والنار... يا إلهي الرحيم أستغيث بك... بحق أمرك الذي جعلته بين الكاف والنون... أضرع إليك أن تنقذني بحكمتك... أنهيت صلاتي وقد غسلت الدموع بين يدي رب الناس الرحيم وجهي وقلبي... شعرت بنفسي أزداد قوة وإرادة... لن ينساني الله... لن ينساني الله... لأصبر على ما ابتليت به وليكن الله معي... أعني يا الهي... قمت بعد أن أنهيت صلاتي واتجهت إلى نافذة الحجرة اليسرى ونظرت منها... كانت تطل على ساحة خلفية لمبنى الإعاشة... كانت

الشقة التي سجنني فيها ذلك الحقير بالدور الثاني... كان الارتفاع يعادل الدور الرابع ببنائية عالية... تبخرت من رأسي فكرة كسر الزجاج... دعك من أنه من المستحيل العبور من تلك القضبان الحديدية.... خاب أمني في الهروب من النافذة... عدت إلى باب الممر... حاولت فتح الباب ولكن اللعين كان قد أغلقه بالمفتاح ولا قوة لي لكسره... أعطيت ظهري إلى الباب وانزلت لأجلس أرضاً وبدأ عقلي يسبح في الأفكار السوداء... لا... لن يتزعزع إيماني بالله ولكن ليكن الصبر رفيقي حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً... قمت من مكاني وعدت إلى الغرفة اليسرى... تمددت على الفراش أحرق في السقف حتى غلبني النوم لأستيقظ وأذان المغرب ينادي به... قمت وأديت الفرض وسط دموعي وتوسلاتي لله وقبل أن أتم الركعة الثالثة سمعت صوت باب الممر يفتح وخطوات الحقير تقترب من الباب... سلمت من صلاتي لأسمع صوته الخشن الذي اعتدته يملأ عقلي وأذني بالصديد يقول بنبرة ساخرة:

- الله الله... أسلمنا وبنصلي كمان؟

نظرت إليه بعين تصب اللعنت والكراهية على رأسه وشفطاي تتمتان بخواتيم الصلاة... لأجده يقف وقد شبك ذراعيه على صدره وعينه تنظران لي بسخرية و أردف قائلاً:

- هااا... وعرفتي تصلي لوحداك واللا محتاجه مساعده؟

- لا... بعرف كيف صلي من قبلت ما تنخلق

- مش ناوية تبطلي زفارة لسانك؟... انت لسه مصليه متخلينيش أمسح بيكي الأرض

- ما بتكون أول مره... خلاص ما بتأثر فيني... ماراح يوجعني

جسمي

قال ضاحكاً بسماحه:

- نحسّتي؟

- ما بفهم عليك شو بتقول؟

- ما تدقيش... المهم حضرتي شنطتك

- وإيش الأغراض ياللي بدك ياني ضبيها؟

- الهدوم اللي في الدواليب يا حيليتها... هتلميها في الشنطة الكبيرة اللي فوق الدولاب اللي في الأوضة الثانية... بسرعة يا قطة مافيش وقت عشان هنتحرك بعد العشا على طول

ظلمت جالسةً بمكان صلاتي أنظر له تلك النظرات التي إن كانت تقتل لكان جسده تحول إلى مصفاة... فاقترب مني ببطئ.... تفاجأت برباطة جأشي وثباتي... لم أعد أرتعد منه أو أخافه... نظرت إليه حتى جلس على ركبتيه إلى جوارى وفجأة قام بالإمساك بيدي ولوا ذراعي بقسوة وقوة لينهضني من مكاني وقد فح في أذني قائلاً بوحشية وشراسة:

- يا بنت المرة الوسخة... النظرات دي تبصيتها لعيل شاذ من أهلك الكفار... أقسم بالله العظيم لو عينك بصتلي البصة دي تاني هخرمهالك

لم أصرخ رغم الألم الذي يمزق ذراعي... والغريب أنني لم أشعر بذرة خوفٍ واحدة... هزرت رأسي وأنا أضغط على أسناني حتى لا ينفجر صراخ الألم من فمي فترك ذراعي... دلكت ذراعي وحركته حتى أذهب الألم عنه ثم نظرت لعينيهِ مباشرة... كان

الغضب يستعر بداخل قلبي والكراهية تنطلق كألسنه اللهب من داخل عيني وأنا أنظر له... من أنا حقاً... أي قوة تلك التي تفجرت من داخل جسدي الذي أنهكه الاعتداء البدني والجنسي.... بدأت الحيرة تنمو بداخلي وأنا أرى اهتزازه أمامي... أنا امرأة... والمرأة تقرأ الإشارات بفطرتها... نعم.... ليس واثقاً بنفسه كما يدعي... للحظة رأيت ذلك الخوف والاهتزاز بعينه... ها قد سقطت يا لعين بين براثن حواء... أنا صاحبة الخلق الذي خلقه الله فاستعظمه... لأذيقنك كيدهن الذي استعظمه خالق السماوات والأرض بكتابه المبين... طالت نظرتي بعينه... ودون كلمة واحدة تركته ينظر إلي واتجهت إلى الغرفة اليسرى وقمت بإنزال الحقيبة من أعلى الخزانة... فتحت دولابه وبدأت في تنسيق الملابس بالحقيبة بصمت... كنت أشعر به يقف خلفي... كنت أشعر بغضبه الذي لا يدري أنني أثرته متعمدة... كنت أعرف أن رأسه يكاد يشتعل بالغضب.... قمت بعد أن انتهيت من جمع ملابسه بالحقيبة ثم تركته واقفاً وقد استشاط غضباً وتوجهت إلى الحجرة الأخرى دون كلمة واحدة وأثناء عبوري لجواره أمسك بذراعي مستوقفاً ورأيته ينظر لي ويسألني من بين أسنانه:

- مالك يا مرة؟

- شو بتريد؟

- بسألك مالك؟

- ما في إشي

- مش انت اللي سيبتها من كام ساعة

- إيه... وإيش كنت بتتوقع من جثة مافيه روح؟... هلاا  
انت قتلت روحي... خلاص خلصني... شو بدك مني؟... بدك

جسمي؟... بدك تهين روحي؟... أنا جاريتك... ما هيك كنت  
بتقول؟... وهللا أنا تحت أمرك... يا مسلم يا موحد بالله يا  
مجاهد

كانت الدهشة تغلف قسما ت وجهه وقد سمع صوتي  
القوي وهو يتحدث إليه بتلك الطريقة... تعجبت من نفسي...  
من أين لي بتلك القوة؟... كيف تمكنت من قول ذلك؟.... ماذا  
حدث لتلك الفتاة الوادعة قليلة الحيلة التي كانت تعمل في  
يوم من الأيام بقسم ترميم الوثائق بمتحف التاريخ والحضارة  
بمحافظة الرقة؟... طالت نظراته لي ومن جديد شعرت بمذاق  
انتصاري على وحشيته حين شاهدت نظراته التي ما استطاعت  
مدارة حيرته وتوتره من تلك الفتاة الجديدة التي تركها منهارة  
ليعود ويجدها امرأة حديدية لا يمكن قهرها... ترك ذراعي وطوق  
وسطي بيديه وضميني إليه... كنت أشعر بالاشمئزاز والكرهية...  
لكني لم أقاوم قبلاته التي انهمرت على خدي ورقبتي وشفتي  
وصدري... جذبني لفراشه وجردني من ملابسي وتعري أمامي...  
كانت قبلاته تنهمر على كل شبر بجسدي... قبل فخذي وما  
بينهما ولازلت لا أشعر إلا بالاحتقار له والاشمئزاز من ملمس  
شفتيه... كانت تعبيرات وجهي تعكس البرود والاحتقار... كنت  
أنظر إلى السقف وقد فقدت الإحساس بجسدي... استمر  
ذلك الكلب يلحق جسدي... قبل قدمي ولحق أصابعها وما من  
استجابة من جسدي الذي تحول إلى جثة حقيقية لا تشعر بما  
يحدث لها... كان أداؤه يزداد شهوة لحظة بعد لحظة... وحينما  
أراد أن ينال مبتغاه... لم يستطع فعل شيء... كان يرتعش فوق  
ولم يتمكن من غمد سيفه بمقتل أنوثتي... عجز الكلب عن نهش  
لحمي... لم يتمكن من قهري... خذلته رجولته عن قهر كيد ابنة  
حواء التي قتل إحساسها وما عاد بداخلها إلا القسوة والكرهية...  
قام من فوق... جلس على طرف الفراش يرتعش وقد اشتعلت

نفسه ناراً... كدت أقسم أن عيناه الوقحتان الحارقتان انطفأ نورهما وهما تنذران بهطول دموع القهر كمداً على رجولته المحطمة على باب كهف أنوثتي الحاقدة المشمزة... نهض مترنحاً والتقط ثيابه وسمعت باب الحمام يغلق خلفه... نهضت من الفراش وارتديت ملابسني وقد ارتسمت على شفثاي ابتسامة غريبة عني... توجهت إلى المرأة ونظرت إلى ديمة المحمودي الجديدة... لم أعرف نفسي... تلك الروح المشوهة التي تبتسم بوحشية ابتسامة انتصار... ليست روح ديمة الوديعة المسالمة التي كانت تعد نفسها لتكون زوجةً لشاب بسيط يوفر لها منزلاً صغيراً لتبدأ حياة لا تختلف عن حياتها ببيت أبويها... نظرت إلى تلك التي تقف أمامي وتبتسم... عاهدتها على الانتقام الذي بدأت... أقسم أن أتحوّل إلى أسطورة الرعب لك أيها القدر... أقسم أن أذيقك الذل والهوان بيدي تلك التي حطمتها وقتلت طهرها وبراءتها... أقسم على الانتقام.

خرجت من الغرفة واتجهت إلى الغرفة الصغرى وجمعت ملابسني وبرديات مذكرات نارين التتارية ووضعتهم بالحقيبة وأقفلتها... ارتديت النقاب والقفازات... جررت الحقيبة الثقيلة إلى صالة الدخول... وبكل ثقة جلست على الأريكة حتى خرج ذلك النجس من الحمام وقد اغتسل وارتدى ثيابه ورأيت ذلك المسدس الألماني بنطاق بنطاله ويده تلك البندقية الآلية... نظر لي بدهشة وقال بصوتٍ خرج رغماً عنه ضعيفاً مهزوز النبرات:

- مش هتستحي؟

- وليش بدي أتحمم... ما صار إشي لحتى أتحمم سيدي

صرخ بصوتٍ خرج مكسوراً عن نبرته الخشنة التي أرادها والغضب يشتعل بعيناه

- بتكلميني وانت قاعدة يا بنت الزواني؟

بمنتهى الهدوء وقفت وتقدمت إليه وعيناى تلمعان بشراسة  
وقلت بذات النبرة الهادئة الساخرة:

- ما تواخذني سيدي... بس بتعرف شو بيصير للمرة لما  
يقتلها الشوق للزلمة تبعا وما يصير شي بيناتهم

كان ينتفض من الغضب وهو يضغط أسنانه وقد كور  
قبضتيه في ثورة عارمة.... لم تخرج كلمة واحدة من بين شفتيه  
وهو ينظر لي تلك النظرات المجنونة.... رفعت نقايي وبجراًة  
حديثة العهد بنفسي تركته وتوجهت للمطبخ لأصنع له الشاي...  
وتركته ليغرق في بحر الحيرة والذهول.

صنعت الشاي وتوجهت بكوبي الشاي الساخن إلى الصالة  
لأجده يدخل سيجارة الحشيش وهو ينظر للفراغ وينفث  
الدخان بغل... وضعت صفحة الأكواب أمامه وجلست على  
الأرض أسفل قدميه ونظرت إليه بتلك النظرة التي عرفت أنها  
تذيب قلبه حقداً... كان الدخان الأزرق قد قيد وحشيته وأطلق  
ضعفه... ولبسانٍ أثقله المخدر قال لي:

- مالك؟

قلت له بدلال ورقة:

- مافيني سيدي

- سيدي؟

- موع أساس إني أسيرتك وجاريتك؟... إيش بدك ياني ناديك

- إسمي عبدالرحمن... عبد الرحمن الهواري... بس مولانا



الأمير سماني أبو عبيدة

- وشو تحب ناديك؟... سيدي عبد الرحمن أو سيدي أبو عبيدة

كان ينظر لي ولا يجد كلاماً... كنت أعلم أنه في صراع محموم بين تلك التي حطم كبرياءها وشرفها وتلك التي أذلت رجولته ببرودها واشمئزازها وقوتها النفسية... تركته يتخبط في حيرته... ذق يا لعين بأس حواء إن جردت مخالبتها لتحطيم كبرياء رجل... بعد ما نظر إلي قليلاً سمعته يقول بنيرة غامضة:

- قوليلي سيدي عبد الرحمن... بس قدام الناس تقولي يا شيخ أبو عبيدة

- تؤمرني أمر سيدي عبد الرحمن

- فكربي كده اسمك إيه؟

- جاريتك ديمة

- ممكن تفهميني إيه اللي حصلك؟

- شو؟... ما بفهم عليك... شايفتك مزعوج كثير من تصرفاتي... مانك قلتلي لي الشرف إني جارية واحد من المبشرين بالجنة؟

- وانت رديتي وقلتي انك تتمني تخشي النار ولا إنك تكوني معايا في الجنة

- لا سيدي عبد الرحمن... ما عاد تشوف مني ولدنه ولا شي يزعجك... صار الوقت اللي كون فيه واحدة مسلمة وجارية لمجاهد مسلم كيف ما بتقول

نظر لي غير مصدقاً للهجتي الساخرة وتمتم كأنه يطمئن نفسه :

- كده أحبك

- إيه... بس تشوف مرة حلوة تتركني وتنساني ما هيك؟

- أعمل إيه عشان تصدقيني؟

- بتساوي أي إشي؟

- أي حاجه

الآن يا حقير أكسر أنفك وأذلك كما أذللتنى... الآن أبدأ انتقامي منك يا كلب داعش... سأذيقك الذل بسلاح الأنثى حتى يأتي اليوم الذي أراك تتعذب أمامي و تطلب مني الرحمة ولن أرحمك... كانت تلك الأفكار تدوي برأسي وأنا أنظر إلى عينييه بدلال... قمت من مجلسي... جلست على الكرسي الجانبي... مددت قدمي الحافية على الطاولة وقد استندت بذراعي على مسند الكرسي... نظرت إلى عيناه وقد ارتسم الشيطان في عيني وهمست له من بين شفتاي بصوتٍ كنت أعلم أنه سيحرق أعصابه ويلهب شهوته:

- أي إشي مهما كان بتساويه؟

قال وقد تهدج صوته مع لهاث شهوته المستعرة:

- أي حاجه

ابتسمت بوحشية وقلت بفحيحٍ أنثوي

- بوس إجري

انتصر سلاح الأنوثة على شبیه الرجال... تحطم الغول أمام ابنة حواء وحقدھا الحارق المدمر... نزل الحقیق على ركبتيه وزحف حتى اقترب من قدمي الممددة على الطاولة أمامه... وبلهفةٍ وشهوةٍ ملتهبةٍ احتضن قدمي وقبلهما بذل... قبلهما بخضوع... قبلهما كما يلحق الكلب حذاء صاحبه... استمر الوحش يلحق قدمي بذل حتى انتفض على صوت طرقات الباب الحازمة ليسمع صوت أحد رجال التنظيم يقول:

- هيا يا شيخ أبو عبدة... الرجال والسيارة جاهزين للانطلاق... والأمير يطلب مقابلتك

انتفض عبد الرحمن واقفاً وقد أخرجه نداء الأمير له من سكرات شهوته الشاذة.... وقف مشدوهاً وهو لا يعي ما يحدث حوله... لم يصدق أنه كان يفعل ما يفعله... الآن أستطيع أن أجزم أنني أمام مريضٍ شاذ... رد بصوتٍ مضطرب:

- حسناً يا أخي سآتي لمقابلة الأمير حالاً

نظر إلي... كان فمه مفتوحاً وكأنه أفاق من حلمٍ غريب... كان التشوش والحيرة يكسوان وجهه وروحه... نظر إلي والحيرة تمزقه... أنزلت قدمي ووقفت ونظرت له تلك النظرة التي تزلزل كيانه وتقتل رجولته وكبريائه ودون كلمةٍ واحدةٍ توجهت إلى الغرفة أمام نظراته التي تتبعني بشهوةٍ جامحة.... وتركته يصارع نفسه حتى سمعت صوت الباب وهو يغلق بالمفتاح.

## الفصل السابع

### أول الطريق

أعلن المؤذن عن بزوغ اليوم الأول لي في سنجق الأهوار....  
فتحت عيناى التي أرهقهما النوم المتقطع وسهاد الليل القلق...  
أنصت لكلمات الأذان التي اعتادتها أذناى... لا أعرف سر تلك  
الراحة التي تنتابنى أثناء الإصغاء لتلك الكلمات... لم يعد برأسى  
مكاناً للتساؤلات والدهشة فقررت أن أستمتع بتلك اللحظات  
وتلك الكلمات الغامضة لأذان صلاة المسلمين حتى انتهت...  
نهضت من فراشى وتوجهت إلى إبريق المياه فغسلت آثار النوم  
عن وجهى لأسمع صوتاً من خارج جناحى... أنصت لصوت  
الحركة المريب وتوجهت إلى باب الجناح وفتحته لأجد أغا  
الجناح واقفاً فسألته:

- ما هذا الصوت يا آغا؟

- أسعد الله صباح سيدتى صاحبة العصمة... لا تقلقى يا  
مولاتى إنها زينب خاتون والجواري المسلمات يستعددن لصلاة  
الفجر... فقد اعتادت أن تؤمهن فى صلاة الفجر ثم تقرأ القرآن  
الكريم حتى شروق الشمس وبدء العمل فى الحرمك... إن أمرتى  
أذهب إليها لأبلغها بانزعاجك

- لا... لا تفعل

كدت أعود إلى جناحي لولا تلك الرغبة الملحة التي ثارت في نفسي فقلت له متسائلة:

- ألي أن أطلب منك خدمة يا آغا؟

- رهن إشارتك يا صاحبة العصمة

- أريد أن أشاهد صلاة زينب خاتون والجواري المسلمات...  
لدي فضولاً أن أشاهد صلواتكم

- بالتأكيد يا صاحبة العصمة... تفضلي

[illegible]

سمعتها تقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبْرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ  
الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ  
(٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ  
مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ أَرْجِعِ  
الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)  
وَلَقَدْ رَئَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا  
لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا  
بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) ..... (الله أكبر)

ثم انحنت زينب ومن خلفها رددن الجواري (الله أكبر)  
وانحنين راكعاتٍ بخشوع... وبعد برهةً من الزمن استقامت زينب  
وهي تنادي:

- (سمع الله لمن حمده)

استقمن الجواري خلف زينب وهن يقلن بصوتٍ عميق  
خفيض:

- (ربنا ولك الحمد)

ثم قالت زينب:

- (الله أكبر)

ثم وجدتها تسجد واضعةً وجهها وجبهتها على الأرض وتبعتها  
الجواري واستقررن في السجود الذليل الخاضع... ثم اعتدلت  
زينب مردهً

(الله أكبر) لتجلس على ركبتيها أرضاً والجواري يتبعنها لتعاود  
السجود مرةً أخرى بذات النداء وبعد لحظات وجدتها تستقم  
واقفةً بنداء الله أكبر لتكرر دعاء الفاتحة من جديد وبعد أن  
أمنت الجواري خلفها سمعتها تردد تلك الكلمات التي زادني  
ارتجافاً ورهبةً حين سمعتها تقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)  
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ  
فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى  
(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩)  
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)  
..... (الله أكبر)...

ثم كررت ما قامت به من ركوع وسجود وخلفها الجواري  
حتى السجود الثاني وبدلاً من ان تستقيم وجدتها تجلس وتطيل  
الجلوس ورأيت سبابتها اليمنى ترتفع وكأنها تشير إلى شيء ما ثم  
رأيتها تردد في كل جانب لها:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... السلام عليكم ورحمة  
الله

رأيت الجواري الست يفعلن كمثّل ما فعلت ثم بدأن في الانصراف إلى مخادعهن واحدةً تلو الأخرى وقد ظلت زينب خاتون بجلستها المطمئنة وشفاتها تتمتان بكلماتٍ غامضةٍ لم أتبينها... تقدمت منها حتى جلست كمثّل جلستها إلى جوارها فالتفت إلي وعلت وجهها تلك الابتسامة الصافية وهي لازالت تتمم بكلماتها حتى انتهت وقالت:

- صباح الخير يا صاحبة العصمة

- صباح الخير يا خاتون

- لا زال الوقت مبكراً يا عالية المقام... أرجو المعذرة إن كان صوت الصلاة قد أزعجك

- كنت أشاهد صلاتكم

ازدادت ابتسامة زينب إشراقاً وقالت:

- أدعو الله راجيةً أن يضيء قلبك يا سيدة السنجق بنور الهداية ويريح بالك

- ما تلك الكلمات التي قلتها؟... أي سحرٍ سمعت منك يا زينب؟... لقد انتفض جسدي مما قلتي في صلاتك... ما هذه الكلمات وأي يدٍ كتبتها؟

- إنه كلام الله يا صاحبة العصمة... آيات القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... نزل به رسول الوحي جبريل عليه وعلى ملائكة الله السلام من السماء على قلب محمد صلى الله عليه وسلم حتى يخرج به الخلائق من الظلمات إلى النور



- وهل يأمركم دينكم أن تذلو أنفسكم وأن تضعوا وجوهكم بالتراب؟

- وأي رفعة وعزة أكبر من أن تسجدي خاضعةً لربي وربك ورب الناس أجمعين... لا فرق بين أميرٍ أو فقيرٍ ولا فضل لأبيضٍ على أسودٍ ولا سيدٍ ولا عبدٍ أمام الخالق العظيم الذي بيديه الملك وهو العزيز الغفور؟

- أي رفعة وعزة وقد كان وجهك بالتراب في ذلٍ وخضوع؟... وهل يقبل الأمير أو السلطان بأن يضع جبهته بالتراب تذلاً؟.... أتريدون قول هذا؟

- نعم يا صاحبة العصمة... لا كبير غير الله ولا عظيم سواه... هو الله الواحد الأحد القهار... وكيف لا يضع السلطان رأسه على الأرض بين يدي من آتاه الملك بقدر وقادراً أن ينزع الملك منه بقدر؟... سبحانه يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وهو على كل شيء قدير

- وكيف تطيعون سلطانكم إن كان اعتقادكم أنه كمثلكم لا يملك من أمر نفسه شيئاً وقد أوتي الملك بلا حولٍ منه ولا قوة؟

- أمرنا الله في ديننا وفي كتابه أن نطيع الله ورسوله وأولي الأمر منا... فكما قلتي قد أوتي سلطاننا الملك بمشيئة الله ربنا وربّه... أفلا نطيع من آتاه الله الملك؟

- فإن أمركم بما يخالف الدين؟

- فلا طاعة له عندنا... ولا نكفر بعبادة ربنا أحداً

نظرت إلى عيناها وقد تضاعفت دهشتي... أي دين هذا؟... ما تلك القوة التي يعطيها لجاريةٍ لأحد عمال سلطانٍ ظافرٍ

منتصر حتى تدعي أن بمقدورها ألا تطيع سيدها إذا ما أمرها بما يخالف عقيدتها وشريعة دينها؟... ربما كان ذلك هو سر قوة جيش ذلك الملك قطز... تذكرت كلماته التي ألهمت حماس جنوده وبعثت بهم القوة في ساحة المعركة وقد كادت تحسم لصالح التتار (والإسلام!!!!!!)... لقد رأيت قوة جنود جيش قطز تتضاعف كأن ألف شيطانٍ قد سكن روح كل جندي ما أن سمع النداء.... شعرت برأسي تدور... كانت زينب لازالت تنظر إلي وتبتسم برقة... حتى سمعتها تقول:

- سأجهز الإفطار لمولاتي حالاً -

- لا يا زينب... لست جائعة... علمت من الآغا أنك تقرئين كل صباح في كتابكم المقدس حتى شروق الشمس... فهل يمكنني أن أسمع منك ما كتب بذلك الكتاب؟

اتسعت عينا زينب فرحةً وقالت بلهفة:

- أحقاً ترغبين في ذلك يا سيدتي؟

- وهل ذلك منهياً عنه حسب عقيدتكم؟

- لا يا صاحبة العصمة... حاشا لله أن نمنع نور الكتاب المبين أن يسري إلى كل أذنٍ تعقل وعقلٍ يتفكر... هلمي يا عزيزة المقام إلى مخدعي وأعدك أن تسمعي من كتاب الله كلاماً عجباً قيماً يهدي به الله من يشاء إلى الرشd والخير... تفضلي

رافقت زينب خاتون حتى مخدعها وجلست على فراشها وقد جلست أرضاً أمام حاملٍ خشبيٍّ مزخرفٍ من الخشب وعليه ذلك الكتاب الذي شاهدت مثله بخيمة الأمير أثناء رحلتنا... لامست يد زينب الكتاب برهيةٍ وخشوعٍ وأخذت شهيقاً عميقاً... وبدأ الارتجاف يمتلك قلبي مع ما سمعت منها.... مر الوقت

وأنا أسمع ذلك الكلام الذي كنت أشعر به يخترق عقلي وقلبي ويدخل في جسدي كالطيف المحسوس... لا يمكن لبشرٍ مهما بلغ من براعة البيان أن يكتب مثل هذا الكلام... ظلت زينب تقرأ لي كلمات كتابهم... مر الوقت دون أن أتحرك... لم يكف بدني عن الارتجاف والارتعاش والرهبة حتى سمعتها تقول {....} \* وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون \* ءأخذ من دونه ءالهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفعتهم شيئاً ولا ينقذون \* إني إذا لفي ضلل مبين \* إني ءأمنت بربكم فاسمعون \* { طارت ذاكرتي إلى تلك اللحظات في معركة بيسان... تذكرت نجواي للآلهة ولأرواح الأجداد أن ينصروا جنود الخاقان سليل الآلهة ضد جنود أعدائه... تذكرت تضري وصلواتي لهم قبيل المعركة ونذري أن أكون جنديَّة مقاتلة في جند الخاقان حتى الموت إن انتصرنا... فماذا حدث لهؤلاء الجنود الذين كنا نظنهم جيش الآلهة الذي لا يقهر؟... كلمة واحدة استنصر بها قطز جنوده لدينهم فدارت بها الدائرة.... وسط هتاف (الله أكبر) كان جنود قطز كالصاعقة المدمرة وفتكوا بجيوش هولكو خان... أعظم الملوك والمحاربين ومحطم الأمم... خرجت من عاصفة الذكريات على يد زينب الرقيقة التي كانت تربت بحنانٍ على كتفي وتمسح دموعي التي تفجرت كالسيول من عيني وأنا أرتجف كمن مسته الصواعق... نظرت إليها لتمد يدها الحانية وتمسح دمي وتجلس لجاني وتنظر إلى عيني... مرت لحظات الصمت لأجدي بداخل أحضان تلك المرأة التي ملكت قلبي برقتها وابتسامتها وحنانها... ما شعرت يوماً بتلك الأحضان الآمنة الدافئة إلا تلك المرة التي قتلت فيها أشجان خاتون شيطان الكراهية بقلبي يوم أن ودعتني بقلعة الجبل... لم أرد للزمان بأن يمر على تلك اللحظة... لحظة شعرت فيها أنني قد لمست معنى أحضان الأم الرقيقة التي تذهب ما بالنفس من خوفٍ وضعف... كنت لا زلت بين أحضان زينب الطيبة وهي تربت على ظهري

برقةٍ ما علمت مثلها طول سنوات عمري... رفعت رأسي من بين ذراعيها ونظرت لعيناها التي تخضبتا بالدموع لأسمعها تقول:

- ليكرمني الله بك يا... يا...

- ماذا يا خاتون؟

- يا ابنتي

نزلت الكلمة على قلبي برداً وسلاماً... غرقت في أحضان تلك الأم التي بعثتها السماء لي في لحظة احتياجي لها ولقلبها النابض بالرحمة والحب والحنان... عالية المقام المعظمة نارين خاتون ابنة ميركا خان... بطل أبطال التتار... تلك الأميرة التي كانت تخطو فوق رقاب الناس وكانت تعد لتصير إمبراطورة المغول وسيدة قصر الخاقان الذي شيده فوق جثث ضحايا سيفه الذي لا يرحم.... تلك الفتاة... تشعر بأن العالم كله قد أصبح لا شيء مقابل تلك المرأة التي منحتها تلك الكلمة الغالية... (ابنتي)

- ماذا تقولين؟

- ابنتي... نعم ابنتي

لم أجب كلمتها إلا بالارتواء من جديد بين ذراعيها الحانيتين وقلت بصوتٍ خنقته العبرات:

- ما عدت أرغب منك في أي نداءٍ آخر إلا ابنتي يا أمه

ربتت زينب على رأسي ومسحت على شعري الأسود وقد نظرت بعيناي وابتسامتها العذبة الرقيقة التي أضاءت أمامي ترتسم على شفتائها وقالت:

- والآن يا ابنتي هلمي إلى جناحك حتى تعد لك أمك طعام

الإفطار... وبعدها نقوم بعملنا... سيدة الحرملك لا تهمل واجباتها... وأعاهد الله أن أكون لك الأمان والسند والصديق طالما أمد الله في عمري يا زهرة الشرق

ولأول مرة منذ مدة طويلة ارتسمت ابتسامه على شفثاي... زهرة الشرق... ياله من لقب خرج من تلك السيدة النابضة بالأمومة والعطف... توجهت إلى جناحي ودخلت إلى شرفة الجناح ونظرت إلى الحقول ونهر النيل المتعانقان كعاشقين تحت السماء الزرقاء وقد غمرت أشعة الشمس الأرض بالدفي والضياء لأسمع تلك الخطوات خلفي فالتفت وقد بهرتني طلة شفاء... يا جمال تلك الصغيرة العزيزة إلى قلبي... انحنى شفاء لي محيية فأجبتها بابتسامة مشرقة جعلت فمها يفتح دهشة وقالت:

- صباح الخير يا صاحبة العصمة... أهذا حلم جميل لم أستيقظ منه أم أن ابتسامتك الرائعة تضيئ وجهك؟

- صباح الخير يا شفاء... أراك تناديني كما تناديني أمي زينب

- أمك؟!!!

- نعم يا شفاء... ما عدت بقادرة على مداراة حبي لتلك السيدة... لقد سمعت منها كلاماً جعلني أرتجف من جماله وحسن منطقته... فلم أجد ما يخفف علي وقع الحيرة ورهبة جلال تلك الكلمات غير أحضانها الدافئة وكلمتها التي أحييت الأمل وحب الحياة في قلبي... ناديتني بابنتي وعاهدتني أن تظل بقربي وإلى جوارى ما بقي لها من العمر

- وما هذا الكلام يا صاحبة العصمة؟

- آيات من ذلك الكتاب العجيب... القرآن

نظرت لي شفاء والدهشة تكسو ملامحها الجميلة... وقالت  
بعد برهة:

- هل كان القرآن بتلك الروعة التي تتحدثين عنها حقاً؟

- لا أدري يا شفاء... حقاً لا أدري... كنت أشعر أن كلماته  
تخرج من بين شفتي أُمي زينب وكأنها دفقات من النور تدخل  
من أذني إلى قلبي وتعصف بعقلي... إرتعدت من آيات العذاب  
خوفاً وقلقاً واستراح قلبي لآيات التبشير بجزاء من آمن برب ذلك  
الكتاب... لم أشعر بنفسي إلا وأنا أبكي بين ذراعي أُمي زينب...  
اعتادت نفسي الحيرة والدهشة مذ وطئت قدماي تلك الأرض...  
لم تعد الحقيقة شيئاً واضحاً ملموساً كما كانت سابقاً... كل  
قناعاتي بهتت كما تبهت وجوه الموتى في ذاكرة المحبين... لا  
أخفيك سراً يا شفاء... بقدر شوقي للعودة إلى قراقورم بقدر رغبتني  
في أن أبقى حتى أعلم أين الحقيقة... لن يرتاح فؤادي حتى أدرك  
حقيقة هؤلاء القوم وهذا الـ...

- ال...؟ ال ماذا يا صاحبة العصمة؟

احمرت وجنتاي وزاغت عينا من عينا شفاء ولم أستطع  
الإجابة... ازداد ارتباكي أمام نظرات شفاء المستفهمة... كنت  
سأذكره... ذلك المحارب الغامض الذي لا يغادر فكري للحظة...  
بداخلي رغبة عارمة أن أتحدث إليه... أريد أن أراه... لازلت  
أكرهه وأكره قومه و... و... لا... هذا كذب... ليست تلك مشاعر  
كراهية... سرحت نظراتي إلى البعيد ووجمت ملامح وجهي... ماذا  
دهاكي يا نارين خاتون؟... تتحدثين عن أعداء الخاقان المعظم  
بشغفٍ ولهفةٍ وقد أسميتي جارية أسرك وسجانك أُمي؟... أي  
خيانةٍ لأهلك وقومك... اشتعل الغضب في نفسي... شعرت  
بموجاتٍ وموجاتٍ من الغضب تسري بأعماقي.... ولكن... مما  
أنا غاضبة؟... لماذا أشعر بصدري وأنفاسي تضيق بعد أن انشرح

قلبي بعد كلمات ذلك الكتاب الجليل المهيب؟... استفتت على صوت الآغا يخبرني أن الإفطار قد جهز... دخلت جناحي بصحبة شفاء لأجد زينب واقفةً إلى جوارها جارتان حملتا صحفةً فضية وضعاها أمام المتكأ وقد اصطفت فوقها أطباق الطعام الساخن والفاكهة البانعة... خرجت الجارتان ونظرت لي زينب بعيناها المبتسمتان وقد ارتسمت على وجهها تلك الابتسامة العذبة التي ما أن رأيتهما حتى تبخر ما بنفسني من غضب لتنتصر ابتسامتي على تجهمي لأجد نفسي دون وعي مني أندفع إليها لأحتضنها وأجد لساني يقول دون إرادتي هامساً في أذنها:

- أشكرك يا أمي زينب

وكأنني كنت أحتاج إلى يدها الحانية التي ربتت على ظهري ومسحت على شعري ووجهي... خرجت من ذراعها لأجد شفاء قد أخذت مكاني في أحضان زينب... جلسنا إلى الطعام وقد انفتحت شهيتي... كادت زينب تغادرنا ولكنني أمسكت بطرف ثوبها الفضفاض وطلبت منها أن تجلس معي وشفاء وأن تتناول الطعام معنا ففعلت على استحياء.

أنهيت إفطاري مع شفاء وأمي زينب وحضرت الجارتان وقامتا برفع الصحفة والأواني الفارغة فنظرت إلى أمي زينب وترددت في سؤالها ولكني لم أتمالك نفسي فسألتها وأنا أتصنع عدم المبالاة؟

- ماذا يفعل الأمير الآن؟

- أعزه الله في قاعة السلامك الآن يستقبل شيخ العرب سليمان بن أحمد شيخ شيوخ الهوارة ومرافقه من كبار وشيوخ القبائل ليبايعونه كوالٍ للسنجق... كان الله في عونته... وليعيته على ما هو آت... لقد حمل الأمانة وهو لها من الكارهين

تذكرت كلمات الأمير حين سألته بنهاية اللقاء في خيمته عن نفسه فسألت أمي زينب:

- ما قصبة الأمانة؟

- يا ابنتي يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته) ويقول المولى عز وجل { بسم الله الرحمن الرحيم } إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ( صدق الله العظيم }... لقد حمل الأمير فارس الدين أمانة الحكم والعدل وحفظ النظام وتطبيق القانون في تلك المقاطعة... وكان ذلك بأمر من السلطان الظاهر أعزه الله... وهي أمانة عظيمة ومسؤولية كبيرة... ليكن الله في عونته على هذا الابتلاء

قالت شفاء وقد عجز عقلها عن استيعاب جسامته الأمر:

- وهل الإمارة وعز السلطان ابتلاء يا أماه؟

- نعم يا ابنتي... وأي ابتلاء... لا يدركه إلا عباد الله المؤمنون... فإن صلح الراعي صلح الرعية وإن فسد فسدت الأرض وما عليها من خلائق

نظرت لي شفاء وبادلتها النظرات... مرة أخرى نندهش لمنطق هؤلاء القوم... من يستطيع محاسبة الأمير المكلف والمدعوم بدعم السلطان وهيبته؟... يبدو أن هؤلاء القوم يحاسبون أنفسهم أشد الحساب وأعسره... كان شيئاً آخر قد بدأ يتسلل إلى نفسي القلقة المضطربة... شيئاً لا أجد له تفسير يريح عقلي وقلبي... لماذا أرغب في رؤيته؟... لماذا تطاردني صورته وكلماته؟... لماذا لا يترك كل ما يشغل يومه ويأتيني الآن؟... لماذا أفكر فيه؟... لماذا احتلت عالمي وعقلي يا فارس الدين؟...



لماذا؟.

\*\*\*

بعد ساعةٍ تقريباً من نزول الوغد ليلبي نداء أميره عاد إلى الشقة... كنت لازلت بغرفتي جالسةً على فراشي وقد تذكرت لحظات ذله وخضوعه وهو يقبل قدماي... سمعت صوت المفتاح بالباب فتمددت على السرير وتصنعت النوم وقد أعطيت ظهري إلى الباب... سمعت صوت خطواته وشعرت بوقوفه بمدخل الغرفة... كنت أسمع صوت لهائه وهو ينظر إلي... كنت أشعر بنظراته الحيوانية القذرة وهي تلتهمني... اقترب مني وربت على فخذي برفق فانتفضت جالسةً وقد تصنعت المفاجأة وبعد لحظات قلت له بدلال:

- الحمد لله على السلامة سيدي عبد الرحمن

ثم وقفت أمامه وقلت بصوتٍ منخفض وإن لم يخلو من نبرتي الساخرة:

- اشتقتك كثير

كان يرتجف وقد زاغت عيناه إلى صدري... وقال بصوته المملوء بالشهوة وهو يمسح العرق الذي غمر جبينه:

- جاهزه؟... هنتحرك دلوقتي... هخش الأول الحمام عشان أحلق دقني وبعدين هنزل على طول

- راح تحلق لحيتك؟

- آه... عشان الطريق

تركني بمكاني ودخل إلى الحمام فجلست بالصالة... وبعد

حوالي الساعة تقريباً خرج إلي وقد ظهرت ملامحه التي كان يخفيها أسفل لحيته الكثيفة... كان كما كنت أتصوره تماماً... كلبٌ شهواني حقير لا يظهر وجهه سوى حقارة نفسه وقذارة ما بداخله وقفت ببطئ حين خرج إلي وسددت له تلك النظرات التي كنت أعلم أنها تقتله وقلت له بنبرتي التي أصبحت أعرف كيف ألهب بها عواطفه:

- نعيماً

- بارك الله فيك

- هلا شو راح نساوي؟

تركني واقفة وذهب إلى المطبخ ليعود بذلك الحبل اللبني الذي قيدني به يوم أن أحضرني من زنزاني واقترب مني وهو ينظر لي... تصنعت الغباء وظللت أنظر له بنظراتي الغاوية حتى قال:

- هاتي إيدك

- الله يخليك سيدي عبد الرحمن بلا هالسلبه... راح يجرحني الحبل بإيديني

- بس يا مره وطيعي سيدك

نظرت إليه نظرة الغضب التي أحرقت بها كرامته... ودون كلمة واحدة مددت يداي إليه... كان التردد يلعب بعقله وكيانه... أعلم أنها تعليمات أميره الوغد... ولكن لنرى إن كانت سطوة الأمير تفوق سلطان أنوثتي التي استعبدت إرادته.... ظل واقفاً للحظات ينظر إلى يداي وعيناي اللتان تحرقانه... ثم حسم قراره بأن لف الحبل بارتخاء حول يداي حتى لا يجرحهما بأليافه الخشنة.... كان قد اختار ألا يخالف التعليمات وفي ذات الوقت

يريد إرضائي... قام بإنزال النقاب على وجهي ثم تقدمني إلى خارج الشقة فشاهدت رجلاً من المقاتلين يدخل إلى الشقة ويحمل الحقيبة ويتبعنا... نزلنا من المبنى الذي نظرت إليه طويلاً... في ذلك المكان ماتت ديمة المحمودي... وولدت المنتقمة ديمة التي ستديق ذلك الخنزير عبد الرحمن الويل والهالك بكيدها الذي أدما رجولته... أقسم يا رقة أن أعود إليك وقد خضبت يداي بدمائك يا كلب داعش... نزلت دمعاً من عيني وهو يجذبني إلى طريق طويل مرصوف انتهى بساحة كبيرة لأشاهد تلك الشاحتان الكبيرتان بصناديقها المعدنية المعدة لنقل البضائع عبر الحدود... تقدم الوغد إلى الشاحنة الأولى وأعاني على الصعود إليها... وداخل الصندوق شاهدت باباً داخلياً يقف أمامه أحد المقاتلين مسلحاً بالبندقية الآلية وقام بفتحه لأجد بداخل الصندوق ثمانية فتيات ارتدين النقاب والعباءات السوداء وافترشن الأرض... كان عبد الرحمن يقف خلفي وسمعته يهمس بأذني أنني سأكون مع النساء في تلك السيارة... دخلت إلى داخل الصندوق وافترشت الأرض كباقي السيدات... خرج عبد الرحمن والحارس وأغلق الصندوق من الخارج... كان الصمت يغلف المكان ولا يوجد أي ضوء بالداخل... سمعت نحيب الفتيات المكتوم... خلف نقابهن... وتركت لدموعي المجال لتسيل في صمت... بعد قليل أغادر موطني الرقة... وبعد وقت لا يعلمه إلا الله تعالى أتركك يا أحب بلاد الله إلى قلبي... سأتركك يا سوريا... مرت نصف ساعة حتى سمعنا صوت هدير محرك الشاحنة وبدأ الاهتزاز معلناً بداية رحلتنا.

مرت ساعات طويلة وأنا بمكاني داخل الصندوق حتى شعرت بجسدٍ يقترب مني فأجفلت... سمعت صوتاً أنثوياً يقول بنبرة يكسوها الخوف والحزن:

- السلام عليكم

رددت بارتياب:

- وعليكم السلام... مين؟

- إسمي ناديه... شو اسمك انت؟

- ديمة... بتعرفي شو راح يصيرلنا؟

- لا إختي ما بعرف... ضليت بزنانة ثلاث أيام بعديها خدني  
شباب من هايدول الكلاب إسمه بسام... خدني لهون وعم يقول  
إني هكون إلوو... ما فهمت معناة كلامو

- من وين إنت يا ناديه؟

- من حلب... جيت مع بيبي للرقة لنحضر عرس بنت عمي  
كان جوزي قال إنه راح يجي لعندنا حتى أعاود وياه لبيتنا في حلب  
وقالي انطره ببيت عمي... ومن ثلاث أيام دخل المقاتلين بيت  
عمي وما بتذكر كيف لقيت إني بها الزنانه... ما بعرف شو صار

- لا تخافي حبيبتي... راح نكون سوا شو ما صار

- وانت ديمه... كيف جيتي لهون؟

- هاي قصة طويلة... سامحيني ما فيني إحكي... راسي عم  
يوجعني... وكل ما بتذكر بتعب كثير

- برأيك لوين راح نروح مع هايدول الملاعين؟

- غزة

- إيش؟!!!!

- سمعت الشاب ياللي خدني بيحكي هيك... ما بعرف كيف

بس بعرف إننا راح نروح على فلسطين

سكتت ناديه... كان وقع الصدمة عليها كبيراً... شعرت بجسدها يرتعش إلى جوارى... أحطتها بذراعي فدفنت رأسها بكتفي وأخذت تجهش في البكاء... طال الوقت ونحن في ذلك الظلام حتى غلب النعاس كلانا فمنا.

بعد حوالي خمس ساعات متواصلة دون توقف توقفت السيارة فجأة... وبعد دقائق فتح الباب ليدخل اثنان من الرجال حليقي الوجه قاموا باقتيادنا إلى خارج السيارة لنجد أننا متوقفين بداخل سور منزلٍ عالي... قام المقاتلين بتقييدنا بالحبال واقتادونا إلى داخل المنزل.... كان بهواً كبيراً بانتظارنا... لم أرى عبد الرحمن في أي مكان... اقتادنا المقاتلان حتى غرفةً جانبيةً وأدخلونا فيها وتركونا وأغلقا الباب من الخارج... نظرت حولي لأجد حماماً صغيراً ملحقاً بالغرفة فحمدت الله... بحثت بعيناى بين النساء علي أتعرف على ناديه ولكن هذا كان مستحيلاً... فناديت بصوتٍ مسموع:

- ناديه؟

ردت علي واحدة من الفتيات:

- ديمه هايدي أنا

اقتربت حتى جلست إلى جوارها ونظرت ناحيتها وقلت:

- بتعرفي وين بنكون؟

- ما بعرف... كم ساعة ضلينا بالسيارة؟

- ماني متأكدة بس بعتمد حوالي خمس ساعات

- يا الله... إيش راح يساوو فينا؟

- لا تخافي ما بعتمد راح نموت

- والله الموت أرحم من هادول الأنجاس

- لا تحكي بصوت عالي لحتى لا يسمعونا ما

- الله ينتقم منهم

بعد لحظات سمعنا صوت الباب يفتح ليدخل عبد الرحمن ومعه ثلاثة مقاتلين وقد ارتدوا ملابس حديثة ووقف بيننا قائلاً:

- يللا يا مره انت وهي كل واحدة تغير هدومها بالهدوم دي

قام أحد المقاتلين بالخروج من الغرفة وأحضر حقيبة سفر كبيرة وقام بفتحها لنجد بها مجموعة من ملابس المحجبات العصرية دون نقاب... نظرن بعضنا لبعض لنحاول أن نفهم ما يحدث لنسمع عبد الرحمن يقول:

- عشر دقائق وهدخل... الي مش هتكون غيرت هعتبرها خارجه عن إرادة أمير الجماعة وهطبق عليها الحد فوراً... مفهوم؟

قالها وخرج من الغرفة برفقة رجاله... بدأت بتغيير ملابسني أنا وأربع أخريات بينما كانت ناديه واثنين أخريتان ترتجفان خوفاً... اخترت لنفسني ملابساً تناسب جسمي وبدأت في ارتدائها على عجل... أنهيت ارتداء الملابس والفتيات اللاتي بدأن معي وقمنا بلف الحجاب على شعورنا... وبعد حوالي عشر دقائق فتح الباب ليدخل ذلك الوغد الحقيير عبد الرحمن ومعه اثنان آخران... نظر إلينا وإلى ناديه والفتاتان اللتان لم يرتديا الملابس... أمر رجاله بعينه فاندفع الرجلان وجذبا ناديه ومن معها خارجاً وسط

صراخهن... تملكني الذعر... هرعت في اتجاه الباب ليمسكني ذلك الحقير ويدفعني للداخل ويخرج ويغلق الباب من الخارج وبعد دقيقة من الصراخ سمعنا صوت الطلقات الثلاثة يدوي من الخارج.... صرخت بكل ما أوتيت من قوة:

- ناديه... ناديه.... نا...

ثم أظلمت الدنيا من حولي.

فتحت عينائي على اهتزاز عنيف لأجد نفسي راقدةً بداخل صندوق الشاحنة انتفضت بقوة مناديةً على ناديه.... لم يجبني أحد نظرت حولي على النور الضعيف لأشاهد الفتيات الأربع يجلسن بداخل الصندوق... اعتدلت وأنا أتلفت حولي.... لم أجد ناديه... ناديه المسكينة التي ما ارتكبت ذنباً إلا أنها تأخرت عن تنفيذ أوامر ذلك الخنزير... ناديه التي حضرت إلى الرقة لحضور عرس فكان بداية تجهيز مأتمها... اللعنة عليكم يا أعداء الحياة... اللعنة على وضاعتكم وخستكم... اللعنة على الإرهاب بكل صوره وأشكاله... اتخذت ركناً وبدأت أجهش في البكاء الصامت والقهر والكراهية تقضي على ما تبقى من كياني بكيت حتى تحجرت دموع عيني... بكيت حتى التهب قلبي بنيران الكراهية..... الانتقام... أقسم على الانتقام منكم يا جبناء... أقسم على الانتقام يا أشباه الرجال.

توقفت السيارات من جديد فتح باب الصندوق ليدخل المقاتلان من جديد ويقوما باقتيادنا للخارج... أين نحن؟... أي مكان هذا؟.... رأيت تلك السيارات السوداء رباعية الدفع من طراز الجيب شيروكي... حوالي عشر سيارات... كانت تحمل لوحات معدنية غريبة لا تمت إلى لوحات المرور بسوريا بصلة... كانت اللوحات تحمل أحرف لاتينية... قام المقاتلان بحراستنا بينما شاهدت ذلك القاتل المسعور عبد الرحمن يقف بين ما يقرب

من عشرين رجلاً ويتحدث إليهم... أنهى حديثه إليهم فتقدم أربع مقاتلين إلينا وقام كل واحدٍ منهم باصطحاب إحدى الفتيات إلى سيارة من سيارات الجيب وقام بالركوب إلى جوارها في الكرسي الخلفي ثم رأيت ذلك الوغد يتقدم ناحيتي وقام بجذبي من ذراعي حتى إحدى تلك السيارات وركب إلى جواري بالكرسي الخلفي ثم قام مقاتلان آخران بالركوب في الكرسيين الأماميين وقام من جلس خلف مقعد القيادة بإدارة المحرك وانطلق بالسيارة ليخرج بها من ذلك الحقل الذي كانت السيارات تصطف به إلى الطريق بينما قام الجالس إلى جواره بسحب أجزاء بندقية آلية وتأمينها ووضعها أسفل مقعده وإن كانت في متناول يده... بينما قام عبد الرحمن بإخراج رشاش قصير وقام بجذب يد التعمير ثم قام بوضعه أسفل كرسيه في متناول يده... كنت أنظر إليه والنار تخرج من عيني... ودون سابق إنذار وجدته يضع ذلك المنديل تحت أنفي لتظلم الدنيا في عيناى.

بدأت أفتح عيناى لأجد نفسي راقدةً على ذلك الفراش الصغير... شعرت بألمٍ شديد في رأسي... نهضت وأنا أمسك برأسي الذي كاد ينفجر... بدأت أستكشف المكان حولي حتى شاهدت ذلك الوغد جالساً على كرسي خشبي وهو يفحص جواز سفر أحمر اللون كان يقلب صفحاته بين يديه.... بدأت أستعيد كياني... نهضت وتقدمت إليه وأنا أترنح لأسأله:

- وين أنا؟

- صح النوم... إيه؟... البنج كان ثقيل كده؟

- هللا نحنا وين؟

- في تركيا... بلد اسمها غازي عنتاب... ما تخافيش مش هنطول هنا... كلها كام ساعه ونطلع عالمنطار



وقفت للحظات وأنا أحاول أن أستوعب الوضع الجديد... تركيا؟... كيف وصلنا إلى ذلك المكان؟... ألم يكن من المفترض أن نذهب إلى غزه بحسب ما سمعت يوم لقائي بذلك السفاح الذي كانوا يلقبونه بالأمير... كنت غارقة في حيرتي حتى أفقت على صوته وهو يقذف لي شيئاً ما فالتقطته وأنا أسمعته يقول:

- ده باسبورك.... ما رضيتش أشحنك على غزه بنفس الطريقة الي بعتنا بيها الستات التانيين... زمان الرجالة دلوقتي داخلين على مرسين... ومن هناك هيسافروا بالبحر... بس أنا قلت خليكي معايا... عشان لازم أوصل قبل الرجالة

- مرسين؟... البحر؟... ما فهمت إشي

- مش مهم... المهم فزي من مكانك وادخلي الحمام بسرعه عشان تلحقي تتسممي قبل ما نتحرك... يللا يا روح أمك مافيش وقت

ترنحت حتى باب الحمام الصغير الملحق بالحجرة التي كنا بها... غسلت وجهي وعدلت ملابسي وخرجت لأجد لفافة طعام ملقاة على السرير... والتي تبين أنها شطائر جبن التهمتها والجوع يفتك بمعدتي... انتهيت من طعامي لأجد ذلك الوغد يجلس إلى جوارى ويلتهمني بعيناه... كان ينظر إلي بتلك النظرات الجائعة وهو يسأل:

- شكلك كنت جعانة قوي؟

رددت بشرود دون أن أنظر إليه:

- ما كلنا إشي من ساعة ما بلشنا نتحرك من الرقة

- هانت... كلها كام ساعة ونوصل مطار بن غوريون

انتفضت من الفزع... سقط الطعام من يدي وأنا  
أرتعش... ماذا قال ذلك المأفون؟... مطار بن غوريون؟....  
إسرائيل؟؟؟؟!!!!

\*\*\*

تقدمت النقيب طبيب / نهى عبدالله من مكتب القائد  
لتؤدي التحية العسكرية بقوة ليرد لها القائد تحيتها قائلاً:

- أهلا يا نهى... اتفضلي اقеди

جلست نهى وقالت بصوتها الأنثوي القوي:

- تعليماتك يافندم

- نهى... أنا عارف ومتأكد من صعوبة وخطورة مهمتك...  
وعارف إني سألتك السؤال ده قبل كده... لكن يا بنتي لازم تفهمني  
إن مافيش أي نوع من أنواع الإكراه على قبول المهمة دي...  
صدقيني... تراجعك عن تنفيذ المهمة دي مش هيققل من قدرك  
عندي ولا هيهز مكانتك في نظري ولا في الجهاز

- سيادتك عارف اني مش هتراجع عن المهمة دي يا فندم...  
أنا مصممة إني أقوم بيها

أطرق القائد ملياً ثم رفع عينيه المتألقة بنظرة الإعجاب  
لتلك المقاتلة الشابة ليقول بحسم:

- يبقى استعدي يا سيادة النقيب.... العملية نسر هتبدأ في  
خلال ساعات.



## الفصل الثامن

### العهد

مر اليوم الأول وأنا بصحبة أمي زينب وشفاء... لقد أصرت تلك السيدة الطيبة التي احتلت قلبي بحنانها ورقتها أن تفجر براكين دهشتي طوال اليوم بطاقتها الخارقة التي لا تنضب برغم سنوات عمرها الخمسين كانت تشرف على كل صغيرة وكبيرة بداخل الحرمك والقصر... كانت تصدر الأوامر للجواري بإتمام أعمال النظافة والتجميل لجنابات القصر المتسعة وتشرف بنفسها على أعمال المرقدارية بالمطبخ... كان الأغوات والخصيان يقدرونها ويحترمون كلمتها وكأنها قائد عسكري محنك استطاع أن يستميل قلوب جنوده إليه... العجيب أنها كانت تفعل كل ذلك وابتسامتها الرائقة الصافية لا تغادر ثغرها ولم أرها تغلظ القول لأي ممن هم تحت إدارتها وإشرافها... بعد أن أعدت مأدبة الغداء للأمير وباقي رجال وعاملي السنجق وبعد أن تناولت غذاءها معي وشفاء... أخذتنا لتعلمنا فنون التطريز والحياكة... كنت أتعجب وأنا أشاهد يداها تصنعان الأعاجيب في أنسجة القماش بمهارة وسرعة... استمالي فن الحياكة وطلبت إليها أن تعلمني تلك الفنون فوافقت بحب وابتسامة حلوة كانت تجعل الفرح يتراقص بقلبي الذي ما دخلته البهجة من يوم أسري وفاجعة موت أبي... الغريب أن كل ذلك لم يستطع بأن يذهب بذلك الهاجس الذي كان يتلاعب بعقلي وقلبي من حين لآخر... لم يذهب الحزن عني وإن كان قد انزوى بركنٍ مظلمٍ بداخلي ولم

يعاودني إلا في لحظات شرودي... كان القرار صعب... صعب... لا زال الأمير فارس الدين يحفظ عهده ووعدته لي بأن يتدبر أمر إطلاق سراجي وعودتي لقراقورم... كنت أعلم أنه ينتظر مني كلمتي وخطتي للعودة وإعلاني تحملي لتبعات ذلك القرار... ولكن بعد ما شاهدته بقصره من معاملة لم تكن بالحسبان ووسط فيض تساؤلاتي وخضم أمواج حيرتي وبحثي عن حقيقة أعدائي التي صارت موضع شكي في كل ما قرأت وعلمت من طلائع جيوش الخافان صار ينازعني في اتخاذ القرار الرغبة الجارفة في معرفة الحقيقة... أين الحقيقة؟... لماذا تعامل غنيمة الحرب كسيدة في بيت أسرها؟... ما سر ذلك الأمير الذي يصصر على اقتحام فكري ولا تمر دقيقة على قلبي دون أن يرتجف لمراى صورته التي لا تبارح مخيلتي... أيعقل أن أكون...؟... لا... بالتأكيد لا... حتى الاعتراف بما يعتمل بقلبي صار غامضاً مستعصياً على لساني صياغته.... لا بد أنه شغفي المرضي لاستكشاف الحقائق... كان كل ذلك يجاور شعوراً آخر لا أستوعبه... ما سبب رغبتى الملتهبة في مشاهدة صلوات زينب؟... ما سبب أسئلتي لها عن معاني الكلمات التي سمعتها منها هذا الصباح؟... لماذا أرغب بشدة في سماع المزيد من كلمات ذلك الكتاب الذي أطار عقلي وقلبي شعاعاً حينما دخلت كلماته الساحرة إلى أذناي؟.... ما هذا المنطق الذي حطم الكثير من الثوابت التي آمنت بها سابقاً؟.... من إله هؤلاء القوم الذي يثقون بقدرته المطلقة ووجوده الأزلي؟.... ما هذا الدين الذي تهون لأجله الروح في ميادين المعارك التي لا تشب إلا دفاعاً عنه ونصرة لوجوده؟.... ما سر تلك القوة التي تملأهم حين يمرغون جباههم بالتراب في صلواتهم وكيف يتأني لأباطرتهم وملوكهم أن ينزلوا عن كبرياء عروشهم كأبي عبد ذليل في حضرة ذلك الإله؟... بل إن دينهم يأمرهم بأغرب الغرائب التي سمعت عنها..... رأيت تعامل أمي زينب لتلك الفتاة القبطية مريم... كانت تحترم مقدساتها احتراماً كاملاً... بل كانت تأمرها بالالتزام

بقواعد وملزمات دينها..... سمعت من أمي زينب أن إيمانهم  
بإلههم لا يعد كاملاً إلا بالتسليم والإيمان الكامل بكل الرسل  
والكتب والملائكة.... بل إن دينهم يأمرهم بالجنوح للسلم لمن  
لا يتبع تلك الأديان الرسولية التي تعتقد بوجود إلهاً واحداً وتتفق  
في الإطار العام وإن اختلفت طرق العبادة والمعتقدات... حتى  
من يعبدون آلهةً تخالف إلههم أمرهم دينهم بمسألتهم وعدم  
العدوان عليهم إلا إن بدأوا في العدوان.... ما هذا الدين؟... أريد  
الحقيقة..... أين الحقيقة؟

كان المغيب قد اقترب ولم يأت الأمير... لا أدري سر اقترابي  
من باب الحرمك وكثرة النظر إليه... بداخلي رغبةً جارفةً في أن  
أحدث إليه... كدت أندفع إلى خارج الحرمك لأراه.... لا أعرف  
سبب ما أنا فيه وهذا ما يزيد من حيرتي واضطرابي.... كنت في  
تلك اللحظة جالسةً برفقة شفاء في صحن الحرمك والجواري  
يسترحن من عناء العمل طيلة النهار... كنت في إحدى لحظات  
الشرود التي كانت تتتابني كلما مررت بعيني على باب الحرمك  
فسمعت صوت شفاء تتسأل:

- ما الذي يشغل بالك يا صاحبة العصمة؟

أجفلت من سؤالها واضطربت ضربات قلبي وقد شعرت  
بتلك السخونة في وجنتاي وأنا أجيبها:

- لا شيء يا شفاء... فقط أشعر بالحنين إلى قراقورم

نظرت لي شفاء بعينها التي تشعني أنني أنظر إلى لجةً  
عميقةً ببحر الشمال وقالت بصوتٍ غامض:

- أمتأكدةً من ذلك يا صاحبة العصمة؟

نظرت إليها وأنا أقطب حاجبائي وقلت بنبرةٍ حادة:

- ماذا تقصدين؟

- عفوك يا صاحبة العصمة... ما قصدت شيئاً سيئاً  
سيديتي... ولكن... أمتأكدة من حنينك إلى قراقورم يا سيدتي؟...  
أعلم بما يعتمل بنفسك يا مولاتي

سألتها بتوتر:

- تعلمين ماذا؟

- أعلم أنك أحببت زينب خاتون كما أحببتها وأعلم أنك  
أحببت ذلك القصر وما لاقيناه من معاملة.... وأعلم أن قرارك  
سيكون صعباً إذا ما انتويتي الرحيل والعودة إلى بلادك.... وليس  
لي الحق في أن أثنيك عن ذلك القرار... ولكن يا سيدتي... ولكن...

- ولكن ماذا؟

قلتها ونظرت إلى عينيها لتصدمني تلك الدمعتان الخارجتان  
من محجريهما وذلك الارتباك الواضح على معالم وجهها  
الجميل... أمسكت بيدها واصطحبتها إلى جناحي... كنت أشعر  
أنها تريد أن تبوح لي دون غيري بما يعتمل في قلبها الصغير  
الرقيق... كنت أعلم أنها لازالت تعتقد أنها تحيا حلماً وردياً  
وترتجف خوفاً من الاستيقاظ منه... كنت أشعر أنها تعاني صراعاً  
يشابه الصراع المحتدم بداخلي المضطرب... وأعترف بأنني كنت  
أحتاج لأن أشعر بمشاركة أحدهم لي في ذلك الصراع الذي أنهك  
عقلي وقلبي.... دخلت برفقة شفاء إلى الشرفة وجلسنا بذلك  
المجلس الذي اتخذته الأمير بالأمس.... الأمير... ذلك المحارب  
الغامض الذي يأبى أن يبارح فكري وعالمي... جلست على إحدى  
الطنافس وأجلست شفاء التي كانت لازالت تعاني الارتباك  
والوجل وسألتها:

- شفاء... ألسنا برفيقتي درب وأختان جمعتهما الظروف في الأخوة والطريق؟... ألم نتعاهد على ألا نفارق بعضنا البعض مهما كانت الأسباب؟... لقد أصبحت أقرب الأقربين لي بعدما حكم الزمان علي أن يحرمي من كل ما يتعلق بعالمي وحياتي... لم يبق لي في تلك الدنيا من شيء سواك... صارحيني يا غاليتي الصغيرة بما يعصف بقلبك... صارحيني يا عزيزة المقام

نظرت لي شفاء وقد استكانت نفسها فشجعته بابتسامتي التي كنت أعلم أنها تحبها وتعتبرها علامة رضاي عنها... جففت دمعته التي انفلتت من عقل عينها الزرقاء وقالت:

- هذا ما يعذبني يا صاحبة العصمة... ما شعرت يوماً بإحساس الأخوة والترابط إلا بك يا أختاه... لم أشعر بطعم الصداقة إلا بك... يوم أن تعاهدنا بقلعة الجبل على الإخاء والرفقة كنت لا أعلم لي من أهل أو سند غيرك يا عالية المقام... لم أتصور أن تعطيني الحياة ما أراه الآن أو أشعر به.... لقد تعلمت معنى الحنان بيد تلك التي وهبتني الحب والعطف دون مقابل إلا أن قلبها مال إلي... أقصد أمنا زينب... لم يخطر ببالي أن أشعر بدفئ حنان الأم في حياتي... لقد أعطاني الزمان الأمان الذي ضمن به علي مذ كنت في الثالثة من عمري وفقدت بأيدي أسياي التتار البيت والأهل... أصبحت أنام ملئ جفوني ولا أخشى أن ينال جسدي سيذاً أو عبداً أرهقته الشهوة فمضى يبحث عن لحم رخيص ليسد رمق شبقه... ضحكت من قلبي ولم أخشى أن يسمع صوتي سيذاً فيحول صوت ضحكاتي إلى صرخات ألم بجلدات السياط التي أخذت من لحم ظهري ما يشبع جوع السباع الضارية.... و... ولأول مرة في حياتي سلب فؤادي من لا يشعر بي فسمعت دقات قلبي لهفة لأراه ولو لم يبادلني ذلك الحب الذي ألهب قلبي وأشعل النيران في روحي.



احمرت وجنتا شفاء حتى صارت تماثل حمرة الورد فزادت  
جمالاً وفتنة... كنت أسمعها وكلماتها تكاد تشق قلبي... كنت  
أسمعها بكل كياني وبحسبة العقل ما دقت السعادة أبواب قلبها  
إلا يوم أن وطأت قدماها أرض قلعة الجبل... لا يخفي تلك  
الحقيقة إلا من يكرهها... كنت أنظر لها وقد كانت تبحث عن  
الكلمات حتى استأنفت متممة:

- أعرف أنني عاهدت مولاتي بعهدٍ التزم به وأعلم أن أصحاب  
المقام هم أصحاب الكلمة الواحدة... وعذري أمامك يا سيدي  
أنني لم أكن يوماً من أصحاب المقام كسيدي.... يقتلني عذاب  
الضمير من كلمة خشيت ألا أبر بها... عاهدتك سيدي أن أكون  
رفيقتك حتى آخر حياتي ولكن للقلب كلمته التي ما استطاع  
إنسان مخالفتها...

قالتها وعادت دموعها تنهمر في صمت... كانت تصارع ذاتها  
لإخباري بأنها لا ترغب في الاستمرار في عهدها الذي عاهدتني  
به... كانت تشعر بما شعرت به لحظة تذكري لأهلي وبلادي  
حين شعرت بالفرحة تدخل قلبي في بيت عدوي... كنت أشعر  
بذلك الإحساس المزعج... أي خيانة لأهلي وبلادي؟... أم أن  
الحقيقة أن كل ما كان من حياتي السابقة كان صورة ناقصة لم  
تكتمل أبعادها؟... نظرت إلى عيني شفاء وفعلت ما لم تكن  
نارين ابنة ميركا لتفعله في قصر أبيها... فعلت ما كنت أشعر به  
مذ التقيت بتلك التي استحققت حبي لها كأختي... نعم... لقد  
ضممت تلك الغالية إلى صدري... احتضنتها... ضممتها إلي...  
شعرت بدموعها التي بللت كتفي الذي أسندت عليه رأسها  
الجميل.... قلت لها وهي لازالت بأحضانِي:

- لا عليك يا أختاه.... هوني على نفسك العزيزة إلى قلبي...  
لا تقلقي يا شفاء.... فهمت ما يعتمل بقلبك الصغير وأحلك من

أي وعدٍ من شأنه أن يحرمك من فرحة قلبك في حياتك الجديدة

انتفضت شفاء حين سمعت كلماتي... نظرت إلى عيناى وقسماتها تموج بين فرحة قلقة وخوفٍ يتردد في قلبها ودهشة من لم يتوقع أن تبسم له الدنيا بعد جفاء... كانت تنظر إلي وكأنها تتأكد أنها لم تتوهم ما سمعته... بادلتها النظرات وابتسمت لها تلك الابتسامة التي طمأنتها وأومات لها برأسي تأكيداً لكلماتي... لتتحول دموع الحزن والخوف بعينها الصافية إلى دموع الفرح والامتنان لمن لم ترى من أهلها إلا القسوة والإهانة لتندفع مرةً أخرى إلى أحضاني وهي تجهش في بكائها وقالت:

- فداكى نفسي يا سيدتي... سامحيني يا أختاه... سأحفظ جميلك في عني ما حييت... وستظلين سيدتي ومالكة أمري لآخر لحظةٍ في حياتي

ربت على ظهرها وأعدتها إلى مجلسها وفعلت ما علمتني إياه أُمي زينب بأن مسحت دموعها الرقيقة بيدٍ حملتها الحنان والمحبة... أحقاً تلك هي يد تلك الأميرة التي ما كان يعينها إلا نفسها؟!... لكم تغيرنا الحياة ولكم تتحول نفوسنا من نفخةٍ من لهيب أنفاس الشيطان إلى دفقةٍ من نور هالات الملائكة.... استعادت شفاء ابتسامتها الرقيقة المرحّة وعاد البريق إلى عينيها الزرقاوين... وشعت ابتسامتها الفاتنة بوجهها من جديد... فسألتها بخبث:

- تقولين أن ذلك القلب الصغير قد اختطف أليس كذلك؟

احمرت وجنتاها وهربت بعينها من عيني التي ضيققتها بابتسامةٍ متسائلة لترد على تساؤلي بخجل:

- بلى يا صاحبة العصمة... ما أتمنى من الحياة إلا نظرةً من

ذلك الذي أسرني بقوته ووسامته وأخلاقه

- أتراني أعرف ذلك الفارس الذي امتلك قلب أختي؟... أتراه  
يستشعر عيناها التي لاحقته وهو يتبع السيد إلى مقدمة الركب  
في طريقنا إلى سنجق الأهوار؟

لم ترد شفاء وإن زادت حمرة وجهها حياءً وزاد ارتباكها...  
فأردفت قائلةً:

- أحبيته يا شفاء؟

نظرت شفاء إلى الأرض ولا زالت ابتسامة الخجل تسكت  
كلماتها ولا زال احمرار خدها يشعل جمالها بنوره الأحمر كحمرة  
الأزهار... رفعت عيناً خجلةً إلى عيناها ثم أومأت برأسها....  
ازدادت ابتسامتي وسألتها:

- حدثيني بما تشعرين به يا شفاء

- لا أدري يا سيدتي... صورته لا تبارح عيناها وصوت كلماته  
ونبراته القوية الهادئة تتردد في أذناي طيلة الوقت... كلما مر طيفٌ  
بقربي تمنيت أن يكون هو... كلما شرد فؤادي وجدته برفقته...  
لا أعلم إن كان يشعر بما أشعر به... ولكن أذكر جفاف حلقي  
واضطراب قلبي حين أوصلني إلى خيمتنا... لا أريد إلا أن أراه...  
ولا أعلم إلا ما سأصل في ذلك... أعلم أنه ما من حق الجارية أن  
تعشق غير سيدها... ولا أعلم إن كان ذلك الفارس الذي امتلك  
شغاف قلبي يشعر بما في نفسي... ولكن ليس لي على قلبي من  
سلطان... لا أجد ذلك المذاق لأي اسمٍ يتردد ذكره على لساني  
إلا اسم حسام الدين... أناجي بليلي آلهة الحب والود أن يهبوني  
النظر إليه ولو لمرة واحدة في يومي... ويعذبني الفكر في أن يكون  
مشغول القلب بغيري... فإن تملكني الشعور بأن هناك من

تستمتع بوجوده بقربها تنهشني ذئاب الغيرة وتمرح أفاعي الحقد  
بصدري...

صمتت شفاء عن كلماتها وقد فطنت أنها تتحدث إلي...  
المسكينة لم تشعر بكلماتها ففتحت قلبها دون رقيب... ارتبكت  
ونظرت إلي لتجد التجهم يرتسم على وجهي وقد ضاقت عيني  
فطنت أنها تجاوزت الحد أمامي... ارتبكت وأردفت وقد بان  
نبرة الحرج في صوتها:

- معذرة يا صاحبة العصمة... لقد جمح لساني في وصف ما  
بداخلي فأسأت الأدب... عفوك مولاتي

- ومن قال لي أنني غاضبة من حديثك يا عزيزة المكانة  
بقلبي... أقسم لي بأرواح الأجداد أنني أشعر بما يعتمل بقلبك  
الصغير... هوني عليكي يا شفاء فلست بغاضبة منك في شيء

- إذأ مالي أرى وجه سيدتي الجميل وقد تجهم وذهبت  
ابتسامتك المشرقة من ثغرك؟

.....-

- سيدتي؟؟

- هاه... ماذا تقولين يا عزيزتي؟

- ما الذي يشغل بال مولاتي؟

- لاشيء... لا شيء يا عزيزتي

- أحقاً لست غاضبة مني؟

- نعم يا شفاء... لست غاضبة... تعالي لننزل إلى صحن

الحرملك فقد اقتربت صلاة غروب الشمس وأرغب في مشاهدة  
أمي زينب وهي تصلي

- أراكي قد أحببتي مشاهدة صلاة المسلمين يا مولاتي

- نعم يا شفاء... لا أدري لذلك سبباً لكني أحببتها كثيراً...  
ينتابني الفضول أن أعلم كل شيء عن هذا الدين... لا أدري ما  
سبب ذلك الفضول ولكنه يدفعني دفعاً لاكتشاف حقيقته وما  
اعتدت أن أكبح جماح فضولي

اصطحبت شفاء ونزلنا إلى صحن الحرملك وعقلي في مكان  
آخر... كنت أفكر في وصفها لمشاعرها تجاه حسام الدين...  
تقول أن حلقها يجف حين تنظر إليه... تقول أن قلبها يضطرب  
ويزداد خفقانه... تقول أنه لا يبارح مخيلتها وأن صوته يدوي في  
أذنيها كلما كان للصمت هيمنته على الأجواء... تقول أنها ترغب  
في رؤيته ولا تدري لتلك الرغبة سبباً يقره العقل... وتقول أن  
هذا هو الحب... الحب؟!!!... أيعقل أن أكون؟.... لا... لا...  
لا يمكن أن يحدث هذا... هذا غير معقول... لن أكون خائنة  
لبلادي وأهلي... لن يكون ذلك ما دمت على قيد الحياة... لن  
يكون.

كنا قد وصلنا إلى صحن الحرملك... وكان صوت الآذان  
يدوي في جنبات القصر... كانت نفسي المضطربة تتوق لسماع  
تلك الكلمات التي هدأت من روعي وخوفي غير أن مشاعر الخوف  
لم تمت وإنما عادت إلى ذلك الركن المظلم بقلبي كأفعى لمحت  
خيال النسر بالسماء... كانت الجواري المسلمات يقمن بالاغتسال  
الذي علمت أنه يدعى الوضوء... تمنيت في قرارة نفسي أن أسمع  
تلك الكلمات التي سحرت فؤادي وأذهبت روع نفسي فقد  
افتقدتها في صلاتي الظهر والعصر كما يسمونها وعندما سألت أمي  
زينب أفهمتني أن الجهر لا يكون إلا في صلوات الفجر والمغرب

كانت الجواري قد اصطفت في صفهن المرصوص كالبنيان  
وقد تقدمتهن أمي زينب ورفعت يدها لتطلق ذلك النداء المهيّب  
العميق:

أنصت السمع والبصر لأسمع الفاتحة من أي زينب لأجد نفسي أتمتم سرّاً دون إرادتي:

ذهلت من تصرفي ووضعت يدي على فمي غير مصدقة لما تفوهت به بيني وبين نفسي... هل جنت؟... لأسمع أمي زينب تقول بصوتها العذب:

143

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ  
نُوفِّي كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنْ أَتَّبَعَ  
رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ  
الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا  
يَعْمَلُونَ (١٦٣)»

..... الله أكبر

كنت كعادي ارتجف بتلك الكلمات... أي كتاب هذا الذي  
تضمنت آياته كل شيء في الحياة... لقد جاوب على تساؤلاتي في  
أسباب الحب الذي يفرض نفسه على كل قلب يتعامل مع هؤلاء  
الناس.... فلو كنت قد قابلت في جنبات ذلك القصر أو قلعة  
الجبيل من كان فظاً غليظ القلب لما كانت مشاعري اضطربت  
وما كانت الحقائق اهتزت بعقلي.... تابعت في صمت ركوع  
وسجود أمي زينب وأنا أتعجل تلك اللحظة التي سأسمع فيها تلك  
الكلمات حتى أنهت الفاتحة مرة أخرى وأمنت الجواري فقالت:

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ  
أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)  
نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي  
أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَّلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)  
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ  
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا  
يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)

..... (الله أكبر)

انتهت أُمي زينب من صلاتها وقد سلمت والجواري من خلفها وأنا لأزلت

واجمة الوجه ولا أشعر بشيءٍ من حولي... ما لهذا الكتاب يدخل بكلماته إلى العقل دون أن تجد لمنطقه ثغرةً واحدة؟... كيف استطاعت تلك اليد التي كتبتَه أن تحتوي الدنيا وحالها بذلك الشكل؟... كانت أنفاسي المنبهرة تفضح ما يعترك بداخلي من مشاعر شتى... انتهت الصلاة فظللت في مكاني لأقوى على أن أتحرّك من مجلسي... لم ينتزعني مما كنت فيه إلا صوت أُمي زينب تقول:

- ليريح الله قلبك الغالي يا ابنتي ويرشدك طريق الصواب

نظرت إليها وشعرت بأنها تقرأ ما بعقلي... احمرت وجنتاي وكأني وقفت عاريةً على قمة تل محاطٍ بنظرات الناظرين... قمت من مجلسي واتجهت إلى شرفة جناحي دون أن أتبادل كلمةً مع أحد... وقفت أنظر إلى لحظات احتضار ضوء الشمس والليل الذي بدأ يزحف بعباءته السوداء المرصعة بالنجوم... أين الحقيقة؟... أين الطريق؟... أشعر بالتيه والضياح... أشعر بالخيانة تلوثني وتدمغي بالعار... أشعر بوجيب قلبي الذي يرفض أن ينسى صورة ذلك المحارب الغامض... أرفض أن أصدق أن صورة أعدائي وقائلي أبي كانت وهمٌ كبير... من هم الوحوش ومن هم الخيرين الطيبين؟... هل آلهة التتار هي الآلهة أم أن إيماني كان لمن لا يملك لي نفعاً أو ضرراً؟... هل دينهم هو الصواب أم ديني الذي يعبد آلهةً وأرواح؟... هل أنا عالية المقام نارين ابنة ميركا؟... أم أنا صاحبة العصمة نارين سيدة سنجق الأهوار؟... أكنت حقاً أسيرة ذلك المحارب أم أنه هو من حررني من هوان وذل أسر الوهم والخديعة؟... نظرت إلى السماء وانحدرت من عيني دمعَةٌ وقلت من أعماق قلبي بتنهيدهٍ حارة:



- إن كنت حقاً الإله الحق.... ساعدني وأرشدني إلى الصواب

\*\*\*

كنت لا زلت مسمرةً بمكاني من هول الصدمة...  
إسرائيل؟!...!! تنظيم الدولة الإسلامية بإسرائيل؟!... شعرت أن  
رشدي بدأ يفلت من عقالي... كان هول المفاجأة ينبئني بانتهاء  
أعصابي... أيقظني سأكون سهلة المنال إلى ذلك الحد؟... لا...  
لا... هذا لن يكون... لن أسمح له بأن يأخذني لإسرائيل... لا...  
لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ بعصبية هائلة في وجهه:

||||| -

- وطنی صوتك يا مرة انت اتجننتي؟

||||||| -

انتفض من مكانه وقام بتطويقي بذراعيه وهو يكتم صراخي  
بيده

- بس يا كافرة يا بنت الكلب ما أسمعش صوتك

عضضت يده بكل ما أوتيت من قوة ليصرخ الوغد أَلماً  
ويفلتني من يده... دفعته في صدره بقوة... انطلقت كالمجانين  
تجاه باب الغرفة وحاولت فتحه لترتطم قبضته الهائلة بمؤخرة  
رأسي... تمالكت نفسي... لا لن أفقد الوعي... ترنحت وأنا أتجه  
لِلنافذة ولا زلت أهذي بصراخ غير مفهوم... أريد الموت... أريد  
أن أموت... عاد الوغد ليطوقني من ظهري ويسد في يده...  
حاولت عضه من جديد... لأشعر بذلك الألم الحارق بعنقي...  
كان الحقير يغرس سن محقناً طبياً بوريد عنقي.... شعرت بأن  
الموجودات تدور أمام عيني... سحب المحقن من عنقي

وأفلتني لأترنج... وعيي يتسرب من عقلي... لن أفقد الوعي... لن أفقد الوعي... لن....

أظلمت الدنيا من حولي... ظلاماً بكمراً ثقيلاً ليس كأبي ظلامٍ من أي نوع... هل هو الموت؟... لا... لم أمت... أدرك أبعاد جسدي... أدرك ألم عنقي... أدرك فقدان نأديه وشرفي ووطني.... كانت الظلمة حولي كالأمواج السوداء الثقيلة في ليلةٍ خاصمها القمر والنجوم.... حين سمعت من يناديني:

- ديمة... ديمة... ديمة

- مين؟

- لا تخافي يا عمري لا تخافي

هذا صوت أبي... أين هي؟

- يا مو... محتاجتلك كثير... لوين رحتي يا مو؟

- لا تخافي حبيبتي الله بكون معاك... لا تخافي ولا تضعفي يا ديمة... لا تضعفي حبيبتي

- ما عاد فيني اتحمل يا مو... ما عاد فيني اتحمل

- لا حبيبتي لازم تتحملي... لازم تنتقمي لشرفك وشرف بيك ولنأديه صديقتك

- وينك يا مو بدي تضميني؟... خايفة كثير... هللا هايدول الأنجاس بدهم ياني روح معهم عا إسرائيل... قال بيقولو إنهم أصدقاءهم... كيف بدهم يروحوا إسرائيل؟... وقال يسمون أنفسهم مسلمين ومجاهدين

- هايدول مانهم مسلمين والإسلام منهم بريء... ديمة لا تضعفي ولا تنكسري... خدي تارنا يا ديمة... بنتي لازم تاخدي تارك... تارك يا ديمة... تارك يا ديمة... ديمة..... ديمة... دي....

كان صوت أمي يبتعد وكأنها تغرق بين أمواج الظلام الكثيف... بحثت عنها كالمجنونة... تلفتت في كل مكان صارخة:

- لا تركيني يا مو... لا تركيني هون... خديني وياكي يا مو...  
يا مو

كان الظلام ينقشع تدريجياً... كانت جفوني ثقيلة كأنها تزن أطناناً... حاولت فتحها لأشعر بضوء مسلط على عيني... عاودت إغلاقها من جديد... بدأت أستشعر بضربات خفيفة على وجهي... عاودت محاولة فتح عينايا لأجد صورة مهزوزة... سمعت كلاماً بلغة غريبة بنبرات مقبضة... لغة تشبه اللغة العربية في مخارجها وصوتياتها... لغة درستها في سنوات تعليمي الجامعي... سمعت من يتحدث حولي... بالعبرية...

مر يومان وأنا مكبلّة بذلك الفراش الطبي ولا أرى إلا تلك الشابة الشقراء ذات الأظافر الطويلة المصبوغة باللون الأحمر كمخالب مصاصي الدماء ووجهها قاسي الملامح... كنت قد أفقت من غيبوبتي المصطنعه وعلمت أن ذلك الوغد كان قد زور أوراقاً لي باسم راشيل بنيامين وزور شهادة وفاة لي... بعد أن حقنني بذلك العقار الذي يجعل الجسد يتخشب والنبض يضعف والتنفس يقل دون أن أموت... قام الحقير بوضعي بداخل تابوت مجهز بثقوب تسمح للهواء أن يدخل إلي حتى لا أختنق وشحنني كالبضائع بطائرته التي استقلها من مطار غازي عنتاب بتركيا في رحلة طيران العال المتجهة إلى مطار بن غوريون بتل أبيب... كان صديقهم ذلك اليهودي الذي حصل على ثمن الأسلحة والذخائر وثيقة تاريخية غامضة كانت ضمن

الوثائق المحفوظة بمتحف الرقة في انتظار عبدالرحمن الذي كان يحمل جواز سفر باسم كوهين بنيامين... مسافرٍ إسرائيلي سافر مع زوجته الشابة إلى تركيا للسياحة والتي ماتت أثناء قيامهم بالتزدهن نتيجة سقوطها من أعلى تلة صخرية فتحطم قلب زوجها وقرر حمل جثمانها ليدفن في بلدها إسرائيل.... علمت ذلك من الممرضة التي كانت تعتني بي في ذلك المنزل الريفى بمدينة أشكيلون (عسقلان)... كان المنزل يخص ذلك الرجل اليهودى المدعو بنحاس.... كانت تلك الممرضة التي علمت أن اسمها تينا هي صديقة ذلك البنحاس.... كانت تعاملني تماماً كما تعامل فئران التجارب... ولم تكن لتحكي لي عن أي شيء لولا إعجابها بإجادتي للغة العبرية التي درستها وتفوقت فيها... غير ذلك كانت مهمتها تقتصر على تغذيتي والاعتناء بي طبياً حتى أتعافى من تأثير العقار الغريب... طوال اليومان لم أرى ذلك الداعشي القذر أو اليهودى المريب ولم أسأل عنهما... وفي صباح اليوم الثالث بعد أن أطعمني تلك الممرضة وجبة الإفطار فتح الباب ليدخل ذلك اليهودى ليقول بالإنجليزية:

- مساء الخير يا صديقتى العزيزة

نظرت له بازدراء وأجبتة بالعبرية:

- ماذا تريد منى الآن؟

شاهدت الدهشة ترتسم على قسماى وجهه الخبيث لكنه تمالك دهشته وابتسم بلزوجة وقد قرر استكمال الحديث معى بلغته قائلاً:

- نريدك أن تتعافى سريعاً فنحن بحاجةٍ إلى خبرتك مع وثيقتنا

- أوتظننى سأعاون معك مجدداً؟

نظر لي تلك النظرة التي يجيدها بني جنسهم لنا نحن معشر العرب وقال بنبرةٍ ودودة:

- كغيرك من العرب لازلتُم تعتقدون أنكم تملكون القرار في تعاملاتكم معنا... لا يهم... المهم أنكم تنسون شيئاً مهماً للغاية... أن واقعكم المذري لا يعطيكم حق الرفض في تقديم المساعدة... عندما أقول أنك ستعاونيني في أمرٍ ما فاعلمي أنني أتحدث بثقةٍ كاملة يا سيدتي

- ولماذا تعتقد أنني سأقبل؟

ابتسم تلك الابتسامة الساخرة ونظر إلى تينا التي توجهت إلى ركن الغرفة وفتحت خزانةً جدارية وأخرجت جهاز لاب توب وأحضرتَه إليه ثم وقفت إلى جانبه... قام بنحاس بإخراج شريحة صغيرة قام بإدخالها إلى داخل الجهاز وأخذ يعمل على المفاتيح قليلاً ثم أدار شاشة الجهاز ناحيتي لتحتاج جسدي ارتعاشة الخوف... فعلى الشاشة شاهدت منزلنا بالرقّة... كان أبي يجلس على المصطبة الخارجية كعادته وقد كست وجهه ملامح الحزن والهم والانكسار لتستدير الكاميرا بطريقةٍ بانورامية لأشاهد تلك السيارة السوداء الواقفة على بعد أمتارٍ من منزلنا وأسمع صوت ذلك اليهودي يقول:

- عزيزتي كما ترين فهذا منزلك المتواضع بالرقّة... ولا أعتقد أن ذكاًؤك لم يتوصل أن تلك السيارة بريئة المظهر ما هي إلا قبلةً شديدة الانفجار... العرض ببساطة كالتالي... ستقررين الآن... وحسب قرارك سيتحدد مصير عائلتك الصغيرة... معلوماتنا تؤكد أن البيت الآن بداخله أمك وأختك ديالاً... ديالاً الصغيرة التي لم تتجاوز الستة عشر عاماً على ما أعتقد... بضغطةٍ واحدة على زر الإدخال في جهازي سيقوم قائد السيارة بالقيادة وسيترك السيارة أمام المنزل وينزل منها لتنفجر بعد دقيقةٍ واحدة من تركه لها...

سأخبرك بسر صغير... القنبلة مصممة لتطلق موجتها الانفجارية في اتجاه منزلکم مباشرة... الآن القرار قرارك يا صديقتي.

كنت في تلك اللحظة أرتجف من شعر رأسي حتى أخمص قدماي... الوغد الحقير أجاد لعبته... إما أن أتعاون مع أعداء بلادي الذين اقتطعوا الجولان الأسيرة من كبد سوريا وإما أن أخسر كل عائلتي بضغطة زر... لا... هذا لن يكون... لن أسمح له بقتل أسرتي... كانت دموع القهر والخوف بدأت تسيل من عيناى.... قلت له بصوتي المرتعش:

- ما الذي يضمن لي أنكم لن تقتلوهم إن وافقت على التعاون معكم؟

- لا ضمانات... لكن لتطمئني فليس لي مصلحة في قتلهم... ما هي إلا وسيلة إقناع قوية كما ترين

- سأفعل أي شيء... ولكن دع أسرتي وشأنها... أتوسل إليك

ابتسم الحقير ابتسامة الظفر... انتصر الشيطان في معركة الإرادة.... لهذا كان الكلب النجس الداعشي يرغب في أن أبقى معه... أي إسلام وأي دين هذا الذي يأمره أن يستغل النساء والأبرياء لتحقيق أهدافه وأهداف تنظيمه النجس؟... وأي دين يدعوه لقتل أبناء دينه والتعاون مع أعدائه؟... أشار بنحاس لتينا لتأخذ الجهاز برفق من يده لتضعه على منضدة قريبة وقد وضعت إصبعها ذو الظفر الأحمر على زر الإدخال دون الضغط عليه في رسالة لا تحتاج إلى ترجمة.... قام اليهودي النجس بإخراج الوثيقة من داخل معطفه ليسألني بهدوء:

- الآن... نريد أن نعلم ما هي معلوماتك حول تلك الوثيقة يا عزيزتي؟

ابتلعت ريقى الذي جف وأجبتة بصوتٍ مرتعش:

- وثيقة التحالف بين أحبار يهود أورشليم والأمير روبرت دوق  
ليستر قائد أعلى فرسان المعبد في الحملة الصليبية الثالثة... كان  
الاتفاق ينص على أن يقوم اليهود الذين أعادهم الملك الناصر  
صلاح الدين الأيوبي إلى القدس إثر استرجاعها بعد معركة حطين  
بالتعاون مع قادة الحملة على أن يقوم فرسان المعبد بإعادة بناء  
الهيكل السلیماني وأن يتكفلوا بالبحث عن كتاب تحوت المعظم  
ثلاثاً... أسطورة قديمة تتحدث عن كتاب يحتوي على علوم  
الجان التي دفنوها تحت كرسي العرش للملك النبي سليمان عليه  
السلام على أن يسلموا الكتاب للأحبار ليترجموا نصوصه ويعلموا  
أسراره لفرسان المعبد... وفي مقابل ذلك سيكون لليهود حكم  
مملكة إسرائيل التي وعدهم بها فرسان المعبد من شرق النيل  
وحتى غرب الفرات وسيكون للفرسان دعم اليهود المالي الكامل  
للسيطرة على أوروبا بأكملها... إلا أن الفرسان قد استعجلوا  
سير المعارك فقتلوا رسل الملك ريتشارد للملك صلاح الدين  
الأيوبي... وافتضح أمرهم وطرد معظمهم من الحملة مما أضعف  
قوتهم... وفشلت الحملة في استرداد القدس... الوثيقة مشكوكٌ  
في صحتها فكل الأدلة تؤكد على أن كتاب تحوت المعظم ثلاثاً  
ليس له وجود وأنه مجرد أسطورة إلا أن الاتفاق السياسي هو ما  
كان يعد دليلاً دامغاً على شيئين في غاية الأهمية... أولاً خيانة  
اليهود للملك الناصر صلاح الدين الذي أمنهم على حياتهم  
ودينهم وثانياً اعتراف أحبار اليهود بأهم مبدأ جاء بالبروتوكولات  
الخاصة بحكماء صهيون وهو اعتبار حدود دولة إسرائيل من  
النيل إلى الفرات... وهو ما يعد اعترافاً ضمناً بالبروتوكولات الأربع  
والعشرون التي بذلت إسرائيل أقصى ما في وسعها لإنكار صحتها  
وتأكيد أن البروتوكولات ملفقة وملصقة ظلماً وعدواناً بإسرائيل  
والحركة الصهيونية العالمية... إلا أن هناك أمراً مربياً وهو قيام

جماعةً من المغاربة بافتعال الشغب بمصر أثناء المعارك التي قامت بين الناصر صلاح الدين وبين جيوش الحملة الصليبية لولا تصدي الأمير عز الدين مؤسك لهم والقضاء عليهم... وقد نوهت الوثيقة إلى تحريض اليهود المغاربة على أعمال الشغب لشغل السلطان عن المعارك وإضعاف جبهته الداخلية

أنهيت كلامي ولا زلت أرتعش خوفاً على مصير أسرتي المهددة بضغطة الزر من تلك الشقراء الإسرائيلية التي لازالت تضع سبابتها على زر الإدخال... نظرت إلى بنحاس وأنا أحاول أن أسيطر على تلك الرجفة التي كانت تتملكني لأسمعه يقول:

- يبدو أنك قرأت تلك الوثيقة جيداً يا عزيزتي وهو ما يدعوني لأن أعرف الآن عدد الأشخاص الذين علموا بحقيقة ما جاء بتلك الوثيقة

- لم يسمح لأحد غيري بالاضطلاع على نص تلك الوثيقة... لم يكن بالمتحف غيري يجيد القراءة باللغة العبرية... ولم أخبر أحداً بمحتواها سوى السيد مدير المتحف... كل ما أعرفه أنه قام بإحراق الترجمة وقام بإخفاء الوثيقة تحت رقم المسلسل الذي قلته لك يوم سألتني عنها... لهذا كنت أحفظه عن ظهر قلب.... كما أنه جعلني أقسم على كتاب الله ألا أبوح بمحتواها لأي شخص أياً كان... ولم أحنث بقسمي إلا الآن لأنني أعرف أنك تعرف محتواها بالفعل

ابتسم بنحاس تلك الابتسامة المقيته وأشار إلى تينا لترفع إصبعها ذو الظفر المصبوغ عن الجهاز وتحمله وتأتيه به ليقوم بالعمل على لوحة المفاتيح للحظات وأنا أرتجف هلعاً ليدير شاشة الجهاز إلي مرة أخرى لأرى السيارة تتحرك مبتعدة عن منزلنا... تنفست الصعداء ولازالت أوصالي ترتعد في رعب لأرى اليهودي يعطي الجهاز لتينا من جديد ويقوم بإخراج هاتفاً



محمولاً ويتصل برقمٍ ما ثم ينهض للتحدث فيه بصوتٍ منخفض كنت أنظر إليه والخوف يعتصر قلبي... ها أنا الفتاة السورية التي نشأت ببيتٍ من بيوت أحد المحاربين القدماء في حرب أكتوبر ١٩٧٣م حيث كان أبي ضابطاً بالجبهة السورية تضع يدها بيد أعدائها وتطلعهم على سرٍّ من أهم الأسرار التي اضطلعت عليها أثناء عملها بالمتحف... كان ما يطمئني أنني كنت مضطرةً لذلك لإنقاذ عائلتي... كما أنهم في كل الأحوال قد حصلوا على الوثيقة... فالحقيقة أنني لم أفشي سرها لهم... لكن لماذا يريدون أن يعرفوا بمدى علمي بفحوى الوثيقة ولماذا يريدون معرفة الأشخاص المطلعين على ما فيها؟... كان بنحاس قد أنهى مكالمته الهاتفية وقد عاد للجلوس على كرسيه إلى جوارِي وقال:

- لا أخفيك سرّاً يا عزيزتي فليس من مصلحة دولة إسرائيل أن تتسرب تلك المعلومات عن تلك الوثيقة لأي سببٍ من الأسباب ولذا يجب أن أسألك بعض الأسئلة المهمة

لم أجد ما أرد به على كلماته فاكتفيت بهز رأسي والخوف يقتلني... فسمعتَه يردف:

- الآن... أريد أن أعرف إن كان هناك أية نسخ لتلك الوثيقة في المتحف أو أي مكانٍ آخر؟

- كل ما أعرفه أن لوائح المتحف تمنع منعاً باتاً أي نسخ أو تصوير لأيٍّ من الوثائق التي تحمل الكود الخاص بالوثائق السرية ٢٣... لكن لا أعلم إن كان هناك أي نسخٍ منها خارج المتحف... ولكني لا أعتقد ذلك

- هل أنت متأكدة من ذلك؟

- أنا متأكدة مما يتعلق بلوائح وقوانين المتحف ولكني لست

متأكدةً مما إذا كانت توجد نسخاً أخرى في مكانٍ آخر

- سأقدم لك خدمةً كبيرة يا سيدتي... بحسب التعليمات التي لدي كان يجب أن تكوني من عداد الأموات الآن

قالها الوغد ليجعلني أتوقع الرصاصة التي ستنتهي حياتي فوراً ولكنني سمعته يتابع:

- لكنني وكنوع من أنواع الاعتراف بالجميل سأمنحك حياتك مع الشيخ أبو عبّدة... من الواضح أنه يحبك بحق... لقد توسل إلي كثيراً حتى لا يمسك سوء وأنت بضيافتنا... عموماً فالخليفة أبو بكر البغدادي من أصدقائنا ويعد من أقوى حلفاء إسرائيل... وبالتالي فرجاله هم رجالنا ولهم منا كل الرعاية لهم.... ولمن يحبونهم

قال كلمته الأخيرة لترتسم ابتسامته المقيتة على شفثيه وينهض ليتركني مع تلك الشقراء الشيطانية تينا..... تركني لحيرتي وارتجافتي التي لم أستطع أن أسيطر عليها.



## الفصل التاسع

# التحول

كنت لا زلت غارقةً في نجواي لذلك الإله الغامض الذي زعزعت كلمات كتابه كل ثوابت حياتي.... ذلك الإله الذي يهب القوة لمن يتواضع أمامه فيمرغ وجهه بالتراب.... ذلك الإله الذي وضع سحر المحبة في قلوب أتباع دينه باللين والرحمة وإكرام الضعيف قليل الحيلة الذي لا حول له ولا قوة أمامهم وهم من بيدهم القوة.... ذلك الدين الذي يجعل الرجل يعامل النساء كما عاملني ذلك الأمير الغامض الذي أعلن سلطانه على قصر الأهوار وعلى أسيرة قصر الأهوار... بل حول الأسيرة المملوكة ليمينه ابنة أعدائه الذين انكسرت شوكتهم وهيبتهم في قلوب الناس إلى سيدة مكرمةً صاحبة عصمة.... يا أيها الإله الذي يتبعه المسلمون إن كنت حقاً الإله المستوجب اتباعه فأضرع إليك بحق حولك وقوتك أن تهديني للحقيقة... يا أيها الإله الذي أمرت أتباعك أن يكون رجالهم رجالاً بحق وأن تكون نسائهم ينابيع رحمةً ومحبةً ورقة... إن كان وجودك حق فاطهر لي حقيقة هذا الوجود... دعوت آلهتي فما أجابتنى... رجوت أرواح الأجداد المباركة فما حققت رجائي... أين الحقيقة أيها الإله؟... أين الحقيقة؟.

كنت قد تركت لدموعي العنان... كان جسدي يرتجف وما كنت أشعر إلا بنسماتٍ هبت لتداعب وجهي المبتل بدموع الحيرة والخوف من المجهول... لم أسمع صوت تنهداتي وأهاتي التي أخذت تتعالى... ينازعني ألم الاحتراق بلهيب الخيانة لبلدٍ

هي بلدي ولقوم هم أهلي ولملك كنت أدعوه خاقان الأرض  
والعالم... ولهفة لقيا فارساً من فرسان أعدائي أذل مقامي بأغلال  
الأسر فصرت ملك يمينه وأعلى من شأني حتى وجدتي سيدة  
قصره وصاحبة العصمة من نسائه... وحيرة حقيقة حياتي  
ومعتقداتي ومقدساتي التي صارت شاحبة كشحوب الموتى... كان  
الصراع يحتدم بداخلي متوازياً على كل الأصعدة... على صعيد  
الولاء والاعتقاد والمشاعر... كنت قد قاربت مشارف الجنون ولا  
زلت أتمسك بلجام العقل والمنطق... كنت أحتاج لمن يمسك  
يدي بيد ويضيء لي الطريق بضياء المعرفة باليد الأخرى... وكنت  
أطلبه من ذلك الإله عله يجيبني.

- من تجراً على أن يجعل دموع سيدة القصر وصاحبة  
العصمة تجري على وجنتيها؟... أقسم بالله ذو الجلال والإكرام  
أن يعاقب أشد العقاب

كدت أفقد الوعي من صدمة المفاجئة لأنتفض ناظرةً إلى  
المتحدث لأجده أمامي... عيناه الحادتان السوداوان تطلق أشعتها  
في عيناى ولا شيء سواها... قسماى وجهه الهادئة المطمئنة...  
كان هو... هو من كنت أنتظر... كان فارس الدين كرك خورشيد  
واقفاً على باب الشرفة وهو ينتظر أن أجيبه... كانت صدمة  
المفاجأة لازالت تقيد لساني ولازالت أنفاسى المنبهة لم تهدأ  
بعد... فقال الأمير:

- أعذر عن دخولى دون استئذان... فقد طلبت من آغا  
الجنح أن يستأذن لى بالدخول... ولولا أنه أبلغنى بأنك بتلك  
الحالة لما سمحت لنفسى بالدخول عليكى دون استئذان... لم  
أقصد مفاجأتك بحضورى وإن كنت قد قطعت لحظة خلوتك  
بنفسك فعذرى أنى خشيت أن يكون قد أصابك مكروه... أعذر  
لكى

رأيته يستدير وقد ظهر الحرج على وجهه ليشعل رأسي  
بالجنون فقلت بصوتٍ خرج مني حاداً رغماً عني:

- أي استئذانٍ تتحدث عنه في الدخول على جاريةٍ ملكتها  
بحد سيفك؟... أي اعتذارٍ لجاريةٍ ملك يمينك؟... لماذا تصر على  
إثارة جنوني بتعظيمك من شأن أسيرةٍ وهبها لك سلطانك؟...  
لماذا؟... لماذا؟

كنت أنتفض من الغضب والكلمات تندفع من فمي حارقةً  
كالسهام النارية كانت قسمت وجهي متجهمةً والجنون ينطلق  
من نظراتي لوجهه الذي أداره لي وأنا أتحدث إليه... نظرت إليه  
وقد هدأ انفجاري من توتري وبدأت أنفاسي تهدأ وكأنني وضعت  
عن عاتقي حملاً ثقيلاً... كنت أنتظر ثورة الغضب من الأمير...  
كنت أنتظر أن يؤدبني كما تؤدب الجارية لسوء أدبها... كنت  
أنتظر أي شيء إلا ما فعله هذا الرجل... استدار الأمير لمواجهتي  
من جديد... تقدم بقامته المهيبة مني ببطء... كانت الرهبة  
تسيطر على جسدي وأوصالي حتى توقف أمامي ليلمس بيده  
اليمنى يدي اليسرى برفق ويهمس بصوته العميق وعيناه مركزان  
بعيناي:

- تعالي

ضربت تلك القشعريرة الغامضة جسدي من شعر رأسي حتى  
أخمص قدمي حين لامست كفه القوية كفي بتلك الرقة... سار  
وسرت إلى جواره كالمسحورة وعيناي لا تستجيبان لإرادتي بأن  
تباعد عن وجهه... ماذا حدث لي؟... لقد سلبنى ذلك الفارس  
إرادتي وسيطرتي على نفسي... سرت معه ولم أشعر إلا بوجيب  
نبض قلبي الذي ارتفع ووجهي الذي اشتعل بالاحمرار وتلك  
السخونة بأذناي... كان حلقي جافاً كالصخر وعيناي لا تبصران  
إلى وجه الأمير... ماذا دهأك يا نارين؟.... لماذا أشعر بتلك

الفرحة؟... لماذا أرغب في أن تتوقف الأفلاك عن الدوران... لماذا أرغب أن تختفي الموجودات فلا أجد إلا وجه الأمير أمامي؟... كنت قد تركت كفي في أحضان كفه الدافئ وقد تشبثت بها كالغريق حين يتشبث بجذع طافي... لم أفطن لذلك إلا حين قامت كفه اليسرى بالتربيت على كفي المتشبثة بكفه أثناء سيره دون أن ينظر إلي... لم أشعر بنفسي إلا في قاعة المكتبة وهو يتوقف ليواجهني بجسمه الفارع ورأسي أمام صدره... صدره الذي كان يجذبني للارتقاء بداخله دون إرادةٍ مني لكنني لم أفعل... رفعت بصري لأجد عيناه تستقبلان عيناى لأنسى من أنا كما يحدث لي حين ينظر إليهما... ومن وسط الحلم سمعت صوته العميق يقول بنبراته الهادئة:

- عذرك سيدتي... فلأمانة التي حملها السلطان لي مسؤولياتها التي شغلتنى عنكي

لم أجد الكلمات التي أرد بها عليه وكأنني نسيت الكلام فتركت عيناى تسبحان بعيناه العميقتان... لأسمع صوته من جديد ليقول:

- تفضلي بالجلوس يا صاحبة العصمة

جلست على كرسي من الخشب رصت عليه الوسائد الناعمة ليجلس الأمير على كرسيه الذي كان يقابلني... كنت لا زلت أنظر إلى عيناه وقد تبين لي أن كفي لازالت ممسكةً بكفه... ازداد احمرار وجهي وأنا أسحب كفي برفق من كف الأمير لأرى ابتسامته الهادئة تضيء ثغره وعيناه ليقول بهدوئه:

- ما الذي يحير قلب زهرة الشرق صاحبة العصمة؟

اتسعت عيناى وانفجرت شفتاي دهشةً حين سمعته يلقبني

بذلك اللقب الذي سمعته أول مرة من أمي زينب بجناحها وهي  
تقرأ لي من كلمات كتاب القرآن... لأسمع فارس الدين يردف:

- لم أجد لقباً يليق بجمال سيدتي غير زهرة الشرق... أرجو  
أن ينول إعجاب صاحبة العصمة

كنت في تلك اللحظة غارقةً في عيناها التي أسرتني... ومن لجة  
عيناها تمتمت قائلةً:

- الحيرة تغرقني بين أمواجهها أيها المحارب

- وقد ألقى المحارب سيفه ودرعه تحت قدميك يا زهرة  
الشرق تلبيةً لندائك

- أي أسيرةٍ تحظى بتلك المكانة؟

- وأين تلك الأسيرة يا زهرة الشرق؟

- ومن أكون إن لم أكن أسيرة؟

- بحق كتاب الله ما أنت إلا سيدهً لهذا القصر... أقسم أنك  
ما كنتي يوماً لي أسيرةً أو جارية مذ أكرمني الله بهبة الملك الظاهر

- تقول أنني ما كنت جاريةً لك يوماً؟

- وأعني ما أقول

- إذاً فماذا أكون لك؟

صمت الأمير وقد أبحر بعيناها في عيناها... طالت نظرتة  
بعيني حتى نسيت من أكون... لأسمع صوته يقول:

- ماذا تعرفين عن الأحلام يا زهرة الشرق؟



فاجأني سؤال الأمير الذي لم يكن بالحسبان... فأجبت  
والارتباك يغزو صوتي:

- الأحلام؟... أتعني ما يراه النائم؟

- بل أعني ما يتمناه المرء ويبحث عنه بكل كيانه ويرجو الله  
مخلصاً أن يهبه له؟

- وما شأن ذلك بما نتناقش بصدده؟

- بل هو صلب ما نتحدث عنه

- ماذا تريد أن تقول أيها المحارب؟

- لماذا تناديني بالمحارب؟

- ألا تريد إجابة سؤالي؟

- بل يقتلني الخوف ألا أكون بنظرك أكثر من محارب

اعترتني الدهشة العارمة لإجابته الغير متوقعة...  
الخوف؟!!!... أي خوفٍ يعتمل بقلب ذلك الأمير وقد رأيت  
بعيني بأس حسامه في ميدان الوغى وشاهدت صلابته أمام  
الموت المحقق به؟!!!... أي خوفٍ يدق أسوار ذلك القلب  
الذي تشكل شغافه تحت ظلال السيوف وفي معسكرات تدريب  
المقاتلين؟!!!... أي خوفٍ يقلق تلك العينان الرهيبتان التي تقيد  
إرادتي وتروض كياني كالفرس المستكين لفارس محنك؟!!!...  
حاولت ابتلاع ريقِي الذي جف وسألته وأنا لا أصدق ما سمعت:

- يقتلك الـ... الخوف؟!!!

- ومالي أرى الدهشة بعينيكي يا زهرة الشرق؟

- وهل للخوف سبيلاً لقلبك؟

- ما كان له يوماً أن يجرؤ على الاقتراب من أسوار قلبي حتى تلك اللحظة وحر نار معركة بيسان يستعر

- أية لحظة؟

نظر الأمير إلى عيناى لبرهة ثم نهض وسار حتى وقف أمام  
أرفف الكتب بالحائط المواجه وقال:

- لحظة أن سقطت الخوذة ليشرق نورك يا زهرة الشرق

اندفعت الدماء الحارة إلى وجنتاي حتى احمررا كالجمر  
وشعرت بدقات قلبي ترتفع كأصوات طبول المعركة... كانت  
القشعريرة الغامضة تزحف على فقرات ظهري... انعقد لساني  
بثغري فلم أجد لرد الكلام سبيلاً وتعلقت عيناى بالامير الذي  
استدار ليواجهني بعيناه الآسرتان... كنت كالمسحورة التي  
فقدت التحكم بجسدها... وجدتني أنهض من مكاني لأسير في  
اتجاه الأمير حتى وقفت أمامه وعيناى لازالت متعلقةً بعيناه...  
كنت أبحث داخلهما عن تلك اللحظة فرأيت وجهه الذي غبرته  
أثرية المعركة وسيفه المشرع ليحز عنقي ينزل إلى جواره وصوته  
القوي يدوي بأذني (عصمني الله أن اقتل امرأةً بسيفي)... عدت  
من تلك اللحظة التي رأيت ذكراها بعينا الأمير لأشعر بيده  
تلامس كف يدي ليرتجف جسدي بتلك الرجفة التي اعتدتها  
كلما كنت بحضرة الأمير... رفع الأمير كفي حتى لامس شفتيه  
وشعرت بشفتيه تقبل يدي... كانت لحظة شعرت فيها بأنني  
حلقت لأخترق السحب السابحة في السماء لأرى العالم يختفي  
ولا يبقى منه إلا ملمس شفتا الأمير على ظهر كفي الذي لازال  
يعانق كف يده... فتحت عيناى لأرى عيناه العميقتان تحتضن  
عيناى لأسمع صوته العميق يقول:

- لم يخلق ذلك السلطان الذي يفوق سلطان الهوى يا زهرة الشرق... منذ أن حملتك بين ذراعي في ميدان المعركة وهرعت بك إلى صفوف جيشنا الخلفية وأنت فاقدةً للوعي وحتى لحظة إعلان السلطان أنك صرت ملك يميني ولم يتوقف لساني للحظة عن الدعاء لله العلي القدير أن يجمعنا من جديد... عاهدت الله ألا يمسك سوء في كنفي وألا تذلي وألا تكوني أقل من سيدة بقصري... عاهدت الله أن أجعل من قلبي وروحي مملكةً لعرشك المجيد بفؤادي الذي ما انفتحت أبواب سور مدينته لمن سواكي يا سيدة أحلامي ونور قلبي

كانت الدنيا تدور من حولي وقلبي يعزف إيقاعاته الصاخبة بأذني... كنت أسمع كلمات الأمير وتزداد موجات القشعريرة زحفاً على ظهري ضاربةً لثباتي وتعقلي... مرت لحظات وأنا أهوى في أعماق عيني الأمير... كانت الموجودات تختفي فلا يبقى إلا ذلك الفارس الذي امتلكني واحتل كياني... لم أشعر بنفسي إلا وأنا أسأله بهمس:

- من أنت؟

- أنا من أسرته بعيناك يا مولاتي

قالها فلم أشعر بنفسي إلا بين ذراعيه ورأسي مدفوناً في صدره... دارت الدنيا وتوقفت الكواكب في مداراتها وما عاد في الكون من حقيقة إلا أنني أحب فارس الدين... نعم أحبه... أحبه بكل كياني وجوارحي... أحبه حتى نهاية حدود السماوات السبع... أحبه ولا أريد إلا أن أبقى بين ذراعيه القويتين... شعرت بالأمان يغمر كياني ونفسي... شعرت بالدفئ يسري بين جنبات قلبي... رأيت الكون يشرق بنور عشقي لذلك الفارس الذي جاء من أرض الفردوس ليخرجني من غيابات الأحزان لضياء العشق الذي امتلك روحي ودمجها في روحه... ظللت في أحضانه حتى

شعرت به يخرجني برفق لينظر إلى عيناى لأرى حناناً غمرني  
فما شعرت بشيءٍ إلا بأننى أريد أن أحيأ وأموت بداخل أحضانه  
الحانية عاد الأمير ليمسك بيدي ويصطحبني لأجلس إلى جواره  
ليطوقني بذراعه لأدفن رأسى فى صدره من جديد... ظللت أستمع  
لدقات قلبه حتى سمعت صوته الأثير يقول:

- أءعو الله يا حبيبة الفؤاد أن يجعل أيامك كلها سعادةً  
وفرحة... وأرجو أن يعاونى الله حتى أءقق لك كل أحلامك

رفعت رأسى إليه ونظرت لعيناه لأهمس له قائلة:

- أءعلم ماذا أريد؟

- أمرك مطاع يا سيدة القلب

- أريد أن أسمع الكلمات

- الكلمات؟

- نعم... تلك الكلمات التى ترددھا أى زينب من كتابكم  
المقدس

نظر الأمير طويلاً إلى عيناى وقال:

- أءحبين الاستماع إلى القرآن الكريم؟

- نعم يا مولاي... أرتاح لسماع تلك الكلمات... أءوق لمعرفة  
الحقيقة... أين الحقيقة يا أميرى؟

نظر لى الأمير صامتاً... ثم قام من جانبى وتوجه إلى تلك  
الطاولة الموجودة بصدر القاعة وأحضر ذلك الكتاب الضخم  
وجاء به وجلس أمامى ونظر إلى عيناى مجدداً وقال:

- اسمعي يا زهرة الشرق كلمات كتاب الله -

ثم نظر إلى سطور الكتاب وبدأ في التلاوة.... مر الوقت وتلك الكلمات تزلزلي وتهز كياني... كنت أرتجف مع آيات الكتاب الذي ما سمعت أبلغ من بيانه ولا أحكم من بنيانه حتى قال الأمير:

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

كانت كل خليةً بجسدي تنتفض وقد ازداد ارتعاش جسدي حتى لاحظ الأمير اهتزازي ورأى دموعي التي سالت من عيني كالمنهمر دون أن أشعر بها... كانت رهبة كلمات تلك الآية قد سيطرت على قلبي وروحي حتى ما عدت أستطيع كبح جماح خوفي وخشيتي من ذلك الإله الذي لا تغفل عيناه عن عباده... يراهم ويعلم كل ما حدث وما يحدث وما سيحدث ولا نحيط بعلمه إلا بما قدره لنا من علم... ارتعب قلبي وهو يتصور ذلك الكرسي الذي وسع السماوات والأرض بما فيها وعليها... لم يتوقف ارتعاشي إلا وأنا أشعر بيد حبيبي وهي تربت على كتفي وأرى عيناه تعانق عيني... هالني أن أرى دمع عيناه المترقق... حتى سمعت صوته العميق الحاني يهمس قائلاً:

- هديني من روعك يا حبيبتي... فالله هو الغفور الرحيم الهادي إلى الصراط المستقيم... أضرع إليه أن يضيء قلبك الغالي بنور الإسلام

كنت قد تماكنت نفسي أمام رفته وحنانه الذي غمرني فيه فتمتعت من وسط دموعي المنهمرة:

- من إلهكم؟... من هذا الذي كتب ذلك الكتاب العظيم؟...  
ما حقيقته؟

- هو ربي وربك ورب العالمين وخالق الخلق العزيز الجبار...  
هو الله... رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما... هو الذي رفع  
السموات بلا عمد ويسبح الرعد بحمده ويمسك بزمام الكون  
بيديه.... ربي هو الله وديني هو الإسلام لوجه الله بأن أعبد الله  
الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له ولا أشرك بعبادته أحدا  
مخلصاً له الدين ولو كره الكافرون... هو الذي ينزل الماء من  
المزن فيحيي به الأرض الميتة ويخرج لنا من الطيبات رزقاً لنا  
ولأنعامنا

كنت أستمع إلى كلمات فارس الدين وأنا أتخيل ذلك الإله  
العظيم الذي يصفه... كانت لهفتي تزداد لمعرفة كل شيء عن  
ذلك الإله المطلق الواحد الذي لا يشاركه في ألوهيته آلهة  
وأرواحاً كما في ديني..... فقلت للأمير والرهبنة تخنق صوتي:  
- أريد أن أراه

- إن ربي لا تدركه الأبصار ولا تراه الأعين ولا يعرفه إلا عباده  
المخلصون الذين يضيئ نور الإيمان بصرهم وبصيرتهم ويتبعون  
الهدى المنزل على قلب سيد ابن آدم محمداً رسول الله وخاتم  
الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم

- حدثني عن دينك يا أميري... أشبع فضولي الذي التهب  
منذ سمعت تلك الكلمات التي تنادون بها خمس مرات في اليوم  
والليلة... قل لي كيف تضعون وجوهكم في التراب وقد أعزكم  
إلهكم ونصركم على أعدائكم؟

نظر الأمير لي طويلاً ثم استقام واقفاً ومد لي يده فاتكأت

عليها ووقفت... اصطحبني إلى أحد الأركان التي وجدت به بساطاً مزخرفاً وقد اتجه لركن من الأركان وأوقفني على البساط ووقف خلف ظهري وهمس بأذني:

- وجهك الآن ينظر إلى بيت الله الحرام لتستحضري بقلبك الله الذي لا إله إلا هو العلي القدير.... أغمضي عيناك يا زهرة الشرق

أغمضت عيناى وأومات برأسي لأسمع همس الامير في أذني يقول:

- الله أكبر الله أكبر... الله أكبر من ملوك الأرض جميعاً... الله أكبر من الأرض والسموات... الله لا إله إلا هو العزيز الواحد القهار... الله ربي وربك ورب الناس أجمعين... الله الذي خلقك من تراب ونفخ فيكي من روحه فسواكي بشراً سوياً... الله نور السماوات والأرض... الله الذي يخرجنا من الظلمات إلى النور... الله المعز المذل... الله عالم الغيب والشهادة... الله الذي خلق الموت والحياة ليبلونا أينأ أحسن عملاً... الله الذي خلق للمتقين جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وسيجزي الكافرين ناراً أحاط بهم سرادقها ليزوقوا عذاب الحريق... الله الذي جعل رحمته تسبق نقمته ومغفرته تسبق عذابه وسع كل شيء علماً وهو الغفور الشكور... إن كانت هذه صفات الله وكنتي في حضرته... ماذا تفعلين يا أمة الله؟

قال الأمير كلماته في أذني وقد أغمضت عيني لأسمع كلماته تتردد في جنبات عقلي ويرتجف قلبي من الله... الله الذي وسع كرسيه السماوات والأرض... الله الذي يعلم الغيب وما يخفى... الله الذي قدر حياتنا وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة... كان جسدي ينتفض من جلال حضرة الله وقد خشع قلبي وتصورتني بين يديه.... وحين فتحت عيناى التي سالت دموعها وجدت

رأسي ساجداً أرضاً وجسدي ينتفض في رهبة من حضرة الإله  
الواحد الفرد الصمد... كنت ساجدة ولم أشعر بنفسي إلا وأنا  
أردد دون وعي:

- رحماك يا الله... رحماك يا الله... رحماك يا الله

حتى شعرت بيد الأمير تنهضني من سجودي ليحتويني بين  
أحضانها وأنا أرتجف وأنتفض فزعاً من جلال تلك اللحظة التي  
سجدت فيها بين يدا مولاي وخالقي... رب الأرباب وملك الملوك  
وخالق كل شيء العزيز القهار كنت أرتجف فلم أرى تلك الدموع  
التي تفجرت من عينا فارس الدين وهو يردد دون انقطاع:

- الحمد لله على نعمة الإسلام... الحمد لله على نعمة  
الإسلام... الحمد لله على نعمة الإسلام.

\*\*\*

مر الوقت ثقيلاً وأنا مكبلةً إلى ذلك الفراش وقد بدأت أستعيد  
عافيتي بعد ذلك اللقاء الرهيب مع ذلك الشيطان اليهودي...  
كان قد انقضى يومان بعد لقائي ببوحاس ولم يظهر عبد الرحمن  
الوغد... كانت تينا تشرف على طعامي الذي كانت تدسه في  
فمي وعلى جرعات الأدوية والمقويات التي تذهب مفعول ذلك  
العقار الذي حقنني به الخنزير الداعشي قبل نقلي إلى ذلك المكان  
المقيد وفي صباح اليوم الثالث وبعد الإفطار فتح الباب ليدخل  
ذلك الوغد عبد الرحمن وقد بدأت لحيته تنمو من جديد وعلى  
وجهه تلك الابتسامة اللزجة وتقدم إلى السرير وقبل رأسي وسط  
اشمئزازي وتقززي وقال:

- خلاص هانت... النهاردة بإذن الله هنتحرك على غزة

كنت أنظر إليه والاشمئزاز يسيطر على كياني حتى رغبت في



- أن أبصق في وجهه الكريه والوغد لا زال يبتسم و يردف:
- برافو عليكي... بنحاس قالي إنك اتعاونتي معاھم... أيوھ كدھ... ربنا یرضی عليكي ويكتبك من المجاهدات
- قلت بسخرية وأنا أحدجھ بنظرات الاستنكار والاحتقار:
- هللا صار الجھاد التعاون مع اليهود؟... حلو كتير... كنت بظنھم أعداء الإسلام... واللھ علمتني إشي جديد في الدين
- لسه ربنا ما أمرش إننا نحاربھم
- بالله جد... وإيمتي رب العالمين أمركم تقتلوا المسلمين؟
- وهو احنا بنقتل المسلمين؟
- إيه... صح... نسيت إني وأھلي كفار مانا مسلمين
- نظر لي نظرةً غاضبة وقال وقد احتدت نبراته قليلاً:
- هنرجع للھرتلة والتخريف في صحيح الدين تاني؟
- ابتسمت بسخرية وقلت وقد سددت إليه نظراتي التي تعلمتها يوم أن حطمت كرامته وقلت:
- ما إلو لزوم هالحيكي... خلاص... ياللي صار صار... ما عاد فيني غيرھ... إيمتي راح نروح من هون؟
- أجابني وقد عادت ملامحھ للھدوء:
- الليلة دي... بنحاس بيقول إنك بقيتي كويسه الحمد للھ... وهو مجهزلنا عربية هتاخذنا لحد النفق

نظرت له متسائلةً وقلت:

- نفق؟؟

ابتسم تلك الابتسامة المقيتة وقال:

- هتعرفي كل حاجه بعدين

رن جرس هاتفاً خليوياً فرأيته يخرجته من جيب بنطاله و  
سمعته يجيب قائلاً:

- السلام عليكم ورحمة الله..... نعم..... نعم..... وأين  
أنتم الآن..... الحمد لله.... نعم نعم اتجهوا إلى الشيخ زويد  
مباشرة... هحصلكم هناك فجر الغد بإذن الله.... في أمان الله.....  
وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

أنهى اتصاله وقد ازدادت ابتسامته المقيتة اتساعاً وهو يقول  
لي بسعادة:

- وشك حلو يا بت... الرجالة كلها وصلت سينا بالسلامة...  
الحمد لله... يلا أسيبك دلوقتي عشان ورايا شوية حاجات لازم  
أعملها

ثم نهض الحقير وتقدم إلي وحاول تقبيل شفتاي لكني أدت  
وجهي للجهة الأخرى وقد ارتسمت على وجهي ملامح التقرز  
والنفور... فاعتدل وحدجني بتلك النظرة المتوعدة ثم مال إلى  
أذني وفح فيها هامساً:

- وحية أملك لأريكي يا بنت الوسخة

وتركني وصفق باب الحجرة خلفه لأغرق في أفكاري السوداء.

مرت ساعات النهار ثقيلةً بطيئةً... كانت تلك الشقراء تينا مشغولةً بشيءٍ ما وقد تركتني طيلة النهار تقريباً... كنت أقضي الساعات غارقةً في خواطري تتقاذفي الأفكار التي كانت تصطرع بعقلي... ماذا لو اكتشف ذلك اليهودي خدعتي؟... ما الذي يخبئه لي القدر؟.... كنت أعلم أن الأوضاع بمصر قد اشتعلت بعدما تم عزل الرئيس وتولي رئيس المحكمة الدستورية رئاسة البلاد لحين إعادة صياغة الدستور وتنصيب رئيساً منتخباً... كانت عمليات العنف تشتعل بسيناء وفي ميادين العاصمة المصرية وكانت قوات الجيش المصري في ذلك التوقيت قد أعلنت استنفارها لمواجهة موجات العنف الإرهابي الذي تقوده فلول جماعة الإخوان المسلمين وجماعاتٍ مسلحةٍ أخرى.... ما هو مصير الأسيرة السورية التي لا ناقة لها ولا جمل في كل ذلك؟... كان المستقبل مظلماً لا يبشر بخير... تذكرت تلك الرؤية العجيبة التي سمعت فيها كلمات أمي تأمرني بالثأر لشرفي ولنادية... عاهدت نفسي على الانتقام من ذلك الخنزير الحقير ولكن... ولكن... كيف سأفعل ذلك؟... ما هي القوة التي أمتلكها؟.... تساءلت بيني وبين نفسي عن سبب إصرار ذلك اليهودي على أن يتأكد من أنه لا توجد نسخاً أخرى من تلك الوثيقة... لقد قال أنه ليس من مصلحة إسرائيل أن يبقى على قيد الحياة أي شخصٍ على علمٍ بمضمون تلك الوثيقة الخطيرة... فلماذا أبقى على حياتي؟.... لا خوف على حياة السيد مدير المتحف فقد توفاه الله في نهاية عام ٢٠١٢م.... ماذا لو علم ذلك السر الذي احتفظت به لنفسي ولم أطلع عليه أحداً حتى أقرب الأقربين لي؟.... ماذا لو علم أنني رأيت ما كان يعمل هؤلاء الخبراء القادمين من دمشق وأن سؤالي عنهم لم يكن إلا لتعجبي لمخالفتهم لوائح المتحف؟..... كنت أعلم أن حياتهم أو موتهم لن يغير من حقيقة أن تلك الوثيقة ووثائق أخرى قد أرسلت إلى جهةٍ غامضةٍ لا أدري كنهها.... ولكنني لم أستطع أن أتجاهل ذلك الخاطر الذي دفعني لإخفاء

تلك المعلومة عن ذلك اليهودي..... ماذا يمكنني أن أفعل  
للانتقام من هذا الحقير عبدالرحمن ورجاله الأوغاد وتنظيمه  
القدر؟... كانت التساؤلات والحيرة تفتك برأسي حتى ثقلت  
جفوني فسقطت في نعاسٍ مضطرب.

كنت أقف وسط الحقول الخضراء وذلك النهر العملاق  
يمتد أمامي تحت أشعة الشمس الدافئة... أين أنا؟؟؟؟ كيف  
انتقلت إلى ذلك المكان؟... كنت ألتفت حولي والخوف يملكني  
وأشعر باقتراب صوتٍ يشبه صوت سنانك الخيل على الأرض...  
التفت إلى الصوت لأشاهد ذلك الحصان الأبيض وهذا الفارس  
الذي يرتدي أزياء الفرسان العرب كما تصورههم كتب التاريخ...  
طويلاً مهيب الطلة يتدلى سيفه من نطاقه وقد ترجل من على  
صهوة جواده ليقترّب مني... تراجعت في خوفٍ والدهشة تتملكني  
حتى سمعت من يتحرك خلفي فالتفت لأشاهد تلك الفتاة ذات  
الشعر الأسود الناعم والعينان الضيقتان والبشرة البيضاء المشربة  
بالحمرة... كانت فاتنة... أجمل فتاةٍ رأتها عيناى... وجدتها تنحني  
باحترامٍ أمام الفارس الذي أسرع إليها وقد منعها عن الانحناء له...  
رأيته يمسك بكفها ويقبلها بعشقٍ واحترام... أمسك يدها وتقدما  
تجاهي والابتسامة المشرقة تعلو وجهيهما... وضعت الفتاة يدها  
على كتفي واقتربت لتهمس بأذني:

- لا تخافي يا ديمة... قد سبقتك إلى تلك الأرض فقابلت  
فارسي الذي أنقذني من الضياع وأرشدني للطريق.... تشجعي...  
واعلمي أن الله لا يغفل عن عباده... الله يمهل ولا يهمل... واعلمي  
أنه قد كتب عليكى الجهاد في سبيل نصره الحق على الباطل... ما  
كان للأنثى أن تحمل السيف... ولكن الله حباها ما هو أشد ضراوةً  
وفتكاً من أي سلاح... استعيني بالله واجعلي من نار غضبك أتوناً  
لتحرق به عدو الله الذي يدعي أنه من جنوده

كنت أرتجف من كلمات تلك الفتاة الفاتنة... نظرت للأمير لأجد عيناه مركزةً بعيني التي ما عادت ترى إلا سواد عينيه العميقتان... غرقت في سواد عيناه... ازداد السواد حتى فتحت عيني لأجدني ممددةً على فراشي وتلك الشقراء تينا تحل قيودي وتنزع المحقن المزروع بوريد ذراعي والذي كانت تحقني فيه بالأدوية... نظرت إليها وسألتها:

- ماذا الآن؟

ردت علي بنبرتها المتعالية المشمزة مني دائماً:

- هيا... حان الوقت حتى تستعدي للسفر... يجب أن تستحمي وتستبدلي ملابسك وسيأتي الشيخ أبو عبيدة بعد ساعة حتى يصطحبك إلى سيناء

وقفت تحت مياه الحمام الساخنة وأنا أسترجع ذلك الحلم الغريب... من تلك الفتاة ذات الملامح الآسيوية؟... من ذلك الفارس؟... كان شكلها وطريقة كلامها تبدو لي مألوفاً وكأنني أعرفها لتضيئ الحقيقة في رأسي... إنها هي... تلك الأسيرة التتارية التي تمنيت أن أكون مثلها وحسرتها على ما خبأته لها الأقدار بقصر ذلك الفارس المملوكي... تذكرت كلماتها التي انطبعت بذاكرتي... (ما كان للأنثى أن تحمل السيف... ولكن الله حباها ما هو أشد ضراوةً وفتكاً من أي سلاح)... أغلقت المياه ووقفت أنظر لقطارته التي تساقطت من جسدي وشعري إلى الأرض... مسحت البخار عن المرأة ونظرت لنفسِي... كانت نظرةً جديدة... نظرة من علمت طريقها... انتهت الأحلام لتظهر الحقيقة... حقيقة الفتاة التي انتصرت على إسرائيل وداعش.

جففت جسدي وارتديت ملابسِي السوداء وقد أنزلت نقابي ونظرت لهيئتي لتصدمني تلك العينان التي تنظران لي عبر

المرآة... ليست تلك عينا ديمة المحمودي... تلك عينا تشعان  
بنيران الكراهية والانتقام... وليكن لمعانها ناراً تحرق قاتل روجي  
وشرفي وصديقتي.

خرجت من الحمام لأقابل تلك اليهودية الشقراء التي  
اصطحبتني حتى خرجنا من البيت الريفي لندخل إلى موقف  
سياراتٍ صغير ملحقاً بالمنزل لنجد تلك السيارة ذات الدفع  
الرباعي حمراء اللون ذات الزجاج الأسود العاكس لأجد بنحاس  
وعبد الرحمن ورجلان آخران... توجهت مباشرةً إلى عبد الرحمن  
ونظرت بعينه وقلت بنبرةٍ واثقة:

- جازه سيدي أبو عبدة

للحظةً شاهدت الدهشة ترسم على وجه عبد الرحمن  
وقد انفجرت شفاته... أوماً لي برأسه لأتجه دون كلمةٍ واحدة  
وسط حيرة ودهشة بنحاس وعبد الرحمن وتينا لأركب السيارة  
بصمت... بعد لحظات كان عبد الرحمن يجلس إلى جوارى وقد  
ركب الرجلان الغريبان على الكرسيان الأماميان وبدأ من تولى  
القيادة في إدارة محرك السيارة والتحرك.... وطوال الطريق  
الذي استغرق حوالي خمساً وأربعين دقيقة حتى وصلنا إلى ذلك  
البيت الكبير المحاط بالأشجار لم أنفوه بكلمةٍ واحدة... دخلت  
السيارة من بوابة البيت السوداء الكبيرة لتأخذ طريقاً يلتف حول  
المنزل وقد كان المكان يعج بالرجال المسلحين بالبنادق الآلية  
والذين لم يتبادلوا كلمةً معنا... وحين استدارت السيارة حول  
البناء شاهدت ذلك الباب المعدني الذي يشبه أبواب المحلات  
التجارية في الجدار الخلفي للمنزل... تقدم السائق بالسيارة حتى  
ذلك الباب وقام بفتح النافذة ورأيتَه يعطي تلك الحقيبة السوداء  
لذلك المثلث الذي كان يقف إلى جوار باب السائق والذي تناول  
الحقيبة وقام بضغط زرٍ بجهاز تحكم صغير يشابه أجهزة التحكم

التليفزيونية لأرى الباب ينفتح لأشاهد ذلك النفق الواسع الذي يتسع للسيارة بالكامل ويمتد نزولاً لأسفل.... علمت أنه نفق العبور إلى سيناء.

بعد ما يقترب من الساعة والنصف من القيادة البطيئة داخل النفق المظلم رأيت الطريق يأخذ المسار صعوداً بالتدريج حتى شاهدت على أضواء السيارة ذلك الباب المعدني المشابه لباب الدخول... وبعد لحظات من وصولنا رأيت الباب يرتفع ببطء ليكشف تلك الأرض المرصوفة الممتدة أمام السيارة... انفتح الباب فبدأ السائق يتحرك لأسمع عبد الرحمن الذي اقترب مني ليهمس لي:

- حمد الله عا لسلامة... نورتي سينا يا حلوة.

نظرت إلى وجهه بعيني الجديدتان لتخفت ابتسامته اللزجة من وجهه.... أطلت النظرة حتى تلاشت ابتسامته وحلت تلك النظرة المرتبكة بعينه لأجيبه قائلة:

- الله يسلم عمرك سيدي أبو عبيدة

\*\*\*

نص الإشارة... (العصفور يدخل إلى أرض النار.... تم الرصد.... العصفور أسير للخفاش الأسود.... بدء أعمال العملية نسر الأفق)

\*\*\*

## الفصل العاشر

# الأمل

هدأ روعي بين ذراعا الأمير بعد أن أخذتني الرجفة وأنا بين  
يدي الله في سجودي... كانت عيناه تدمعان وكان لا زال لسانه  
يلهج بحمد الله... رفعت وجهي لأنظر إلى عيناه التي وجدت  
فيهما نفسي... مددت يداً لازالت ترتجف من جلال موقف  
السجود لله الذي علمت أنه إلهي ولا إله لي غيره ومسحت الدمع  
عن عينا الأمير وسألته وقد تهدج صوتي وارتعشت نبراته:

- أتبكي يا حبيبي؟

- أفلا أبكي فرحاً وقد أشرقت شمس الحقيقة في قلب من  
تمنيت أن يهديها الله إلى دين الحق؟

- وماذا الآن؟

لم يجب الأمير عن سؤالتي... نظر إلى عيناى وقد أشرق وجهه  
بابتسامته التي تخلب عقلي... اصطحبني الأمير إلى مجلسنا  
وأجلسني أمامه وهو لازال يبتسم وسألني:

- الآن تقررين مصيرك يا زهرة الشرق

ذهبت السكره وجاءت الفكرة... نعم لقد أظهرت الحقيقة  
وجهها دون حجاب أو ستر... ها قد اعترفت أن قلبي تعلق بعشق  
فارس الدين ولا أملك من أمر قلبي شيئاً... وهاهي الأميرة التتارية



التي تعلمت قانون إيلياسا وقرأت حكمة جوتاما وكونفوشيوس وزرادشت وعبدت آلهة المغول وأرواح الأجداد تكتشف أن لا إله إلا الله الواحد الذي شهد الكون له بألوهيته ولا شريك له هو رب الأرباب وملك الملوك تعالى عما يشركون... وها هي الأميرة التتارية تشهد زوال ملامح عالمها الذي غلفت صورته الأوهام التي افتضحت تحت شعاع الشمس.... ما عاد من المكابرة وتأجيل القرار من شيء يذكر... وها قد حانت اللحظة التي كنت أعلم أنها آتية وهاك الأمير المالك لأمرى ينتظر كلمتي.... لا زال شعور الخيانة يطعن روحي بسنان رمحه المسموم... ولا زال القرار صعب... كانت تلك الأفكار لازالت تعصف في جنبات عقلي وأنا أمام نظرات الأمير التي كانت تنفذ لروحي وقلبي من عيناى... كانت ابتسامته المطمئنة تشع بالدفع في سماوات روحي... يثق بي... يثق بأننى سأقرر مصيرى الصحيح... وأثق به وبكلمته فى تنفيذ رغبتى.... عدت من شرودى وامتلكت لسانى لأقول:

- لكم هو صعبُ القرار يا سيدي الأمير

- بعد أن سجدت جبهتك لله فلا سيد لك بعد الآن

اتسعت عيناى ذهولاً وأنا أسمع تلك الكلمات فقلت:

- ماذا تقصد؟

- أنت حرّة لوجه الله يا أميرة السنجق وأشهد الله على

إعتاقك

قالها وتركني غارقةً بين أمواج الدهشة ورأيتة يتجه إلى لوح الكتابة الموضوع بمنتصف قاعة المكتبة ورأيتة يكتب شيئاً... ثم رأيت الأمير يذيل الرق المكتوب بخاتمه ليحمله ويعود إلي ويقدمه لي وقد لاحظت أن عيناه لم تعودا تنظرا ناحيتي ولم

ترتفع عن النظر لأسفل ليذكركني بالفارس حسام الدين وهو  
يخاطبني... أخذت الرق المختوم من يد الأمير وقمت بفضه  
فقرأت الآتي:

### **بسم الله الرحمن الرحيم**

أقر أنا فارس الدين كرك خورشيد الخوارزمي...  
عامل جلالة السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس  
البندقداري سلطان مصر والشام على سنجق الأهوار  
بجنوب المنيا... أنني أعتقت لوجه الله حرةً أمة  
الله زهرة الشرق نارين التتارية... وقد أعتقت  
رقبتها لسجودها لله الواحد القهار وأشهد أمام  
الله على ذلك... فإن شهدت أن لا إله إلا الله وأن  
محمدًا رسول الله صارت من المسلمين المحررين وإن  
لم تفعل فعسى الله أن يهديها إلى صراطه المستقيم  
وأخلي مسؤوليتي عنها أمام الله تعالى... ولها منا  
العهد بالإيواء والحماية... وأشهد الله أنني أتكفل  
بها وبمعاشها مادامت بقصري.

ربنا تقبل منا وأعنا على أداء الأمانة إنك على  
كل شيء قدير

**والجى سنجق الأهوار**

**خورشيد**

قرأت الرق وسط ذهولي وأعدت قراءته ثم نظرت تجاه  
الأمير الذي لازال يغض البصر عني وسألته:

- ما هذا يا مولاي؟

- هذا صك حريتك يا زهرة الشرق... لك عندي الأمان  
والسكن والبيت... لك ما لأهل بيتي وعليكي ما عليهم... وإن  
شئتي أطلقك إلى حيث ما أردتي... تلك كلمتي

- لماذا تبعد عيناك عني يا حبيبي؟

- كنتي ملك يميني فكان لي فيكي حق... والآن صرتي حرّة ولا  
تحلين لي إلا أن تكوني زوجتي أو ملك يميني

- فارس الدين... أبعد أن اعترف قلبي بحبك تبعد عيناك التي  
وجدت بهما نفسي عني؟

- لله الأمر يا من هواها قلبي وحاشا لله أن أنالك إلا بما يرضي  
الله ورسوله

- أكان يحق لك أن أكون بين ذراعيك وأنا ملك يمينك؟

- نعم يا سيدة القلب

- فلم لم تنل حقلك؟

- كرهت أن آخذ منك ما لم ترغبني في إعطائه لي... وقد  
عصمك الله مني بأن أنار قلبك بنور الإيمان

- لكنني أحبك

- ويشهد الله على ما في قلبي لكي يا سيدة الفؤاد ونور القلب

- أنا خائنة يا فارس الدين

- عصمك الله من الخيانة يا زهرة الشرق

- ألسنت خائنة لقومي وبلادي؟

- وكيف تكونين؟

- سأكون بما قررت

نظر فارس الدين لعيني وقد بدت عليه ملامح الترقب...  
نظرت لعيناه وبدأت دموعي تسيل... أخذت شهيقاً عميقاً  
وأغمضت عيني.... حسمت أمري ونطقت بصرخة ميلادي:

- أشهد أن لا إله إلا الله... وأشهد أن محمداً رسول الله

كانت كل خليةً بجسدي ترتجف وهي تشهد بأن لا إله إلا إلهي  
الذي غمرتني رحمته وأنا بين يديه وتشهد أن ما جاء به رسوله  
هو ما صاغ إنسانية هذا الفارس الذي أسر قلبي وعقلي... ليت  
قومي يعلمون... ليت قومي يعلمون... فتحت عيني الغارقتان  
بدموع الرهبة من الله والخوف من شيطاني الذي بدأ يصور لي  
وجوه أبي والخاقان وكتبغا وهي تنظر لي بحسرةٍ وغيظٍ فأغمضت  
عيني مجدداً لأسمع صوت فارس الدين يهمس:

- لا تخافي ولا تحزني... تعالي

فتحت عيني وتبعث فارس الدين الذي كان يتقدمني... كنت  
أرغب في أن يحتويني في أحضانه... كنت أرغب في لمسة يده...  
كنت بحاجة لتلك القشعريرة التي تزحف على فقرات ظهري  
حين يلمس أنا ملي... لكنه ظل يسير أمامي ولا ينظر لي... سار

بي حتى وجدت نفسي أمام جناح أمي زينب لأراه يطرق الباب...  
بعد لحظاتٍ شاهدت وجه تلك المرأة الذي يشع بالعطف والتي  
ابتسمت في وجه الأمير وقالت:

- أهلاً بسيد السنجق...

نظرت لي وقالت وابتسامتها العذبة لا زالت تضيئ وجهها:

- وأهلاً بزهرة الشرق التي شرفني

قال الأمير:

- أأسمحين لي من وقتك يا زينب خاتون

- طوع أمرك يا ولدي... تفضل

دخلت خلف الأمير لجناح أمي زينب وقد دهشت أنها تنادي  
الأمير بكلمة ولدي... عجباً لتلك المرأة!!... حرّمها الله من نعمة  
الأمومة ليجعل منها أمّاً لكل من لاقاها... دخلنا إلى الجناح  
ليجلس الأمير وقد جلست لجواره... ذهبت أمي زينب إلى ركن  
بالجناح ثم عادت ومعها طبقاً من الحلوى الشرقية وضعته أمام  
الأمير وقالت بابتسامتها الحلوة:

- ما استطعت أن أمنع نفسي عن إحضارها لك وأعلم أنك  
تحبها

نظرت للأمير الذي احمرت وجنتاه خجلاً وابتسم وقال:

- لا تنسين ابنك يا زينب خاتون... أم أقول يا أمي زينب

ضحكت زينب خاتون ضحكتها الصافية وقالت:

- تعلم أنني أحب سماعها منك يا ولدي

- ليسعد الله أيامك وقلبك يا أماه... جئتكم بالبشرى

اتسعت عينا زينب خاتون وازداد تنفسها وهي تنقل بصرها بيني وبين الأمير... حتى أوماً الأمير برأسه مؤكداً لأجد نفسي بين أحضان أمي زينب التي ضمتني لصدرها وهي تجهش باكية وسمعت صوتها المأخوذ بالفرحة وهي تردد:

- مباركاً لك الإسلام يا ابنتي... اللهم بارك لها وبارك فيها...  
اللهم تقبلها من إمائك الصالحات... اللهم أصلح إسلامها وزدها  
إيماناً بك يا أرحم الراحمين...

كانت دموعي تسيل مع كلمات أمي زينب... كنت أشعر بارتجافها وبفرحتها التي جعلت دموعها تسيل من عيناها... حتى سمعت صوت الأمير يخاطب زينب قائلاً:

- تعهدي بها يا أماه... علميها أمور الدين واجعلي من قلبك بيتاً لها... وأبعدي عن نفسها مرارة خداع الشيطان لها... فهي ترى نفسها خائنة وقد طهر الله قلبها

أبعدتني زينب خاتون عن صدرها ونظرت لعيناها الدامعتان ولا زالت بسمتها الدافئة تطمئن قلبي وأجابت الأمير وهي لا زالت تنظر لي:

- لا تقلق يا ولدي... أعاهدك أمام الله أن أرهاها وألا أتركها  
لوساوس الشيطان الرجيم

ثم نظرت للأمير وأردفت:

- أدعو الله يا بني أن يجزيك عنها وعن كل رعيتك خيراً

أشار الأمير إلى زينب خاتون... فتركني وتوجهت إليه ليهمس

لها بشيءٍ ما لتتسع عينا زينب خاتون وتنفرج شفتها في ذهول...  
والذي ما لبث أن تحول إلى فرحةً عارمةً لم أرها من قبل... ثم  
تمالكت فرحتها وابتسمت لتومئ برأسها للأمير الذي حيانا ونظر  
إلى عيناى ثم استدار وانصرف... تعلقت عيناى بالباب المغلق  
لأسمع صوت أمي زينب تقول:

- هنيئاً لك بنعمة الإسلام يا زهرة الشرق

- علمت الطريق إلى الله... فمشيت فيه وفقدت قلبي يا أماه

- لماذا تقولين ذلك؟

- تركني من أحببت إرضاءً لإلهي الذي آمنت به

- أوتظنين الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيءٍ يرضى عن  
فراق رجلاً وامرأة خشياه في حبهما؟

نظرت إليها متسائلةً فرأيت ابتسامتها المشرقة التي أزالته  
الظلام من قلبي وقلت:

- قال لي أنني لم أعد أحل له

- وأعتقك وأعاد لك حريتك

- وما فائدة الحرية وقد حرمت أحضان حبيبي الذي عشقه  
قلبي يا أماه؟

- أنفضلين أن تكوني لمن أحبه قلبك بجسدك فقط؟

- أنا شريفةٌ من بيتٍ شريف

- بل كنتي شريفةً فأصبحتي شريفةً طاهرة القلب من  
المحسّنات

- لا أفهمك يا أماه

- مولاي الأمير فارس الدين تقدم طالباً خطبتك مني فانظري ماذا ترين؟

كان هول المفاجأة صادمًا لي حتى فقدت القدرة على النطق أمام أمي زينب.... شعرت برأسي يدور فلم أتمالك نفسي فجلست على إحدى الطنافس وقد اتسعت عيناى واضطربت ضربات قلبي... الأمير يريدني زوجة؟؟!!!!... يريدني شريكة حياته؟؟!!!!.... من قال أنني كنت أسيرةً ذليلة؟... متى كنت غنيمة حرب؟.... أنا ابنة التتار أعدائه وأعداء دينه... أنا من اعتنقت الإسلام من لحظاتٍ مرت.... أنا من انكسر قومها وذهبت هيبتهم..... أنا من كنت أكره المسلمين ككراهيتي للموت... أنا نارين ابنة ميركا التي تلطخ نصل سيفه بدماء الأطفال والنساء... أنا دون غيري من النساء.... أنا من يطلبها ذلك الفارس ليعطيها اسمه وشرفه؟... أنا من أتيت إلى قلعة الجبل مكبلةً بالأغلال يطلبها ذلك الأمير حتى أكون خوند أحد ولادة السلطان الظاهر سلطان مصر والشام؟؟؟؟!!!!!!

خرجت من شرودي وأنا أشعر بتلك اليد الحبيبة لقلبي تربت على كتفي... كانت أمي زينب التي مدت لي يدها... توضأت فقلدتها... استقبلت الركن على بساط الصلاة فجاورتها وعلمت أنني يمممت وجهي لقبلة الإسلام ببيت الله الحرام بمكة المكرمة... رفعت يدها وأطلقت النداء المبارك الذي خلع قلبي من تجويف صدري وقالت:

- (الله أكبر)

وصليت مع أمي زينب أول صلاةً في حياتي.... والآن ولدت زهرة الشرق نارين ابنة ميركا... المسلمة



مرت ثلاثة أيام وأنا بين يدي أمي زينب... كنت أقضي الوقت بمكتبة القصر أقرأ عن الإسلام وعن ذلك الرسول الذي أحببته وأحببت سيرته الطاهرة العطرة محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم... كنت أصلي بصحبة أمي زينب... سمحت لي بقراءة القرآن الذي كان أعظم ما قرأت... مرت الأيام وماتت مشاعر الخيانة بنفسي حين علمت الحقيقة.... حقيقة ذلك الدين السمح الذي نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج العباد من الظلمات إلى النور.... وحقيقة سلسال الدم الذي تفجر بسيف الخاقان جنكيس خان من عهد خوارزم شاه وحتى نهاية الحرب على يد السلطان الظاهر... حتى جاء ذلك اليوم الذي جاءني الأغا واصطحبني برفقة أمي زينب لخارج الحرملك... توجهنا إلى ديوان الولاية بسلاملك قصر الأهوار... لأجد فارس الدين وقد جلس على عرش السنجق وإلى جواره وقف الفارس حسام الدين بزيه العسكري وإلى اليمين كان يجلس ذلك الشيخ الكبير المهيّب الذي شاهدته يرحب بالأمير بأول يوم لنا بالقصر... وقد جلس على الجانب الأيسر ذلك الرجل الذي كانت تلوح في ملامحه معالم الوقار والحكمة بوجهه الأبيض ولحيته البيضاء المستديرة وقفت بين يدا الأمير وقد تعلق عينا به... لوهلة كدت أفقد تعقلي لأهرع إليه وأرتمي بين ذراعيه... كان يزورني بصحن الحرملك بالأيام الثلاثة الماضية... لم يعد يدخل جناحي إلا بصحبة زينب خاتون ولا يسمح بأن يغلق الباب علينا أبداً... كان الشوق يقتلني إليه... سمعت صوته العميق الأثير يقول:

- السلام عليكى يا خاتون

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا مولاي

- أرسلنا لمولانا السلطان الظاهر بأمر إسلامك... وقد أمرنا بحسن رعايتك وإكرام مقامك العالي وسمائك من نساء

المسلمين... وبحضور الشيخ عبد الله بن خالد الحلبي شيخ الأزهر ومفتي سنجق الاهوار... وبشهادة شيخ العرب سليمان بن أحمد كبير قبائل الهوارة نريد أن نسمع قولك... أترغبين في أن تعتنقي الإسلام ديناً... أم لا قدر الله قد رجعتي عن قرارك؟

تعجبت للهجة الأمير الرسمية الخالية من رفته التي كنت أراها في عيناه حين كان يأتي ليراني... هل أغضبتك في شيء؟... أجبت عن سؤاله:

- الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها من نعمة يا مولاي... لقد شهدت أمامكم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

- ما رأي الشرع يا شيخنا؟

قالها الأمير وهو ينظر إلى الشيخ عبد الله الذي نظر إلى الأمير وقال:

- من حقها أن تعيد التفكير في قرارها يا مولاي

نظرت إلى الشيخ عبد الله والدهشة تخنقني لأقول:

- وفيما أفكر... وهل يوجد إله إلا ربي وربك ورب الناس أجمعين؟

- حاشا لله يا ابنتي... ولكن الله أمرنا في كتابه العزيز بأنه...

قاطعت الشيخ عبد الله قائلة:

- بأنه لا إكراه في الدين... قد تبين الرشد من الغي... لا يا شيخ عبد الله... لم يكرهني أحد على اعتناق دين الحق ولن أرجع عن

## الصراط المستقيم

- ما قصدت إغضابك يا ابنتي... وما قصدت أن أثنيك عن دين الله... ولكن خشيت ألا تكوني قد آمنت عن اقتناع

- أشهد الله وملائكته وكافة خلقه وأشهد من بمجلس مولاي أنني ولدت يوم أن أخرجني الله من الظلمات إلى النور.... ولا مجال لإعادة التفكير... الله ربي... والإسلام ديني... ولن أشرك بعبادة ربي أحدا

أنهيت كلامي ورأيت دهشة الوجوه ترتسم على الجميع... لا عجب... فمن يتصور أن من يقول هذا الكلام هي واحدة من فتيات أعداء الإسلام التي نشأت على كراهية هذا الدين وأتباعه؟... ابنة التتار الذين أقسم خاقاناتهم على إبادة الإسلام والمسلمين عن بكرة أبيهم؟

خيم الصمت المهيب على المجلس حتى تكلم الشيخ عبد الله قائلاً:

- مولاي الأمير... بارك الله في قصرك وأهله... وإن كانت رغبة الخاتون كما سمعناها فرأي الشرع أنها من المؤلفة قلوبهم وقد صح إسلامها وأدعو الله أن يفقهها في الدين ويجعلها من عباد الله الصالحين

ابتسم الأمير ابتسامة الرضا ونظر إلى شيخ العرب سليمان وقال:

- والآن يا شيخ العرب... أعلن لأهالي السنجق الكرام إسلام سيدة السنجق وقد أسميتها زهرة الشرق

نظر لي الأمير لتزداد دقات قلبي لابتسامته التي اشتقت لها

وقال:

- إشهدني يا أمة الله

ابتلعت ريقى وتقدمت خطوةً للأمام... وكما علمتني أُمي  
زينب رفعت سبابتي اليمنى ونظرت للسماء وقلت بكل خشوع:

- أشهد أن لا إله إلا الله... وأشهد أن محمداً رسول الله

أنزلت سبابتي لأرى الدموع المترققة في عين الشيخ عبد الله  
الذي قال:

- بارك الله فيكي يا سيدتي زهرة الشرق... وأرجو أن يسمح لي  
مولاي الأمير أن أشرف على تعليمك علوم الدين في دروس الدين  
لنساء القصر

قال الأمير وهو يبتسم ابتسامته الحانية:

- لك هذا يا شيخ الإسلام

\*\*\*

كم تمنيت زيارة تلك الأرض المباركة التي ذكرها الله في  
كتابه الكريم... لكنني ما تصورت يوماً أن أدخلها برفقة داعشي  
نجس... خرجنا من ذلك البيت الصحراوي المحاط بأشجار  
الزيتون وتوقفنا بالسيارة قبل الخروج من بوابة السور لنشاهد  
هؤلاء المثلثين المدججين بالسلاح يحيطون بها... تقدم اثنان  
من المثلثين وبدءا بالعبث بمقدمة السيارة ومؤخرتها فعلمت  
أنهما يغيران ألواح الأرقام المعدنية بأرقام تتبع جمهورية مصر  
العربية... وما أن انتهيا حتى أفسح المسلحين المثلثين المجال  
لنا فعدنا للتحرك بالسيارة من جديد وفي الطريق إلى المجهول

سمعت عبد الرحمن يقول:

- هتفضلني ساكته كده طول الطريق؟

أجبتة بشرود:

- وشوبدك إياي أحكي؟

- أنا عارف إنك مخضوضه... بس لما تعرفي المفاجأة اللي  
أنا مرتبهالك هتفرحي أوي

- مفاجأة؟... خير ان شا الله

- أنا اتكلمت مع الأمير صلاح الدين التركي... ثبته الله في  
جهاده ضد الكفار في الرقة.... واستأذنته إنك تكوني محظيتي

شعرت وكأنني ابتلعت زجاجةً من مياه حمض الكبريتيك  
المركز ونظرت إليه من تحت نقايي بعينان تتقدان بالكراهية...  
وقلت وأنا أسيطر على أعصابي حتى لا يفضح صوتي ما يعتمل  
بنفسي:

- بالله جد... شو هالخبريه الحلوة؟

- مش باين يعني انك فرحانه

- لا فرحت كثير... بس مافيني زغرد بلا ما آكل قتلة

- أضريك عشان فرحانة بيا؟

- لا... لأنه صوت المره عوره... ماهيك يا... يا شيخ أبو  
عبيدة؟

نظرتي وقد ارتسم الارتباك على ملامحه فحاول مداراته بأن

قال:

- ما شاء الله... بارك الله فيكي... أنا بس كنت بختبرك

ابتسمت من أسفل نقابي بمرارة وعادوت النظر من النافذة لأحتضن بعيناي أرض الفيروز... لك الله يا سيناء... فبعد أن مشت قدما العذراء الطاهرة والمسيح عليه السلام وموسى كليم الله و خليل الله إبراهيم وال صديق يوسف على أرضك المباركة أتى عليكي حيناً من الزمان ليدخلك أشباه الرجال روبيضة العصر... استمر الطريق نحو ساعة من الزمن حتى بدأنا ندخل إلى طرقات مدينة الشيخ زويد في شمال شرق سيناء... ظلت السيارة تدور في الطرقات حتى توقفت أمام بيت بدوي من طابق واحد لنترجل منها ويقوم من كان يقود السيارة بحمل حقائب كان من ضمنها حقيبتنا التي حزم بها ملابس الوغد وملابسي ومذكرات الأسيرة التتارية بينما قام الثاني بالتقدم والطرق على الباب ثلاث مرات ثم توقف وطرق مرة ثم توقف وطرق ثلاثة أخرى لنسمع صوتاً من الداخل يقول باللهجة البدوية السيناوية:

- من؟

ليرد عبد الرحمن قائلاً:

- عابري سبيل في بلاد الله يا أخي

- أخ شقيق؟

- بل قريب

فهمت أنها كلمة السر زيادة في الأمان... وكأن كل ذلك السلاح لا يكفي لتأمينهم... انفتح الباب ليدخل سائق السيارة بالحقائب يتبعه الثاني وقد عاونه على حمل حقائب أخرى ثم قام عبد

الرحمن بدفعي إلى داخل المنزل وتبعني ثم أغلق الباب... كان المنزل يتكون من صحن واسع محاطاً من ثلاث جهات بأبواب الغرف وكان بانتظارنا ثلاثة رجالٍ ملتحين تباينت ملامح وجههم... وفي ضوء الكهرباء تبين لي أن السائق كان بملامح أجنبية تماماً.... جرتني عبد الرحمن من يدي حتى أدخلني بحجرة واسعة بداخلها سريرٌ بأعمدة نحاسية عالية وخزانة جدارية وقد غطت الأرض الحصر الملونة... مرت ساعة وأنا جالسة على الفراش وسط شرود أفكاري وخواطري حتى شاهدت الباب يفتح ليدخل ذلك الوجود... وقفت بصمت لأجده يتقدم إلي وقد التهب الشهوة في عيناه بحيوانية قذرة حتى جلس على السرير وكنت لا زلت واقفة مكاني فقام بجذبي من يدي وأجلسني إلى جواره وقال بصوته الخشن:

- حمدالله عالسلامة يا دمدومه

اقشعر جلدي لذلك التدليل السمج فلم أرد وقد بدأت أشعر بالاشمئزاز والازدراء لأسمعه يردف:

- إيه مش هتغيري هدومك؟

نظرت إليه بفتور وقلت:

- ماشي... بس بدني روح الحمام بالأول

- طاب ومالو؟... حتى يبأى اللعب على نضافه

قالها وقهقه ضاحكاً على سخافاتهِ... فتركته وتوجهت إلى الحقيبة وفتحتها لأخرج شيئاً لألبسه فلم أجد شيء إلا تلك الملابس الساخنة فاخترت أحدها وتوجهت إلى الحمام لأجده حماماً على الطراز البدوي... قمت بالاستحمام وارتديت ملابساً وارتديت العباءة السوداء على ملابس النوم العارية وخرجت من

الحمام لأجده يجلس على أريكة خشبية ببهو الدار وقد ارتدى  
جلباباً أبيض قصير وجلس ليمارس عاداته في حشو السجائر  
المخدرة... رفع نظره إلي وسمعته يقول:

- أنت مش هتبطلي العبط ده؟

- شو في؟

- لابسالي العباية السمرا في البيت... الرجالة خرجت خلاص

- شو بدك اياي سوي؟

أشعل سيجارته وسحب منها بشراهة وقال من وسط  
الأدخنة المنبعثة من فمه وأنفه:

- تعالي قربي

اقتربت منه حتى وقفت أمامه فقام بجذبي حتى جلست على  
ركبتاي أمامه ليضمني إليه ويعبث بشعري ويهمس في أذناي:

- انت مش عارفه انك غاليه عندي؟

كان عقلي يدور بسرعة الصاروخ لأعرف الخطوة القادمة...  
قلت بعد دقائق من الصمت:

- انت ما بتحبني

- طاب والله العظيم لولاي كان زمان بنحاس قاطع لسانك  
وراميه في البحر

- إيه... وليش ما ساوا هيك؟

- يا بت انت مستقلية بأبو عبيدة واللا إيه؟... انا اتكلمت



معاه وقلتله كل شيء وليه تمن

- ما بفهم عليك

- وهتفهمي منين؟... ما انت جاموسه

- إذا ما بدك تحكي خلاص ما تتعب حالك

- طاب تعالي

قام بجذبي من يدي وأجلسني بجواره وقام بتطويقي بذراعه  
وقرب السيجارة مني وقال:

- تاخدي نفس؟

- لا شكراً... ما بحب هالاشي

- مش بقولك جاموسه؟

لم أرد... ولكني نظرت له نظرةً رسمت فيها الدلال الغاضب...  
فضحك قائلاً:

- طاب خلاص... مش ناقصة عكننة أمك عالصبح... كل  
حاجه ليها تمن يا حلوة... بنحاس طالب مني شوية طلبات  
كده... فاشترطت عليه إنك تكوني معايا وما حدش يلمسك

- وايش هالاشيا ياللي بده ياها هاد البنحاس؟

اقترب مني وبدأ في العبث بعنقي وصدري وهو يقول بفحيح  
حيواني:

- وده وقته؟...

- دخيلك خبرني... إذا بتريد

- يا بابا ااي على زن أمك... يا ستي عايز يعرف شوية حاجات كده عن سينا و التحركات الي فيها... الجدة الي ماسك الجيش هنا ده أصله مش سهل وهما مقلقين منه شويتين

- هاد الزلمة ياللى بيكون وزير الدفاع ما هيك؟

- آه هو... من بعد اللي حصل لحزب النهضة والانقلاب العسكري الي عمله ده والدنيا مقلوبه... فكرك اننا بس الي هنا؟... ده انت هتتفرج عالى هيحصل... والله لنخلي الدم للركب

- وهاد لصالح مين؟

- مش شغلك يا حيلتها... سيبك بأه وتعالى نخش الأوضه  
نريح شوية لحسن الواحد خلاص جاب آخره وبكره عندي شغل  
نظرت له تلك النظرة التي أجدها والتي تشعل جنونه دون  
سبب لأسأله بغموض:

- هللا مانك خايف حتى ما أهروب من هون وانت نايم؟

نظر لی وقد التمت عیناه بشراسه وقال:

- وهتهربي على فين يا روح أمك؟... انت فاكهه اننا لوحدهنا...  
أنا رجالي بره في كل حته ولو شافو كعب رجلك هيخلو بنادقهم  
تزغرد في جتتك... قسماً بالله لأرمي جثتك للكلاب تنهشها

- مو على أساس كنت بتحكي إنك بتحبنى؟

- أحبك آه... لكن تفكري تتملّعن تشوفي الوش التاني...

يللا يا مره اسبقيني على الأوضة... عايز أخلص السيجارة ألاقيني  
مستنياني ملط

قالها وقام بدفعي بقسوة حتى أسقطني من فوق الأريكة  
فاعتدلت وسرت بهدوء حتى الغرفة وأغلقت الباب... جلست  
على الفراش والنار تضطرم بداخلي.... نظرت للأمام لأرى تلك  
النافذة فتقدمت إليها لأجدها مغلقةً بالمسامير... نظرت من  
خصاصها لأشاهد ذلك المقاتل الذي كان جالساً أسفل نخلة  
بفناء المنزل وقد وضع بندقيته مستندةً على جذع النخلة... كانت  
عيناه مركزتان على النافذة المغلقة ولا يطرף له جفن... وقفت  
أنظر له حتى سمعت صوت الباب لأجد ذلك الحيوان الآدمي  
واقفاً بملابسه الداخلية بفتحة الباب وهو يلهث كالكلب ليتقدم  
إلي ويسحبني من رسغ يدي بقسوة حتى ألقاني على الفراش وبدأ  
في هجومه الحيواني علي... كنت كالجثة الخالية من الروح... لم  
أقاوم... لم أتألم... لم أشعر... انتهى الحقير من نجاسته في دقائق  
واستلقى ليعلو غطيظه تاركا إياي وسط دموعي وقهري وغضبي  
الحارق المدمر... ذهبت إلى الحمام واغتسلت من رجس ذلك  
الخنزير وارتيديت عباءتي السوداء جلست على الأريكة في صحن  
الدار أفكر فيما قاله ذلك الحقير قبل أن يفعل فعلته النجسه  
ويسقط في غيابات النوم.... كانت ثورة الثلاثين من يونيو قد  
نجحت في إنهاء حكم جماعة الإخوان المسلمين... وكانت عناصر  
الجماعة قد بدأت في الاحتشاد في ميادين القاهرة في ميدان رابعة  
العدوية وميدان نهضة مصر... كانت الأوضاع في غاية الاضطراب  
في مصر... قام وزير الدفاع بإصدار التعليمات للقوات المسلحة  
وعناصر الشرطة برفع درجات الاستعداد لمواجهة تلك الموجة  
الإرهابية الضارية التي اجتاحت مصر من الكثير من التنظيمات  
الإرهابية المسلحة المعارضة على عزل الرئيس السابق وتنصيب  
رئيس المحكمة الدستورية العليا رئيساً مؤقتاً للبلاد لحين صياغة

الدستور... كانت الأوضاع مضطربة حقاً... بالتأكيد لا يحتاج ذلك لذكاء حتى يدرك العاقل أن ذلك بالشيء الذي يسعد دولة إسرائيل... ولكن ما علاقة إسرائيل بالتنظيمات الإرهابية ذات الأيدلوجية الدينية؟... وما سر ذلك التعاون الكامل بين تنظيم كتنظيم داعش وبين إسرائيل؟... ما هي سلطة بنحاس تحديداً حتى يتحدث ويتعامل بتلك الثقة؟... لم تكن الإجابات تعنيني بأكثر من محاولة اكتشاف نقاط الضعف التي قد تفيدني في انتقامي... لم أكن أعرف حتى كيف سأفعلها... لم أستطع قتله ولن أتمكن يوماً من ذلك... كيف يمكنه ويمكن لهؤلاء الوحوش إراقة الدماء بهذا الدم البارد؟.... ظلمت في حيرتي حتى سمعت الطرقات على الباب فأجفلت... رأيت ذلك الحقير يخرج مسرعاً من غرفته ليفتح الباب وقد أشار لي بالدخول للحجرة ففعلت في صمت وقد وقفت لأتنصت على ما يدور بالخارج... سمعت صوتاً لأكياس بلاستيكية وأصوات أقدام تتحرك.... بعد لحظات سمعت صوت ذلك الوغد عبد الرحمن يقول:

- بارك الله فيك يا أخي أشكرك

رد عليه صوتاً غليظاً وقال:

- في خدمتك يا شيخ أبو عبيدة... أهلاً بـبك في مصر... جبتلك انت وجماعتك أكل وغداً هدبر للمنزل كل ما يلزم من المؤن بإذن الله... وبكرة هجيب واحدة من الجواري لتعاون جماعتك في أعمال المنزل إن شاء الله

- بارك الله فيك... وهنبداً الشغل إمتى إن شاء الله؟

- لسه مش عارف ولكن قريباً بإذن الله... لقد بدأنا معسكرات التدريب حتى نعد المجاهدين لمحاربة جيش الانقلاب الكافر وأعدائه

- أحسنت يا أبو البراء... كلما كانت العمليات أجراً وأكبر كثافةً وأعمق في تأثيرها هيكون في صالح أهدافنا وليبارك الله خطواتنا

- أستودعك الله يا أبو عبيدة... السلام عليكم

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

سمعت صوت إغلاق الباب لأسمع الحقيير يناديني فخرجت إليه لأجد طعاماً يكفي عشرون شخصاً وقد جلس ليأكل بشراهة وطلب مني إحضار الماء له

فذهبت إلى الركن وأحضرت الماء ووضعتَه أمامه ليشرب ويتجشأ في فظاظه وأنا واقفة... فنظر لي وقال والطعام يملأ فمه:

- عايزه تاكلي؟

- صحة وعافية على بدنك

كنت في سري أتمنى أن يكون الطعام مسموماً... نظر لي ثم قام بإلقاء قطعة من اللحم الدسم أمامي على الأرض فنظرت لها باستنكار ثم نظرت إليه مستفهمة لتصرفه فقال وهولالزال يفتك بالطعام:

- كلي كلي ماتتكسفيش

اشتعلت أحشائي بالغضب... كنت أود أن أحطم رأسه بيدي... ابتلعت غضبي وقهري حتى قام من مقامه.... ونظر لي ولقطعة اللحم على الأرض وقال:

- ما كلتيش ليه؟

- ماني جوعانه

نظر لي بازدراء ثم اتجه إلى دورة المياه ليغسل يديه ويستحم من آثار شهوته... كنت واقفةً مكاني أكاد أنفجر من الغيظ وأحشائي تتلوى من الجوع لكن كبريائي منعني من أمد يدي على الطعام... جلست على الأريكة الخشبية تاركة الطعام حتى خرج من الحمام ونظر إلى قطعة اللحم الملقاة أرضاً... ودون كلمة واحدة وجدته يغير وجهته إلي ليمسكني بكل عنف من شعر رأسي ليجرني أرضاً وسط صراخي المتألم حتى ألصق وجهي بالأرض إلى جوار قطعة اللحم الملقاة لأسمع فحيحه الغاضب:

- نعمة ربنا يا بنت الكلاب ما تتسابش على الأرض... كليها

- قلت من بين أسناني وأنا بين يديه ووجهي ملتصقاً بالأرض:

- آآآآ ما إنت الي رميتها؟... كيف بدك ياني كلها من على الأرض؟ آآآآ...

- أنا رميتها لك عشان أكسب فيكي ثواب يا كلبه يا نجسه...  
مش عشان تسببها على الأرض

- خلاص خلاص راح قيمها من عالارض دخلك سيب شعري  
خلاص

ترك شعري بعد أن صدم رأسي بالأرض وتوجه إلى الغرفة اعتدلت جالسةً على الأرض وأنا ألهب غضباً وقهراً... قمت برفع قطعة اللحم من على الأرض وتوجهت لرفع صحيفة الطعام الكبيرة فسمعته يقول من داخل الغرفة:

- اتسمي بدل ما آجي أطفحك بالجزمة

جلست مرغمةً لمائدة الطعام وبدأت أكل دون أن أشعر بمذاق الطعام... وكأنني كنت أكل علقماً من مرارة القهر والإكراه

الذي يحيطني... خرج وقد ارتدى كامل ملابسه وأخرج سلسلة مفاتيح من جيبه ليفتح باب إحدى الغرف ليدخل إليها للحظات ثم يخرج ويغلقها من جديد بإحكام... وقف أمامي وقال دون أن ينظر لي:

- أنا خارج يا وش العكننة... أرجع ألاقي البيت نضيف... هتلاقي ثلاث إوض مفتوحين... تنضيفهم عشان جايلي ناس بالليل... مفهوم؟

- مفهوم

خرج الحيوان من الباب وسمعت صوت المفتاح... نهضت بغل وقيمت برفع صحيفة الطعام وأدخلتها إلى المطبخ... بدأت في تفتيش المنزل فتحت كل درج مغلق.... فتشت في كل خزانة... نظرت أسفل كل كرسي وفرش.... لم أكن أعلم عن ماذا أبحث.... كنت أريد أن أجد شيئاً... أي شيء... وقفت عاجزة أمام الحجرة المغلقة... كان جنون الفضول يحرق خلايا عقلي وأنا أحاول أن أعرف ما تحتويه تلك الغرفة... مر الوقت وأنا ألتهم أعصابي غضباً.... كنت في تلك الأثناء بالغرفة التي لأك الكلب فيها جسدي... كنت ألتفت ناحية النافذة لأرى ذلك الظل الذي تحرك بسرعة وكأنه كان يراقبني في صمت!!!!

أجفلت للحظة... تقدمت بحذر في اتجاه النافذة المسمرة لأجد بين خصاصها تلك الورقة المحشورة فيها.... استخدمت أظافري حتى استطعت سحب الورقة... نظرت بين خصاص النافذة علي أرى ذلك الذي وضع تلك الورقة الصغيرة فلم أجد ذلك الحارس الذي كان يراقب النافذة ولم أجد سلاحه... قمت بفض الورقة لأقرأ فيها:

(لا تخافي... سيتم انقاذك... كلمة السر... نسر)

## الفصل العادي عشر

### مولد الروح

عدت صحبة أمي زينب إلى الحرمك وقلبي يرقص طرباً...  
اليوم صرت رسمياً الأميرة زهرة الشرق سيدة سنجق الأهوار...  
لكن ما كان يسعدني ويثلج صدري هي تلك الروح الجديدة التي  
سكنت قلبي... فهمت كلمات أمي زينب حين حدثتني عن حلاوة  
الإيمان في قلب المؤمن... أي شيء في الدنيا قد يخيفني أو يؤذيني  
وقد كتبت حياتي بيد الخالق الرحمن الرحيم... إن حدث الخير  
أشكره وإن حدث السوء أصبر فأجزى خيراً بصبري على البلاء...  
اليوم علمت سبب تلك الابتسامة التي أسرت كياني على ثغر أمي  
زينب... فهي تعلم أن كل ما يصيبها قد كتبه الله لها وأن الله لا  
يضيع أجر الصابرين على البلاء ويكفر عن سيئات عباده المتقين  
بالبلاء في الدنيا وهم في الآخرة لا خوف عليهم وهم لا يحزنون

وصلنا إلى الحرمك لأقابل وصيفتي وأختي التي كانت بالفعل  
من اسمها شفاءً لروحي ونفسي كلما أملت بي آلام الذكريات  
ووسوسات الشيطان... شفاء التي تبعثني للإسلام لما علمت  
بأمر اعتناقها له... شفاء التي سيعلن إسلامها على يد الشيخ عبد  
الله وسأكون رفيقتها في مجلس إشهار إسلامها... قضينا الوقت  
سويةً نقرأ القرآن ونتفقه في أمور ديننا في مكتبة السنجق... كنا  
نصلي سويةً بالحرمك خلف أمنا زينب التي ما ادخرت جهداً  
في تعليمنا أمور ديننا ودنيانا... قابلتني العزيرة شفاء على باب  
الحرمك ورأت إشراق وجهي بالابتسامة فاستقبلتني بعناقٍ طويل



وهي تضحك وتذرف دموع الفرح من عيناها وقالت وأنا لازلت بين ذراعيها:

- مباركاً لكي يا سيدتي وأختي في الإسلام

- بارك الله فيكي يا أختاه... غداً هو يومك... وسأرافقك للديوان بنفسني

ثم أخفضت صوتي وهمست لها بخبث:

- وسيقف بجوار الأمير فارساً وسيماً

احمرت وجنتا شفاء حتى ماثلت حمرة الورد... وابتسمت بخجل ولم تجاوب... فاصطحبتها لجناحي وجلست أحدثها عما حدث بديوان الأمير... حتى قاطعنا صوت طرقاتٍ على الباب فأذنت للطارق بالدخول لأجده آغا الحرملك يعلمني بوصول الأمير والشيخ عبد الله بن خالد وأمي زينب... تعجبت لتلك الزيارة الغير متوقعة غير أن قلبي ازداد خفقانه فرحةً لرؤية حبيب الروح... نظرت لشفاء لأجد خيبة الأمل في عيناها ففهمت أنها كانت تتمنى حضور حسام الدين برفقة أستاذه... ربت على كتف شفاء وأذنت للآغا بدخول الزائرين ووقفت وشفاء لاستقبال الحاضرين... دخل الأمير وتبعه الشيخ عبد الله وتبعته أُمي زينب والتي ما أن دخلت حتى لمحت الفارس حسام الدين واقفاً بالخارج نظرت خلسةً لشفاء لأجد خداهما مشتعلان حمرة... رحبت بالأمير وبالشيخ وتقدمتهم للشرفة وأجلستهم وعاونتني أُمي زينب في إحضار الماء البارد وصب العصير وجلسنا جميعاً بالشرفة بعد أن تعمدت أن أمر شفاء بالانتظار خارج الجناح والتي طارت لتنعم بالنظر إلى حبيبها ولو حتى نظراتٍ صامتة.

وما أن استقر بنا الحال حتى قالت أُمي زينب وعلى وجهها

ابتسامتها التي لاتفارقها:

- مولانا الأمير فارس الدين حضر إليك يا سيدتي حتى يعرض عليك أمراً

احمرت وجنتاي وقلت بحياء:

- نفسي فداءً لوالينا المفدى

قال الشيخ عبد الله بعد أن نظر إلى الأمير مبتسماً:

- ابنتي الأميرة زهرة الشرق... يقول الله في محكم آياته في كتابه المبين

{بسم الله الرحمن الرحيم}(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون) صدق الله العظيم{... ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم... يا ابنتي... جئتكَ اليوم بصحبة الأمير فارس الدين كرك خورشيد والي سنجدق الاهوار لنطلب يدك زوجةً لأمرنا... وقد استخار أميرنا الله تعالى في أمركَ فارتاحت نفسه لك... فانظري ما قولك وما ترين... واعلمي أن شريعة الله تقتضي قبولك ورضاكي... فقرري بكامل إرادتك الحرة ولا تخشين شيئاً

كنت أذوب خجلاً وحياءً وأنا أرى الأمير ينظر أرضاً وقد ارتسمت ابتسامته الواثقة الحلوة... آه لو يعلم مدى عشقي لعيناه... كان الحياء يمسك لساني وإن بدت ملامح الفرحة في عيني... هربت ببصري لوجه أمي زينب التي نظرت إلى الشيخ عبد الله وقالت:

- حفظ الله أميرنا وسيدة سنجدنا وبارك لهما وعليهما وجمع بينهما في خير

ابتسم الشيخ عبد الله وعاد بنظره إلى وجهي الملتهب من الخجل وقال:

- لم نسمع صاحبة الشأن يا خاتون... برغم أن وجهها يظهر ما يعتمل بنفسها النقية... ولكن أمر الله أن نسمع قبولها

مهممت والخجل يقتلني:

- أنا ونفسي فداءً لمولانا الأمير

اتسعت ابتسامة الشيخ عبد الله ونظر للأمير وقال:

- مباركاً لك يا ولدي وليجعلها الله لك سكناً ورحمةً وليرزقكم الله الذرية الصالحة

- بارك الله فيك يا شيخ الإسلام... وأريد أن أسأل زهرة الشرق خاتون عن مهرها الذي ترضاه

تفجرت الدهشة في أعماقي... لأي مدى يصبر ذلك الفارس أن يأسرني ويمتلك قلبي؟... مهر؟؟؟... لقد كنت سبية حربٍ ملكها بحد السيف في حربٍ كسرت شوكة أعداء دينه وبلاده... وكنت غارقةً في بحرٍ مظلمٍ من الحيرة... وكنت من أعداء الله أحارب الله ورسوله وكنت في كفري بالله من الضالين... كنت كل ذلك حتى امتدت يد ذلك الفارس فانتشلني من ظلمات الجهل إلى نور الهداية وحب الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم... وأنقذني من الحيرة والضلال بأن أضاء لي الطريق بالحقيقة التي كانت غائبةً عن عينايا... ورفع مقامي وأكرم نزلي واستضافني بقصره ورد لي حريتي وكرامتي... أحبك أيها الفارس وسافعل ما

بوسعي لإسعاد قلبك وروحك يا حبيب الفؤاد ومنقذي من  
الظلام وبرائن الضياع... نظرت إلى عينا الأمير وقلت له:

- مهري هو رضاك عني يا مولاي

- شرع الله يقتضي ألا أحرمك حقك يا سيدة السنجق... وقد  
عاهدت الله والسلطان أن أكرمك وأحسن إليك جزاءً وفاقاً لما  
قدمته للإسلام والمسلمين

- وأي شيء قدمته الأسيرة التتارية لدين الله الذي نصره الله  
من فوق سبع سماوات؟

- أما علمتي أن الإسلام يعتز بمن اتبعه ويزداد عزةً بإيمان  
معتنقيه؟... يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيباهي  
بأمته الأمم يوم الدين... وقد ازداد المسلمين بك وبوصيقتك  
الصغيرة... أدعو الله أن يثبتكما على دينه ويضيء قلبكما بنور  
الإيمان

كان فمي منفرجاً دهشةً من كلام الأمير... إلهي ما أعظمك وما  
أعظم دينك... ديناً يحب متبعيه ويحبونه... ديناً يعلي من قيمة  
الإنسان والحياة ويحفظ الحقوق والكرامة... ديناً أمن الإنسان  
على ماله وعرضه... ديناً يكرم النساء ويسميهم المحصنات  
ويحفظ حقوقهم في المال والجسد والنفوس والكرامة... كلما  
علمت عن هذا الدين كلما تعلق قلبي به... خرجت من شرودي  
لأقول:

- إن كان لي أن أطلب مهراً فلي عند الأمير معروفاً سيكون لي  
أغلى المهور

- أدعو الله أن يوفقني لأدائه... ما هو طلبك يا سيدة  
السنجق؟

- شفاء

نظر الأمير لي دهشةً وأوماً برأسه أن أكمل الحديث فقلت:

- لقد تعطف علي الأمير بالحرية... وأكرمني وأعلى قدري بطلب يدي للزواج... وأرجو منه أن يتم علي فضله وأن يعتق رقبة وصيفتي لوجه الله... فقد شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله... وغداً بإذن الله يوم إشهارها من نساء المسلمين... وأطمع في كرم مولاي بعثتها ووهبها حريتها

نظر لي الأمير وتبسم ضاحكاً... حتى الشيخ عبد الله وأمي زينب لم يتمالكا نفسيهما فضحكا... نظرت بين الوجوه حائرة لا أفهم سر تلك الضحكات حتى قال الأمير لي:

- وهل لي أن أحكم فيما لا أملك يا سيدتي؟

ظلت أنظر إليه وقد ارتسم التساؤل على وجهي... حتى تمتت:

- لا أفهم ما تعني يا مولاي

نظر الأمير في عيني وقال باسمًا:

- لقد كانت شفاء ولا زالت ملك يمين سيدة السنجق... مذ خرجنا من قلعة الجبل وقد أوصى السلطان الظاهر أن تكون وصيفتك... فبتحرك صار مصير شفاء بين يدي سيدتي ولا أملك لها من الأمر شيئاً

اتسعت عيني دهشةً من كلمات الأمير ونظرت لأمي زينب التي كانت لاتزال تبسم بصفاء وأومات رأسها وقالت:

- نعم يا ابنتي... من يقرر مصير شفاء هو أنت لا أحد سواك

رقص قلبي بين ضلوعي فرحاً بما سمعت وعزمت بيبي وبين  
نفسي أمراً... وبعد لحظاتٍ من الصمت قلت وقد نظرت في عين  
الأمير وقلت:

- إن كان الأمر كذلك فمهري هو زيارة بيت الله الحرام في  
موسم الحج

ساد الصمت والدهشة وجوه الحاضرين حتى قال الشيخ  
عبد الله بصوتٍ مليئاً بالانبهار بطلبي:

- نعم المهر ونعم الطلب يا ابنتي

ثم نظر إلى مولاي الأمير قائلاً وهو يربت على كتفه:

- بارك الله لك فيها يا بني... نعم الاختيار... وأستحلفك بالله  
أن تعاهدني على أن تلبّي لها طلبها

نظر لي الأمير وعيناه تلتمعان فرحاً وفخراً بي وقال:

- بحق شهادة أن لا إله إلا الله أعاهدك يا سيدة السنجق  
على الحج لبيت الله في العام القادم بإذن الله... والله على ما  
أقول وكيل

انتهى مجلسنا وخرج الأمير وقد تحدد زواجنا في الهلال  
القادم من الشهر أي بعد عشرة أيام... وقد عقدنا العزم أن يكون  
وكيلي شيخ العرب سليمان بن أحمد وأن يشهد على زوجي حسام  
الدين وإبراهيم الشاهنشاه كاتب سر الأمير... قبل مغادرة الأمير  
استأذنت في الحديث إليه على انفراد فأخذنا ركناً من الجناح  
تحت بصر الشيخ عبد الله وأمي زينب وتحدثت إلى الأمير وقلت:

- مولاي... لي رجاء أرجو أن توافقني فيه

- وهل لي أن أرفض رجاء سيدة قلبي وقصري؟

احمرت وجنتاي وقلت:

- سأسألك عن أحد رجالك لأرى رأيك؟

- سلي ما بدا لك يا مولاتي

- حسام الدين

تعجب الأمير وظهرت الدهشة على قسماته وسألني:

- ولماذا السؤال؟

- سيدي... لقد احتلت شفاء قلبي فأحببتها كأختي وجاء إسلامها فجعل منها أختاً لي أمام الله وصارت لي الأهل والسلوى وصارت لي كاسمها شفاءً للروح... وأصارحك بما يعتمل في قلبها الصغير الذي تعلق بحب الفارس حسام الدين... إنها تحبه يا مولاي... تحبه حباً ما علمت بمثله إلا حيي لك

كان الأمير ينظر لي باهتمامٍ شديد حتى أنهيت كلامي فقال:

- ألهذا أردت عتقها؟

- أجل يا مولاي... ظننت أنها إن أطلقت حرةً قد يميل قلب حسام الدين لها... إنها تكتوي بنار الحب ويمنعها تدينها وخجلها من البوح بما يعتمل بقلبها الصغير

ابتسم الأمير ابتسامةً مشرقة ونظر إلى الأرض مفكراً ثم عاد ببصره لبصري وقال:

- دعي الأمر لي يا سيدي وطمئني قلب الصغيرة شفاء... أما عن حسام الدين فهو لي كمثّل ما تمثله لك شفاء الصغيرة...

فهو تلميذي ورجلي الأول ورفيق دربي... فإن شاء الله لصغيرتنا الشفاء أن تكون من نصيب حسام الدين فهنيئاً لها برجل مؤمن يحمل من أخلاق الفرسان وصفاتهم ما يسعد قلبها ويجعلها راضيةً معه

كنت غارقةً في عينا حبيبي حتى كدت ألقى بذاتي بين ذراعه... كم أحبك يا فارس الدين... استفتت حين أنهى كلماته لأبتسم له وأهمس قائلةً:

- ليت الأيام العشرة تمضي كما يمضي البرق في السماء

ابتسم فارس الدين ابتسامته المشرقة وقال:

- لا تتعجلي يا حبيبة القلب فالعجلة من الشيطان والصبر صفة المؤمنين

في صباح اليوم التالي كانت شفاء قد تجهزت لمقابلة الأمير بديوان السلامك بالقصر لجلسة إشهار إسلامها وقد كانت تجلس معي بجناحي الذي كان يموج بحركة الأغوات والجواري وقد علت الوجوه البسمات والفرحة لتجهيز جناح خوند الأمير... كانت زينب خاتون تعمل بكل حب واهتمام وكأنها تجهز ابنتها الحقيقية للزواج... كانت تشرف بنفسها على اختيار الأقمشة التي سيصنع منها الشوار والملابس... حتى حضر إلينا آخر من توقعنا أن يأتي ليقف بجسده الممشوق ويقول بحياء:

- السلام على سيدة السنجق

نظرت إلى محدثي والدهشة الممزوجة بالفرحة تغمري لأقول:

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته



قال الفارس حسام الدين دون أن ينظر لي وإن لاحظت  
اختلاسه نظرةً إلى شفاء التي تحولت إلى زهرة حمراء من احمرار  
وجنتها وقد تعلقت عيناها على حسام الدين:

- أرسلني أستاذي لاصطحابكم برفقة شفاء خاتون لمجلس  
الإشهار

قلت وأنا أبتسم وأنا أنقل بصري بين الفارس حسام الدين  
وشفاء التي كدت أسمع وجيب قلبها من مجلسي:

- بأمر مولانا

قمنا أنا وشفاء وسرنا خلف حسام الدين وأنا أمسك بيدها  
الباردة كالثلج... كنا في طريقنا وكانت شفاء تذوب خجلاً وهي  
تحاول منع نفسها من إطالة النظر للفارس حسام الدين حتى  
وصلنا للقاعة وشاهدنا ذات المجلس وذات الوجوه تقدمت  
شفاء ووقفت أمام الأمير الذي رأيت عيناه تنظر لعيناها وتنطقان  
بمعاني الحب فابتسمت له وقد احمرت وجنتاها قبل أن ينظر  
لشفاء وقد تقدم حسام الدين حتى وقف إلى جوار الأمير... قال  
الأمير:

- حضرنا اليوم حتى نعلن إشهار إسلام أمة الله شفاء  
القبجاقية... فما رأي الشرع يا شيخ الإسلام:

نظر الشيخ عبد الله لشفاء وقال:

- مولاي الوالي... أعز الله قصرك وأهل بيتك... وليجزيك  
الله الخير لما قدمته للإسلام بأن زاد معتنقيه بقصركم العالي...  
ولكن أمر الله تعالى أن تمنح المهلة لتتأكد من إسلامها

كانت شفاء تنظر للشيخ عبد الله حتى أنهى كلامه ثم نظرت

لي لأبتسم لها مشجعة... فأخذت شهيقاً وقالت:

- سيدي شيخ الإسلام... مولاي الأمير... من تقف بحضرتكم هي إنسانةٌ حكم عليها قضاء الله أن تنشأ في ذل وهوان الأسر... كنت أسيرةً للتتار منذ أن كنت في الثالثة من عمري... اعتدت القسوة والمهانة حتى آمنت أنني لن أستطيع العيش دونهما... لم أكن أملك أنفاسي التي تتردد بين ضلوعي... انتقلت جسداً وروحاً كالجماد الذي لا يملك من أمره شيئاً من يدٍ ليد... كنت أظنني أقل من البشر مكانةً وأن مقامي في الحياة لن يعلو عن مقام الهوام والحشرات... كان السوط يعلم طريقه إلى جسدي حتى ما عاد بجسدي طاقةً للألم فما عدت أشعر إلا كما تشعر الأنعام حين تلسع ظهورها السياط وهي تجر العربات... وشاء القدر أن أكون في خدمة القائد كتبغا... وشاء الله تعالى أن أكون أسيرة جيش السلطان الظاهر أعزه الله وأيده وأطال بقاءه... لتشرق الشمس على تلك البقايا الإنسانية التي ظلت بجسدي وروحي... نمت ملئ جفوني وطعمت من رزق الله ما سد رمقي... ثم أكرمني الله بأن آتي رفقة الأميرة زهرة الشرق إلى كنف مولاي الأمير... وأنار الله بصيرتي بالإسلام... فولدت من جديد... أصبح جسدي ملكي وتعلمت شفتاي الابتسام وصار لي حقوقاً كإنسان... رأيت الإسلام وأخلاقه بما عاملني به مولاي الأمير أعزه الله تعالى... أكرمني وعاملني كأهل بيته... أحيا ما مات بقلبي من مشاعر الإنسانية والرحمة... ثم شاء الله لي أن أقرأ كتابه الكريم فأحياني بعد ممات وبعث بي الأمل وحب الناس... ذقت طعم الحنان على يد أمي زينب وأختي في الله الأميرة زهرة الشرق... أبعد كل هذا يا شيخ الإسلام تسألني أن أفكر؟... أبعد كل هذا... تعتقد أنني سأرجع عن دين حفظ إنسانيتي وأطعم من جوع وأمني من خوف وأعزني بعد امتهان؟... وحق لإله إلا الله لو وضعت الدنيا على طبقٍ من ذهبٍ أمامي على أن أترك هذا الدين ما فعلت...

وأشهد أن لا إله إلا الله... وأشهد أن محمداً رسول الله.

أنهت شفاء حديثها وهي تهتز وتغرق الدموع عينها... ساد الصمت والوجوم الوجوه والمكان... كانت دموع الشيخ سليمان بن أحمد قد أغرقت لحيته البيضاء وكان شيخ الإسلام عبد الله بن خالد يحاول منع دموعه التي انسابت من عيناه... لم أتمكن من منع نفسي فتوجهت إلى شفاء وأخذتها في أحضاني وربت على رأسها أمام أنظار الجميع... نظرت للأمير الذي كان يداري وجهه حتى لا يرى أحد دموع عيناه وقلت:

- مولاي الأمير.... شيخ الإسلام... أستحلفكما برحمة الله ألا ترداها إلا وقد أعلنتموها من نساء المسلمين

رد شيخ العرب سليمان قائلاً:

- حاشا لله يا سيدتي... والله إن ما بداخلها من إيمان بالله تعالى يفوق ما بداخل من ولدت على دين الإسلام... وأقسم بالله العلي القدير أن أخرج على الناس معلناً للقبائل إسلام عزيزة المقام شفاء خاتون

ثم نظر إلى الأمير وقال:

- ما قولك يا سيدي الوالي

- نعم الرأي والقول يا شيخ العرب... لتتقدمي يا أمة الله وتعلمي إسلامك

خرجت شفاء من بين ذراعي ورفعت رأسها وسبابتها للسماء وقالت بصوتٍ خنقته العبرات والدموع وقالت بخشوع:

- اللهم فاشهد... اللهم فاشهد... أشهد أن لا إله إلا الله...

وأشهد أن محمداً رسول الله

انتهت شفاء من الشهادة... فمال الفارس حسام الدين على  
أذن الأمير وهمس له بشيء لم نسمعه ليشرق وجه الأمير وينظر  
إلى حسام الدين ويومئ له ثم ينظر إلي ويقول:

- بصفتي والي سنجق الأهوار ونيابةً عن تلميذي الفارس  
حسام الدين أتقدم لك يا زهرة الشرق خاتون لطلب يد شفاء  
خاتون لقائد خشداشيتي وأخلص رجال خاصكيتي الفارس حسام  
الدين لتكون له زوجةً وسكناً... وأشهد من بمجلسي على ذلك  
فانظري ماترين

فغرت شفاء فاهها وقد اشتعلت وجنتاها بالحمرة وهي تنظر  
غير مصدقةً لقول الأمير... كانت الدهشة تملكني وأنا أنقل  
بصري ما بين الأمير وحسام الدين الذي شد قامته ووقف لجوار  
أميره ولم يبدو على ملامحه أي شيء غير تلك الحمرة الخفيفة  
التي علت وجنتاه... فنظرت لشفاء لأسمع أنفاسها المبهورة وهي  
تحاول أن تهرب بعيناها إلى الأرض... ابتسمت ونظرت لعينا  
الأمير الذي أوماً برأسه مشجعاً فقلت:

- الأمر لصاحبة الأمر

كانت شفاء قد فقدت النطق والفرح يتفجر في عيناها  
وقلبها... ودون كلمة واحدة أومأت رأسها بحركة خفيفة لم يك  
يراهما أحد لأسمع صوت شيخ الإسلام عبد الله بن خالد يقول  
والفرح يقطر من كلماته وقد رفع رأسه ويدها إلى السماء:

- اللهم بارك لهما وبارك عليهما واجمع بينهما في خير يا رب  
العالمين... اللهم أنر بيت عبدك فارس الدين وكل بيوت رجاله  
بالفرحة وارزقهم الذرية الصالحة يا الله

نهض شيخ العرب سليمان واتجه إلى حسام الدين وقد  
أمسك بكتفيه باعتدالٍ وفخر وقال:

- والله لأجعلنها ليلةً تذكرها قبائل الهوارة جمعاء لألف  
عام... هنيئاً لك يا حسام الدين بعروسك وليجعلها الله لك مسرةً  
وفرحة ويرزقك منها بصالح الذرية... وأستأذن مولانا الوالي كرك  
خورشيد بأن أكون وكيل العروس وأن يكون فرحنا فرحين بأن  
ننف سيدتنا زهرة الشرق لمولانا الوالي وننف الشريفة شفاء لأمير  
حاميتنا الفارس حسام الدين في ليلةٍ واحدة

ابتسم فارس الدين ونظر إلى شيخ العربان وإلى حسام الدين  
الذي علت وجهه الابتسامة والهناء وقال:

- منذ متى لم أوافقك الرأي يا أمير العربان وشيخ قبائل  
الهوارة؟

كان قلبي يكاد يقفز من صدري فرحةً وسروراً... الآن اكتملت  
فرحتي..... بت ليلتي وشفاء وأمنا زينب في فرحٍ وقد غنت  
الجواري واحتفلن بالخبر السعيد الميمون.

\*\*\*

شعرت بالأمل يرتجف بين جنباتي وأنا أقرأ الورقة للمرة  
الثالثة غير مصدقةً لما جاء فيها... تلفت حولي والدهشة  
والفرحة والخوف يصطرون بداخلي... رباه... أهذا حلمٌ أم  
حقيقة؟... كان رأسي يدور بألف احتمال وألف نتيجة... ماذا  
لو كانت خدعةً من كلب داعش؟... ماذا سيفعل بي إن تبين له  
أنني كنت أفتش داره وقد سقطت في كمينه؟... ماذا لو كانت  
حقيقةً وقد استجاب الله لدعائي ورجائي بالنجاة؟... ولكن من  
سيقوم بإنقاذي؟... ولماذا سينقذني أنا دون غيري؟... عاودت

النظر من بين فتحات خصاص النافذة فلم أرى أحداً بالمكان... أين ذهب ذلك الحارس الذي كان يراقبني؟... ظلمت أنظر حتى شاهدته يعاود الجلوس أسفل النخلة وقد أسند بندقيته الآلية على جذعها وعاد للنظر إلى النافذة من جديد... أكاد أقسم أنه يراني ولا أدري كيف ليحدث آخر ما كنت أتوقعه... وجدته يومئ برأسه ويقوم بوضع كفيه متقاطعين ويشبك إبهاميه ممثلاً بيديه طائراً محلقاً كالنسر... (كلمة السر... نسر)... ثم قام بإخراج ورقة أخرى تشبه الورقة التي كنت لا زلت ممسكاً بها وقام بتمزيقها لقطع صغيرة في إشارة لأفهم أنه يريدني التخلص من الورقة فوراً... من هذا الحارس؟... يشبه في لحيته وسلاحه وملبسه مقاتلي تنظيم داعش... أيعقل أن يكون التنظيم مخترقاً؟... كان رأسي يدور ولا أعرف ما القرار الصحيح... عاودت قراءة الورقة التي كانت لازالت بين يدي... كنت أرتجف خوفاً... مزقت الورقة إلى قطع صغيرة كما فعل المقاتل الغامض وقمت بالقائها في بالوعة الصرف وتأكدت من اختفائها تماماً... كنت أجلس بين أثياب القلق والحيرة... ماذا عساي أن أفعل؟... كنت أرتجف من أن أكون قد وقعت في اختبارٍ للولاء... ولكن أي ولاء ينتظرونه مني؟... كما أنني قد عايشت ذلك الكلب المسعور عبدالرحمن لفترة وأستطيع القول أنه ضيق الأفق لأبعد الحدود... أيعقل أن يكون بالذكاء الذي يجعله يفكر أن يرتب لي كميناً كهذا؟.... كانت الأسئلة القلقة تتراكم فوق بعضها حتى كاد الصداع يفتك برأسي... قمت إلى المنزل لتنظيفه وترتيبه محاولةً أن أجد في العمل ما ينير بصيرتي... انتهيت من ترتيب المسكن واستلقيت على السرير... ظلمت أفكر حتى غرقت في النوم...

فتحت عيناى على أصوات القادمين للمنزل... تسلمت بخفة إلى الباب المغلق وفتحته وحاولت النظر إلى الخارج فأريت ما يقترب من العشرة رجال وبينهم عبد الرحمن وذلك المقاتل

الغامض الذي أرسل لي الورقة... كما لفت انتباهي تلك المرأة المنتقبة التي كانت تقف بأحد الأركان بانكسار وذل... شاهدت ذلك الكلب عبدالرحمن قادماً باتجاه الغرفة فأسرعت بإغلاق الباب وجلست على السرير وأنا أرتجف... فتح الباب لأجده أمامي فوقفت حتى لا أتعرض للأذى فقال:

- إلبسي نقابك وتعالِي بسرعة

غطيت وجهي وخرجت من الغرفة ووقفت أمامه ليقول دونما اهتمام:

- روجي يا مرة اعلمي شاي وخدي الجارية دي معاك

نظرت إلى المرأة التي توجهت دون كلمة واحدة إلي ونظرت لعيناي... عجباً... تلك العينان لا يمكن أن تكون عينا أسيرة مهانة لإرهابي متشدد... كانت عيناها قويتان تبرقان ببريق قوي... أومأت لها وتقدمتها إلى المطبخ وأثناء ذلك اختلست الأنظرات لذلك المقاتل الغامض الذي أرسل لي الرسالة والذي لم ينظر تجاهي مطلقاً لأسمع عبدالرحمن يأمر الرجال قائلاً:

- هيا إلى غرفة الاجتماعات يا إخواني... حي على الجهاد

سبقهم عبد الرحمن إلى حجرة على يمين المنزل كنت قد دخلتها فلم أجد بداخلها سوى طاولة كبيرة وقد رصت حولها الكراسي الخشبية... وبعد أن دخل آخر الرجال أغلقوا الباب التفت لتلك المرأة المنتقبة التي كانت تنتظرني بالمطبخ لأجدها تتجه للباب وتغلقه وسط ذهولي... ثم توجهت إلى النافذة المدعمة بالحديد ونظرت من خلالها وكأنها تراقب الطريق... ثم واجهتني لترى الحيرة والدهشة والخوف يرسمون على وجهي... رفعت نقابها لأرى وجه فتاة بملامح مصرية وعينان لامعتان

بنيتان فقالت لي بصوتٍ هامسٍ منخفض:

- إقلمي النقاب يا ديمة ما تخافيش

- مين إنت وكيف بتعرفي إسمي؟

- شششششش وطى صوتك... ما تخافيش

ثم اقتربت مني وهمست بأذني:

- نسر

اتسعت عيناى وأنا أحملق بها ورفعت نقاي عن وجهي  
الذي أصبح أبيضاً كالشمع من الخوف وسألتها هامسة:

- هللا بدى أفهم مين إنت وإيش بتريدي... ومين بعثلي  
هالمكتوب؟

- ما تخافيش يا ديمة... أنا إسمي سمر... واللي حطلك  
الورقة معايا... إحنا عارفين كل حاجه عنك من ساعة ما دخلتي  
إسرائيل... مش عايزاكي تقلقي... إن شاء الله هنخلصك... بس  
احنا محتاجينك

كانت الدهشة والأمل قد سيطرا على كل خلية بكياني...  
لم أشعر بنفسى إلا وأنا ساجدة على أرض المطبخ أرتجف وأنا  
أهمس:

- الحمد لله... الحمد لله

قامت سمر بالإمساك بي وأعانتني على النهوض وربتت على  
ظهري وقالت:

- امسكى نفسك امال... ما توديناش في داهية



- إيه إيه... حاضر إختي... بس الله يخليكي خديني من هون...  
هاد الكلب... عذبني كتير... ما فيني أتحمل

- إهدي يا بنتي عشان ماقدمناش وقت كتير... لازم نطلعهم  
بالشاي... المهم غايزاكي دلوقتي تتصرفي عادي خالص... سايري  
عبد الرحمن على الآخر... انت ست زي وفاهمه... بصي أنا عارفه  
إن اللي هطلبه منك صعب... بس التحريات بتقول إن الواد ده  
كلب نسوان... ده ساب أمه بين الحيا والموت وما جابلهاش  
العلاج عشان يتصرمح مع واحده رقاصه... اسمعي يا ديمة...  
لازم تخليه خاتم في صباعك لازم تخليه يتعلق بيكي ويأمنلك

- كيف بدي سوي هيك يا سمر؟... وبعدين هو حكا إنه إمه  
ماتت لأنه ماكان معو حق العلاج

- ماكانتش أول مرة يكذب يعني... الكلب ده كانت أخته  
بتشتغل في محل ملابس وكانت كل فلوسها بتعالج بيها أمهم...  
ويوم ما أمه ماتت كانت المفروض تاخذ جرعة دوا مهمة وكانت  
أخته شايه الفلوس واداتهاله عشان يشتري الدوا... والباشا خد  
الفلوس وراح للرقاصه اللي كان مصاحبها وئاخر... وصرف كل  
الفلوس ولما رجع كان ربنا استرد أمانته... يوميا أخته طردته من  
البيت... وبعد مدة اتجوزت ابن صاحب البيت وكتبلها الشقه  
الي كانو عايشين فيها وبعد الجواز قعد معاها في الشقه... ولما  
حاول الأخ يرجع وأخته منعتة هي وجوزها قتلهم وهرب وانضم  
للجماعات الإرهابية وهرب من مصر كلها من الأنفاق

كانت الصدمة والدهشة تعقد لساني فلم أجد ما أرد به...  
كنت أرتجف من الخوف والغضب... إذاً فالشيخ المجاهد الذي  
يحارب أعداء الله الكفار ليس إلا شاباً فاسداً غارقاً في الملذات  
المحرمة وقتالاً هارباً!!!!

صبت سمر الشاي المغلي في الأكواب على صحيفة معدنية وأخرجت من جيبيها زجاجة بقطارة صغيرة الحجم وأعطتها لي وقالت:

- خدي دي

- إيش هاد؟

- إسمعيني كويس... أنا عارفة إن الأخ ده حشاش درجة أولى... وبيحشش كل يوم تقريباً

- إيه... صحيح

- تمام... كل يوم بالليل بعد ما يشرب الهباب... تعمليلو كباية شاي وتحطي نقطتين من القزاة دي... دي مادة هتخليه يتوه ويحس بهلاوس.... فيا إما هينام ومش هيعمل حاجه فيكي يا إما هيحضن المخدة ويفتكر نفسه نايم معاك... ولو استعملتي ذكائك هتقنعيه إنه ما يلمسكيش غير لما يشرب فهيكون عندك فرصة تسقيه الشاي وتخلصي منه ومن أي محاولة إنه يلمسك... ولما يفوق هيفتكر نفسه وحش زمانه

تناولت القطارة من يدها وخبأتها بصدري وحملت صحيفة الأكواب وحملت هي صحيفة أخرى عليها السكر وباقي الأكواب وقد أنزلنا النقاب على وجهينا وتوجهنا إلى غرفة الاجتماعات... طرقت سمر الباب ليفتح لنا ذلك الحقير قاتل أمه وأخته ليشير إلينا... فدخلنا ووضعنا الصحفتين على المنضدة وغادرنا الغرفة... وأثناء خروجي سمعته يهمس بأذني ويقول:

- خدي البت دي واتلقحوا في أوضيتنا وعلى الله واحدة فيكم تخرج... أقسم بالله هدفنها مكانها

أومأت له برأسي وعيناى تنطقان بالخوف والرهبة... كنت لازلت في صدمة مقابلة سمر وحقيقة ذلك القدر... نظرت لسمر وأشرت لها أن تتبعني... دخلنا الغرفة وأغلقت الباب لأجد سمر تقوم برفع النقاب مرةً أخرى وتنظر لي... رفعت نقاي وألف سؤالٍ يصطرع في رأسي وسألتها بذات الصوت الهامس:

- هللا...

قاطعتني بأن وضعت سبابتها على فمها وأشارت للنافذة... تقدمت من النافذة ونظرت بين خصاصها ليصدمني ذلك المقاتل الذي أسرع ليبعد عنها... نظرت لسمر التي فعلت أغرب ما توقعته... أنزلت النقاب وصرخت بأعلى صوتٍ ممكن... انتفضت من هول المفاجأة وفي لحظةٍ واحدة كان الباب يفتح لأجد عبد الرحمن وبصحبه ثلاثة آخرين يفتحون الباب فأسرعت بإنزال نقاي على وجهي وأنا أرى البنادق الآلية المشهورة في وجهي لتصرخ سمر قائلة:

- هي حصلت إن واحد من رجالتك يبصبص لنساء الدار يا شيخ أبو عبيدة؟

نظر إليها عبد الرحمن والنار تستعر في عيناه ليقول:

- بتقولي إيه يا مره؟

- واحد من رجالتك كان يببص على حريمك يا أمير... ولولا زوجتك شافته كان زمانه بيزني بينا بعنيه

انفتح فمي من الدهشة لمدى براعة سمر في التمثيل وقد اتسعت عيناى ونظرت لعبد الرحمن الذي توحشت ملامحه واندفع بغضبٍ جارف إلى خارج الدار وبصحبه الرجال الثلاثة وبعد لحظات كانوا يدخلون للدار وهم يجرون ذلك الحارس من

فتحت عيناى لأجد سمر تجلس إلى جوارى بالفراش وترت  
على برفق... تذكرت المشهد ففزعت وانتفضت جالسةً لأجدها  
تمسك بى بقوة وتقول:

- كيف بدك إياي إهدا... ما شفتي هالوحوش شو عملوا بها الزلمة؟

- سراج؟

- لیش؟

221

تسألني على أي حاحه... وأوعدك هـنخلصك من اللي انت فيه...  
انت في مصر... وربنا قال ادخلوها بسلام آمنين

نظرت لها... كانت عينها تطلقان البريق الذي أحيا الأمل  
بقلبي... كانت بالنسبة لي طوق النجاة... سألتها والفضول  
يقتلني؟

- ما راح تحكي لي مين إنت؟

- كله في وقته... لكن اللي أقدر أقوله لك إني معاك... وإننا  
مش لوحـدنا

- طاب هـللا شو راح نساوي؟

- الأول عايزاكي تحكي لي حصل في إسرائيل بالتفصيل  
الممل

أومأت برأسي... وبدأت أحكي حكايتي لتلك الفتاة التي  
أخرجت صرخة ميلاد الأمل بقلبي وروحي.

## خاتمة الجزء الأول

كان معتكفاً في خلوته يمارس طقوسه الجهنمية بوعي غائم..... كيف حدث هذا؟... بعد كل ما فعله هو وآبائه ليظلّ السر خافياً عن العيون حتى يتحقق المراد يحدث ما حدث بتلك البساطة؟..... لا.... لن يسمح بهذا مهما كلفه الأمر.... حتى وإن كلفه إزهاق آلاف الأرواح..... فلا شيء سيقف أمام الحلم الذي يسعى إليه هو وبني جلدته على مدار العقود والسنين..... لن يوقفه شيء مهما كان عما بدأه أجداده حتى يمهدوا الأرض لعودة مملكتهم الضائعة..... كانت الأفكار تدور في عقله حينما دخل عليه خادمه خلوته ووقف في خشوعٍ ينتظر أوامره.... ودون أن ينظر إليه قال بصوته العميق:

- هات ما عندك

- هناك رسالة وصلت إليك يا سيدي

مد له يده دون أن ينظر إليه وقام الخادم بتسليمه الرسالة وانصرف من الصومعة..... كان متلهفاً لقراءتها فهو ينتظرها على أحر من الجمر وما أن قرأها حتى أضاءت وجهه تلك الابتسامة.... ابتسامة ذئبٍ أمام ضحيته.

\*\*\*

جالساً في ظلام مكتبه المضاء بضوء مصباح خافت ليسمح له بالقراءة في أكوام التقارير المكدسة أمامه..... رغم عشقه لعمله وإدراكه لخطورته وأهميته إلا أنه يتوق للراحة..... فالفترة الحالكة التي مرت بها البلاد كانت أطول مما يجب....

والآن عليهم إعادة الأمور إلى نصابها.... كان يعلم أن الطريق لا زال طويلاً وأن التحدي لا زال في بدايته وأن القادم لا زال أصعب وأكبر مما يمكن تصوره.... قطع حبل أفكاره صوت طرقات الباب لينتبه ويقول:

- اتفضل

دخل الشاب إلى المكتب وتقدم إليه ووقف منتصباً ليؤدي التحية العسكرية له بقوة ويضع أمامه ملفاً ضخماً ويقول:

- تقرير ٥٦٦ وصل يا فندم

- والشفرة؟

- اتحلت واطرجمت

- قريت التقرير؟

- تمام يا فندم

- وايه الأخبار؟

- أعتقد هنضطر نستنى شوية.... الصيدة المرة دي كبيرة قوي.... وضربتنا هتكون ثقيلة قوي لو قدرنا نستدرج الهدف لحد عندنا

- تفتكر البنت هتستحمل وهتتعاون معانا؟

- ٥٦٦ بتأكد إن البنت جواها قوة هتخليها تتقبل ده.... ربنا معاها

أطرق الجالس على المكتب برأسه قليلاً مفكراً.... ثم نظر إلى الشاب وقال في تؤده:

- لازم المعلومات دي تكون على مكتب القيادة حالاً.....  
ربنا يكون في عون البنت..... استحملت كتير قوي.... ربنا يقدرها  
على اللي جاي

تمت بحمد الله...







جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر



noon\_publishing@yahoo.com  
0235860372 - 01127772007